

الكتاب العربي السعودي



أحمد السباعي

سُباعيات

طبعة أولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

مقدمة

إن من أهم ما امتازت به الصحافة السعودية أنها منذ نشأتها المبكرة قد حظيت بأقلام أدبية رفيعة المستوى.

فقد عملت هذه الأقلام على رفع مستواها، وساهمت بكل ما تملك من قوة على إخراجها الإخراج الجيد.. الأمر الذي يدل على الروح الأدبية العالية التي كان يمضي بها هؤلاء. ولعلّ أحد البراهين على ذلك هو هذا الكتاب الذي تشرفتُ بجمعه وتقديمه إلى القارئ السعودي والعربي على حد سواء؛ ليستطيعوا أن يروا الإجادة التي تجلّت واضحة فيما قدموا من أعمال.

فهذا الكتاب هو في الحقيقة مجموعة من المقالات القديمة التي جمعتها من بين المجلات والصحف، وهو لأحد كبار رجال الصحافة والأدب في المملكة العربية السعودية بل هو شيخ الصحافة في هذا البلد المعطاء، فمنذ ظهور الصحافة فيه.. والأستاذ السباعي يعطي ويقدم.. ويعمل من أجل خدمة مجتمعه، والنهوض به ولا يألو في ذلك جهداً.

لقد حظيت أعمال السباعي الأدبية بكل تشجيع من المسؤولين في بلده، وعلى رأسهم جلالة المغفور له الملك" فيصل "بن عبد العزيز –رحمه الله– والذي أعجب أشد الإعجاب.. بكتاب "دعونا نمشِ "الذي كتبه شيخنا في مرحلة مبكرة من حياته.

فكان ذلك التشجيع وتلك الاستجابة الخيرة دافعاً لمزيد من العمل والعطاء والإبداع.

وأحمد السباعي، بدون شك، غني عن التعريف، فعبارته تمتاز بمتانة التركيب، وأسلوبه بجزالة اللفظ وسلاسة التعبير، ومعانيه بقوة التصوير ووضوح المغزى.

وهو إلى جانب ذلك قد بزَّ أقرانه الأدباء بخصائص وميزات أدبية سبق بها جيله.. إنها أوليات انفرد بها في مجال الأدب السعودي، أوليات استحق بها عن جدارة أن يلقب بـــ "شيخ الصحافة السعودية" رغم ما عُرف عنه من تحفّظه لهذا اللقب.

فهو:

أولاً :أول مَن ناقش موضوع المرأة في الصحافة السعودية ودعا إلى ضرورة تعليمها، ونجد ذلك في مقال له نشر في كتاب" وحي الصحراء "في الخمسينيات، أردفه بمذكرات كان ينشرها في

جريدة" صوت الحجاز "وتحت اسم مستعار" فتاة الحجاز .."ويتلقى عليها ردوداً قاسية ممّن أخذوا عليه موقفه الشاذ في بيئته.

ثانياً :وهو أول مَن وضع للمدارس المحلية مؤلفاً باسم" سلم القراءة العربية"، وكانت المدارس يومها تقرأ في كتب مصرية تتحدث عن الأهرام والأزهر، فقررت مديرية المعارف يومها رسمياً تدريس "سلم القراءة العربية" مكانها وهي سلسلة في ستة أجزاء.

ثالثاً :وهو أول مَن كتب سلسلة مقالات بعنوان" :مدارسنا "في جريدة صوت الحجاز، وناقش فيها الكثير من المشاكل التربوية، فكان أول مَن طالب بالعطلة المدرسية في الوقت الذي كانت فيه المدارس بلا عطلة سوى عطلة الحج والعيد.

رابعاً :وهو أول مَن أسس مسرحاً في المملكة العربية السعودية وظفر بالموافقة على إنشائه.

خامساً :وهو أول مَن أحال قصة المطوِّفين وموضوع السماسرة إلى الصحف.. وكتب فيها طويلاً..

سادساً :وهو أول مَن كتب فصولاً من التاريخ في أسلوب قصصي جميل فكانت من روائع الأدب الرفيع.

هذا أحمد السباعي.. وهذه قصة" سِباعيات "أقدّمها للقارئ.. سائلاً الله عزّ وجل أن يوفقنا جميعاً لكل ما فيه خير هذا البلد.. وهو ولي التوفيق.

عدنان محمد فائز الحارثي

لبيك..

فيم كل هذا؟؟
فيم هذه الحشود يموج بها البحر؟؟
فيم هذه الطائرات يزخر بها الجو؟
فيم هذه الناقلات تسيل بها الوديان؟
فيم كل هذا؟؟
إنه نداؤك يا رب.. فلبيك..
لبيك.. اللَّهم لبيك..
تركوا نعيمهم وجاءوا لموعدك شعثاً!!
خلعوا زينتهم.. وهرعوا إلى بابك عرياً!!
سلخوا راحتهم.. وأقبلوا على أعتابك غُبراً!!
فيم كل هذا؟؟
إنه نداؤك يا رب.. فلبيك
لبيك.. اللَّهم لبيك
ليت توفيقك يشملنا فنعرف كل الطرق إليك..
ليتنا ننفر إلى كل من يتجهمنا في مثل هذا الزحام!!
ليتنا نواجه كل من يغتصبنا في مثل هذا الحشد!!

ليتنا نثبت أمام كل من يستضعفنا بمثل هذا الزحف.

ليتنا نهتف في كل ميدان تدعونا إليه: لبيك..

لبيك.. اللَّهم لبيك..

أمرتنا أن نعيش متساندين.. فنسينا ما أمرت!!

وكلّفتنا أن نظل متوادين.. فضللنا عما هيأت!!

وهيأتنا لنظل أسياداً.. فأضعنا ما كلفت!!

اغفر اللَّهم حوبنا فقد جئناك مذنبين.

وبصرنا بأمورنا فقد أقبلنا تائبين.

وأرشدنا إلى كل ميادين الكرامة.. لنهفو متسابقين.. لبيك.. لبيك.. اللَّهم لبيك.

رجماً للشيطان

كانت فيما يبدو من لهجتها حاجَّة مثقفة، وفي ثقافتها كثير من أفكار العصر..

استوقفتني من أعوام مضت على كثب من جمرة العقبة، وقد رأتني أفرغ من أدائها وقالت:

–أمن مكة؟؟

–نعم..

–أريد أن أفهم.. أصحيح ما يُقال إننا لو كشفنا جدار الجمرة لوجدنا الشيطان مغلولاً في سلاسله داخلها؟؟

وتطلّعت فإذا وجه يلمع رواء الصبا في تقاسيمه، وتنطق معاني التحدّي في ملامحه.

فقلت: هل زرتِ بلداً أوروبياً..؟؟

قالت: درستُ في باريس. وعشت فيها سنوات من عمري.

–هل زرتِ قبر الجندي المجهول؟؟

–زرته أول وصولي إلى باريس!!.. وقدمتُ إليه صفحة من رياحين.

–وما تعنين بهذا؟؟

–أكرمه طبعاً.. أو قل أكرم فيه الجندية كما يفعل كل الناس.

–وهل تظنين أنك لو كشف لك عن قبره ستجدين جثمانه ماثلاً أمامك..؟؟

–أبداً فالمسألة رمز لا أكثر ولا أقل.. أريد بها تكريم الجندية في ذلك الشاخص.

–وما يمنعك إذن أن تعلّلي هذا التعليل بالنسبة لهذا الشاخص؟!

لقد رُوي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام رأى الشيطان في هذه الجهات التي نرجمها، فرماه بحجر.. فنحن نتأسى ما فعل. وقد فعله النبي صلى الله عليه وسلم قبلنا ونحن نقتدي بما فعل كأمر تعبدي.

ونحن مع هذا نرمي هذا الشاخص أو ذاك كرمز لتحقير مَن نلعنه.. نفعل هذا قبل أن تعرف أوروبا هذه المعاني العميقة.. فهل تستبعدين أن تكون الفكرة عندهم منقولة عنا، وأنت تعرفين أنهم رضعوا لبان حضارتهم من ثدي أمتنا قبل أن يعرفوا معنى الحضارة؟

وشيء آخر أرجو أن لا تنسيه فقد نقل عن العرب في جاهليتهم أن المرأة كانت تحتفر في بيتها قبراً رمزياً لابنها القتيل بعيداً عنها.. وتظل تبكيه، وهي بما تفعل لا أكثر من رمز تحيي فيه ذكرى ولدها، وتطفئ جذوة لوعتها بما تسح عليه من دمعها.

قالت وهي تشد على يديَّ في حرارة: أُشهد الله أني قنعت.. وأني منذ اليوم سأقدر جميع المعاني السامية التي تلوح في أفق الإسلام.

إلى معالي وزير الصحة

نشرت في جريدة الندوة عام 1387

يا للحياة!

إنه مسكين.. لا تكاد تقع عليه العين حتى تدرك أن حركاته تستدر الدمع وتتفطر لها أقصى القلوب ألماً وأسى.

ما إن رآني أدخل غرفة التحليل في مستشفى أجياد حتى تحامل على نفسه وأهاب بي: الرحمة يا أصحاب الصحف.

ونظرتُ فإذا شاب لا يتجاوز عقده الثالث يترنح أمامي في قامة تفككت أوصالها، وماع جذعها حتى لا يقوى على الوقوف إلاّ مستنداً على حائط أو باب، ولا تخطو قدمه إلاّ متكئاً على كرسي أو مكتب، أمّا أطرافه فلا تنفك ترتعش في شكل حزين، أمّا لسانه فيلوك الكلمات ولا يكاد يفصحها.

قلت: مهيم. قال: أهذا أنت تراني أنهكني المرض من سنوات وسنوات، وقد قيل إنه لا علاج لي في أي بلد من الشرق، وإنه لا بد لي من السفر إلى أوروبا أو أمريكا لعلّهم ينقذون شبابي.

وأنا رجل فقير الحال، متزوج ولي أطفال لا أكاد أجد ما أطعمهم، فمن أين لي ما أنفقه على علاجي في أوروبا؟

وأنا كما ترى موظف تابع لوزارة الصحة وقد تقدمت إليها لتسعفني بالعلاج في أوروبا أو أمريكا فحسنات حكومتي ومليكي من هذا النوع لا يحصيها العدد، وعطف وزير الصحة لا ينكره أحد ولكن سوء حظي تركني إلى ما ترى.

قلت: وما يمنعك أن تتقدم بطلب رسمي إلى وزارة الصحة؟

قال: لقد فعلتُ وفعلتُ ومضتْ أوراقي إلى الهيئة الطبية العليا في الرياض، فقررت إرسالي للعلاج في القاهرة، فسافرت إليها في عام 80 فلم يفدني علاج القاهرة، فاستأنفت الاسترحام وانتهت الأوراق إلى الهيئة الطبية العليا، فقررت إرسالي إلى بيروت فسافرت إليها عام 84 ولكني عدت منها كما ذهبت.

إن علاجي كما فهمت لا ينفع في غير مستشفيات أوروبا، وأنا كما تراني فقير الحال فإذا لم تدركني شفقة الوزير فسأبقى معذباً طول حياتي.

قال هذا وهو يبسط أمامي صوراً من التقارير الطبيّة التي يحتفظ بها ونظرت فإذا فيها: "محمد نور عبد الله" هندي، مصاب بالتباس ظهري متقدم نحو الشلل العام.

إنه يستغيث بمثلي ولست إلاّ صحفياً لا أملك إلاّ هذا القلم الذي يرتعش في يدي.

فهل لي أن أتوجه إلى معالي وزير الصحة وهو محط أنظار هذا البائس المتهالك.

هل لي أن أستثير شفقته ليتفضل فيشمله بها؟

إن كلمة واحدة يأمر فيها بترحيله إلى أوروبا ليعالج في مستشفياتها ربما كانت كافية لإنقاذ هذا الشاب رحمة به وبزوجه وأطفالهما.

هل نهيئ البلاد العربية لصراع القوى؟

لا أعرف مجالاً صال فيه العرب في عهدهم الأخير مثل ما صالوا في مجال فلسطين.

ولكن إلى أي حد استطاعت فلسطين أن تستفيد من صولاتهم؟ أخشى أن أقول إن ما أفاده العرب لأنفسهم من فلسطين أكبر بكثير ممّا كان مقدراً لفلسطين أن تناله منهم!

فهم لا يكادون يختلفون، أو يشتد النزاع بينهم، وتتوتر العلاقات حتى ينادي بينهم منادي "فلسطين" ليجتمعوا ويتصافحوا ويتقابلوا في بعض الأمور أو جلّها، وقد ينجحون إلاّ في أمر فلسطين الذي يظل مجالها في مكانه كمعرض دائم صالح للجولات والصولات لا أكثر.

قد يقال إننا وقد اجتمعنا على تحويل روافد الأردن بدأنا نخطو عملياً أهم خطواتنا في سبيل فلسطين، وهي خطوة لا أشك في أنها ستكون موفقة إلى حد بعيد إذا أعددنا عدتها صادقين لدعمها، وإلاّ فالويل لبلادنا إذا نحن اكتفينا بها كدعوة لصولاتنا ومجالاً لا أكثر نستعرض فيه عضلاتنا.

تُرى هل أدخلنا في حسابنا أن المغتصبين ربما جعلوا من موضوع التحويل مبرراً يتذرعون به لشن هجمات عدوانية جديدة على أراضينا المتاخمة، وأن مثل هذه الهجمات ربما تكررت فاضطرتنا أو إياهم إلى اشتباك جاد قابل للزحف والتوسع.

قد يُقال إننا نرحب بهذا ولا يعجزنا أن نجعلها فرصة العمر نجلي بها العصابة المغتصبة.. ولكن أهذا هو كل شيء؟؟

أنا لا يحلو لي أن أرتاب في كفاءة المعنيين بهذا من أبطال العرب ولكن خيالي يتسع إلى فروض أغنى لو نُعنى بدراستها عناية واسعة.

نحن نشهد أن عالمنا اليوم تتطفل على اقتسام نفوذه قوتان متصارعتان، وتعرف في الوقت نفسه أن مغتصبي أراضينا يستندون إلى إحدى القوتين استناداً لا يوصف بما تستند إليه الدول المتحالفة من بنود.. يستندون إلى مَن يتبناهم ولا يتوانى لحظة واحدة عن تسخير جميع إمكانياته الجبارة لخدمتهم، بالإضافة إلى من يمالئه من كبريات الدول التي تحالفه.

فهل درسنا هذا التكتيك السياسي؟ وهل ضمنّا هذه القوة وبتنا متأكدين من حيادها لنأخذ فرصتنا كاملة ضد المغتصبين؟

يبدو أننا إذا استطعنا أن ننجح في عزل هذه القوة التي تتبنى خصومنا، وأن نضمن حياد جميع الممالئين من كبريات الدول المعروفة بممالأتها فقد خطونا إلى النصر من أوسع أبوابه.

قد يُقال إننا لا نأبه لقوة من تبناها أو مالأها ما دام في الطرف الآخر من العالم قوة تستطيع أن تستنجدها إذا جد أوان الجد.. ولكنه قول تترامى وراءه أفدح الأخطار وأهولها.

وهي أخطار رأينا نماذجها في كوريا وإفريقيا، ونرى مثلها اليوم في الدومينيك وفي فيتنام وما سيجد على منوالها في أقطار الأرض.

رأينا أقطاراً واسعة أبيحت ميادينها لصراع القوتين الهائلتين فأبادتا فيها معالم الحياة وأشعلتاها شواظاً التهم أهلها من اليمينيين أو اليساريين.

فهل نبيح بلادنا لمثل هذا الفناء الذي لا نضمن من نتائجه إلاّ الدمار الشامل أم يحسن بنا أن نسعى قبل كل إعداد إلى ما يضمن حياد الجبارين؟

إنها فكرة قد تبدو غريبة لصعوبة تنفيذها، ولكن الأصعب منها أن نستعجل أمورنا فنهيئ بلادنا لتكون مسرحاً لصراع القوى.

التعليم والوظيفة الحكومية

إذا كنا تعودنا أن نكتب ما يخالجنا من إحساس لصالح بلادنا فليس معنى هذا أننا وحدنا –جماعة الكتّاب– مرهفو الإحساس، ففي الزوايا مئات الألوف يحسّون أشد مما نحس وإن كانوا لم يتعودوا نشر أحاسيسهم بالصورة التي تعودناها.

تلقيتُ اليوم من صديق لي عدة صفحات تفيض بالكثير من أحاسيسه، وهو يرجوني تولّي عرضها لعلّ المعنيين يخصونها بشيء من عنايتهم خدمة للبلاد.

وإذا كان المجال هنا لا يتسع للكثير الذي أفاء به فحسبي أن ألخص أهم ما جاء في صفحاته، وأن أتولى عرضها تباعاً كلما سنحت الفرصة.

يثني صاحبي على عناية الحكومة بالتعليم، وما تبذله وزارة المعارف من جهود في سبيل نشره، ثم يذكر البادية ويعدد أسماء القبائل فيها من شرق إلى غرب ومن شمال إلى جنوب، ويشير إلى المدارس التي انتشرت بين كل هذه القبائل من ابتدائية إلى متوسطة، ثم يشيد بالنشاط الذي يبديه أبناء القبائل والمثابرة التي ظهرت آثارها واضحة في نتائجهم حتى شوهد الكثير منهم يتخطى التعليم المتوسط إلى الثانوي في أقرب المدن إليه، ويتخطى بعضهم التعليم الثانوي إلى أبواب الجامعات في إصرار يحمدون عليه.

ثم لا يلبث حضرته أن يسأل إلى أين هذا المصير؟؟

إنه لا يتركنا لنجيب عليه، بل يتولّى الجواب بنفسه ليقول: إنه سيتخرج في كلية التجارة أو الآداب أو الحقوق أو غيرها مما هو على غرارها ليهيئ نفسه للوظيفة.. وللوظيفة فقط!!

وهنا في رأيه تبدأ المشكلة!! إنه يرى أن وظائف الدولة من هذا النوع سوف لا تتسع غداً لكل هذه الجيوش التي تلفظها الجامعات أو مدارسنا الثانوية أو حتى المتوسطة.

يرى أن الخطر كل الخطر في أن يصبح جميع شبابنا لا يصلح لغير الوظيفة.. سيتكتل كل هؤلاء على أبواب الوظائف، وستضيق الوظائف بهم على مر السنين؛ بدليل ما نشهد اليوم من بوادر هذا الضيق.. سيجدون أنفسهم غداً عاطلين فيعيشون هاملين، وبذلك يسيئون إلى أنفسهم وبلادهم بقدر ما تخيلوه من معاني النفع.. وربما عرّضهم ذلك للكثير من أبواب الفساد والشر والإجرام لا سمح الله.

وهو لهذا يؤمل أن يبادر أصحاب الاختصاص في التوجه إلى دراسة الفكرة من سائر وجوهها قبل أن يتفاقم الأمر ويستعصي على الحل.

وهو هنا يضرب الأمثلة ببعض الأمم التي سبقتنا في هذا الطريق على مثل هذا المنوال، ونسيت أن تحتاط للفكرة قبل أن تستفحل نتائجها، فكانت النتيجة أن تجاوز الأمر حدّه فجانس ضده، فعاش الكثير منهم حياته عبداً للوظيفة لا يُحسن غيرها.. حتى إذا ضاقت الوظائف بهم ارتكسوا وذاقوا من التعطيل والإهمال ما أفسدوا به أنفسهم وبلادهم.

وهو لا يقتصر في حديثه الفياض على ما يخشاه من إعداد التعليم للوظيفة في البادية بل يضيف إليه خوفه من النتائج نفسها في كثير من المدن.

وهو لهذا يعرض الأمر على ذوي الاختصاص آملاً أن يجد عندهم ما يستوفي العلاج.

لنتدبر كل مقروء

الحياة ألوان.. فما يمنعنا اليوم أن نستطرف ونستلمح؟

سألني صاحبي وهو يضع يده على الكتاب ويضحك للمفارقة الغريبة التي قرأها.

ما رأيك في أم عمرو هذه؟ عشقها غريمها على السماع، والسماع فقط دون أن يراها. وبعد أن تصبب بها طويلاً وتدله في حبها.. بلغه أنها ماتت فأعلن الحداد لموتها وعاش يبكيها!

قلت: إنها من خرافات القصّاصين.. وإذا أبيت إلاّ أن تجعل لحديثها أصلاً فيصح أن تسمّي الغريم مجنوناً أو رجلاً شذ على قواعد البشر وليس لشواذ الحياة ما يعتدَّ به.

إن الرؤية يا صاحبي أول عناصر الحب، فلا بد لإثارة عواطفك من أن ترى!!.. وليس معنى هذا في رأيي أن تطيل النظر، فاللمحة الخاطفة ربما كانت أبلغ إثارة من النظر المطمئن لأن النظر المطمئن؛ يدقق المساحة فلا يستنسب نتوءاً قد يبدو له في الصدغ أو بروزاً في الأنف أو جموداً في الملامح على عكس النظرة الخاطفة التي تسترق نظرك فتنفعل وتتوقد حواسك فجأة.

والنظرة المطمئنة تستطيع تدقيق المقاييس. فمقاييس الجمال كما تعرف تختلف باختلاف الأفراد وإن كانت تتفق باتفاق البيئات في بعض أحوالها.

بعض البيئات قد تتفق في لون العين أو لون الشعر أو بروز النهد أو طول القامة، كما يتفق بعضها في الأنف المحزوم أو الشفة المتدلية أو الخد والذقن يحليها خطوط الوشم (المشالي) أو رسوم الوشم بالأخضر والأزرق.

قد تتفق البيئات على بعض المقاييس في الجمال، ولكن أفرادها لا بد أن يختلفوا في بعض المعايير: استدارة الوجه أو استطالته، دقة الأنف أو استقامته، أو امتلاء الجسم أو تهالكه.

قد يكون لنبرة الصوت أو رخامته جاذبية تستثير الأذن، ولكنها استثارة لا تكفي – في رأيي– لأن يثير له المغرم وتتوقد حواسه فيعلن الحداد إذا فقد الصوت.

فما بالك بعاشق أم عمرو؟ هل راشته نظرة أو استثارته نبرة؟

إنه خبر لا أكثر، تحدث له عن جمالها مصـــادفة، فما معنى أن يتدله في غرامها إلى هذا المنتهى المتطرف.. وما معنى أن يعلن الحداد إذا ماتت أو بلغه أنها ماتت!..

ربما استطعت قبول الرواية إذا اتسق سياقها مع حكايات الممرورين والمجانين، وإلاّ فهي عندي لا تزيد عن خرافة ممّا يلفّقه القصّاصون.

والقصاصون في الأدب العربي لذَّ لهم الإمعان في أوسع آفاق الخيال ولا أستبعد أن أسلافنا كانوا يعرفون من شأنهم أكثر ممّا نعرف، وأن رواتهم ما كانوا يتناقلون أمثال هذه القصص على أنها حوادث يجوز وقوعها، بل طرائف يصح أن يتفكهوا بها في مجالسهم كما نتفكه اليوم بالنكت الضاحكة.

ولعلّ من أهم ما يغرينا اليوم بتصـــديقها أننا نقرؤها مطبوعة، وللمطبوع أثره في الإغراء، ونقرأ في ثناياها شعراً رصيناً يمثل حوادثها ولم يكن الشعر الرصين معجزة عند أصحاب الإبداع من القصاصين.

ليتنا نتدبر كل مقروء!! ولا يستغرقنا كل مطبوع!

مقام إبراهيم

حمدنا للحكومة عنايتها بالتوسعة في الشوارع والمشاعر، كما حمدنا لها في توسعة المسجد الحرام، وفي المطاف حول الكعبة إلاّ أن إبقاءنا على مقام إبراهيم قائماً في مكانه أضاع علينا فرصة الاستفادة من توسعة المطاف بعد أن أنفقنا في سبيلها الملايين، فالحجاج يطوفون اليوم في رحاب جد متسع حتى إذا انتهوا إلى مقام إبراهيم انصبّوا في مضيق كأنه عنق الزجاجة، فركب الأقوياء ضعفاء الناس وداسوهم في سبيل روايات لم تتأكد عن موقع إبراهيم.

وإنَّ مَن يطّلع على فتوى فضيلة المفتي الأكبر في شأن ذلك يجد أن كل ما اعتمدناه لثبوت مقام إبراهيم في مكانه قابل للجرح، كما يجد أن أهم ما في المسألة هي رواية سيل أم نهشل الذي اقتلع المقام من مكانه؛ ممّا أُضطر الخليفة عمر –رضي الله عنه– أن ينتقل من المدينة إلى مكة ليحقق موضعه ويعيده إليه.

هذه الرواية لم تثبت ثبوتاً يفرض اعتماده، فبعض رجال السند في هذا الحديث قيل في شأنهم الكثير ممّا فصّله فضيلة المفتي اعتماداً على ما نقله الثقاة من نقاد الحديث.

على أن ثمة ناحية أخرى لها قيمتها في الموضوع، فنحن نسأل هل كان مقام إبراهيم ثابتاً في مكانه هذا أو في غيره وهل كانت له في صدر الإسلام هذه القبة التي تشغل هذا الحيز الواسع حوله.

إن تقي الدين الفاسي وهو من أعلام مؤرخي مكة يذكر القبة فيقول إنه لا يعرف مَن بناها إلى أن يقول: ولعلّ الصليحي ملك اليمن هو أول مَن بناها في عهده الذي اقتحم فيه مكة. والصليحي من دعاة المذهب الباطني عاش في منتصف القرن الخامس الهجري.

ويشير الأزرقي إلى مقام إبراهيم في أكثر من موضع من كتابه، فيذكر أنهم كانوا ينقلونه إذا ازدحم الموسم إلى بعض أطراف المسجد، وفي بعض المرات إلى جوف

الكعبة، كما يذكر ابن بطوطة أنه شـــهد مقام إبراهيم وقد أخرجوه في أحد الأيام إلى باب الكعبة من جوفها.

كل هذا يدل على أنه لم يكن ثابتاً في مكان واحد، وأن سلفنا حتى في عهد بني أمية كانوا ينقلونه إذا ازدحم الموسم، فما يمنعنا أن ننقله أسوة بهم؟ وما يمنعنا أن نزيح قبته ما دامت مستحدثة لا يعرفها عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا صحابته؟!

وما دام ديننا يقرر (لا ضرر ولا ضرار) فلماذا نصر على هذا الوضع ونحن نشهد الضحايا من الطائفين يقضى عليهم دهساً بالأرجل بين يدي مقام إبراهيم؟!

لقد كتبتُ هذا في خطاب مطوّل إلى جلالة المغفور له الملك عبد العزيز فأُحيل كما علمت إلى لجنة من العلماء لدراسته، ثم أطبق عليه ولا أعلم إلى اليوم ماذا تم في شأنه، ولعلّ علماءنا لم يوافقوا على ما فيه.

ولكن فضيلة المفتي وقد بدأ اليوم يحتضن الموضوع ويحقق في شأنه ويصدر فتواه بجواز نقله، فإني أتمنى أن يحالفه النجاح الذي خانني، كما أتمنى إلى الرابطة الإسلامية أن تبسـطه للبحث في إحدى جلسـات المؤتمر لهذا العام لعلّ العلماء من شـتى أقطار الإسلام يقتنعون بضرورة نقله رحمة بالشهداء الذين يعانون دهساً تحت الأرجل.

ومن رأيي أنه إذا تعذر نقله رغم كل هذه البينات فإن في اسـتطاعتنا أن نزيل القبة المستحدثة ونهبط بالمقام عدة أمتار تحت الأرض ثم نعيد سطح الأرض من زجاج متين شفاف يبيح للطائفين أن يتوسعوا في طوافهم وأن يشاهدوه أو يصلوا حوله إذا شاؤوا كلما خف الزحام.

[نشر هذا من أكثر من عشرين سنة وأخيراً تم الرأي على إزاحة بناية المقام وإقامة شاخص مكانه ولكن عنق الزجاجة بقيت يتعثر فيها الطائفون].

عوّدونا الإحساس بالذات

كثيرة هي الأشياء التي تحيّرني في هذه الحياة، ويتعذر عليَّ أن أجد تفسيراً معقولاً لها.

أنا وأنت وألوف الملايين من أمثالنا عشنا عُصاة لا نحترم القوانين إلاّ إذا ظلت القوانين قائمة على رؤوسنا، ولا نتحرى عمل الواجب إلاّ مدفوعين بعامل الضرورة جلباً للمصلحة أو خوفاً من العقاب.

والغريب في الأمر أن دعاة الإصلاح في الأرض عاشوا من أول يوم خلقت فيه الأرض يجاهدون في سبيل الخلق الفاضل، فذهبت تسعة أعشار جهودهم هباء مع الرياح، وحتى الجزء الباقي لا أعتقد أنه استقام إلاّ وهو يرجو الاستفادة أو يخاف الضرر.

وأغرب منه أن الكثرة ممّن تعاقبوا على دعوة الإصلاح كانوا هم أنفسهم لا يستقيمون إلاّ في جوانب تقتضيها ظروف أنفسهم، لا يستقيمون إلاّ في جوانب تقتضيها ظروف أعمالهم في الدعاوة، فإذا امتحنتهم الحياة أو واتتهم ظروفها في غير تلك الجوانب نسوا الفضيلة، وراحوا يتمتعون بلذائذ ما ينكرونه على غيرهم.

لست أعني بهذا نفي الفضائل عن وجه الأرض فهناك أفراد سمت أرواحهم إلى أقصى ما تصل إليه الفضيلة، ولكنهم كانوا في عمر الزمان قلة لا تغير قاعدة الحياة.

ونحن في زماننا نسمع أن بعض البلاد المتمدنة تهذبت طباعها فانتهت إلى درجة كبيرة من الفضل. فهم يقدِّرون قيمة الصدق، ويعرفون للأمانة حقها، وربما فعلوا الخير للخير نفسه، وربما امتازوا بشرف ننساه في كثير من معاملاتنا.

نحن نسمع هذا ونعرف أنه حقيقة واقعة.. ولكن أيقال إن مثل هذا السلوك نابع عن مزايا فاضلة أم دفعت إليه ضرورة الحياة؟

أمّا أنا فأعتقد أنهم قوم ضرستهم الحياة بتجاربها، فعلّمتهم أن فرص النجاح في أكثر دروب الحياة وثيقة الصلة بالسلوك الصادق الأمين، وأن سخاءهم بالخير في سبيل الخير فقط أسلوب ممتاز لتدعيم النجاح.

هم عقلاء في نظري أكثر منهم فضلاء، وبهذا نعود إلى القاعدة التي اقتضتنا تحرّي الواجب بدافع من الضرورة جلباً للمصلحة أو خوفاً من العقاب.

أريد من هذا أن أقول إن الحياة لم تنجح إلى اليوم، ورغم كل المحاولات المرهقة التي عاشتها، ما عاش الأبد، عجزت أن تهيئ النفوس الفاضلة وتطبعها على الخير المحض.

فالإنسان اليوم هو إنسان ما قبل التاريخ.. أنانيٌّ بطبعه، مغرمٌ بذاته لا يبالي في سبيل لذته بكل القوانين، ولا عبرة بالأدعياء والقوّالين الذين يستقيمون فيما تقتضيه ظروف أعمالهم وينسون آلاف الجوانب التي يستبيحونها متسترين أو متأولين.

* * *

ومع هذا فلا أرى أن الحياة يجب أن تيأس بعد كل هذا الإرهاق الطويل.

ولو كان لي رأي بين المصلحين لاقترحتُ عليهم أن يقللوا ما استطاعوا من فرض الأنظمة وإعلان القوانين وأن يجربوا بناء الشعور بالذات.

"لقد كرمنا بني آدم".. هذا التكريم نبع فياض، إذا حاولنا تغذيته بكل ما ينميه ليصبح شعوراً حساساً يزن الأشياء ويدقق فيما يكرمه منها، لاستطعنا أن نتنفس الخير بالسهولة التي نطلق فيها أنفاسنا دون أن نشعر.

إنه الضمير.. شعورك بذاتك، وأنك أكرم من أن تكذب أو تنافق أو تتاجر برأيك في الدين أو الوطنية أو تختلس أو ترتشي.. هذا الشعور يسمو بك عن الانحراف ويعلّمك كيف تدقق الحساب مع نفسك.

وثمة شيء يجب أن يُضاف.. ذلك هو التعوّد. فإذا نشأ المجتمع على تكريم نفسه، وترفّعت ذاتية أفراده عن الدنايا باتت الفضائل في نظره عادة ينساق إليها وهو لا يشعر، كما ينساق إلى شرب الشاي أو القهوة بحكم العادة.

لتعلِّمونا إذن كيف نكرم أنفسنا، ونحس بأن لذاتنا قيمة تدقق الحساب وليس هذا بدعاً فنحن نشهد الوجهاء مثلاً، وأعيان التجار، وكبار العلماء والمتفوقين في الصناعة كثيراً ما يدققون حسابهم في بعض الجوانب التي أَلِفوا تكريم أنفسهم فيها.

فالوجيه لا يلبس الثوب الممزق لئلا يخدش كرامته، والتاجر الغني لا يختلس في خمسة ريالات؛ لأنها أقل من قيمته في نظر نفسه، والعالِم الكبير لا يشارك في حلبة رقص لئلا يهين مرتبته العلمية، والمتفوق في الصناعة لا يغشك لئلا يهبط بميزته الصناعية في نظرك.

هذه ألوان من الإحساس بالذات تعوّدناها في بعض جوانب الحياة بإملاء من ظروفنا، فبتنا نتنفس بها تلقائياً دون أن نشعر.

فما يمنع هذه الأحاسيس أن تربى على مثل هذا الشعور في باقي جوانب الحياة؟!

يقولون الضمير.. ويختلفون كثيراً في معنى ما يحدده.. وأنا أرى أن الضمير ليس إلاّ شعورك بذاتك.. شعورك أن الله كرمك كإنسان.

مرة أخرى.. علّمونا كيف نكرم أنفسنا، وإذا أعوزكم هذا بالنسبة للمجموع فلا أقل من أن تعلّموه ناشئتنا الجديدة.. علّموهم كيف يحاسبون أنفسهم، وحاولوهم ليتعوَّدوا العمل الفاضل بدافع من ذاتهم ليصبح أمراً تقليدياً، فالتقاليد إذا تأصّلت بات المجتمع محكوماً لها، مأخوذاً بالمشي في ركابها تلقائياً دون أن يشعر أو يتكلّف.

خط البلدة. . مفخرتنا [1]

إن من سـائر المرافق التي نتميز بها عن سـائر بلاد الدنيا، ونرفع رؤوسـنا مباهين بها هي مواصلاتنا داخل البلدة!!

وإذا كان بيننا مَن ينسـى مآثر المجلس البلدي، وأمانة العاصـمة، وقلم المرور في آن واحد فما عليه إلاّ أن يقف إلى أقرب موقف من مواقف خط البلدة ليرى ضـــرباً من المواصلات لا يضاهيه نوع حتى في مجاهل إفريقيا!!

وإنْ تعجبْ فاعجب لكل هؤلاء الوفود والزوّار على اختلاف ألوانهم وأجناســـهم الذين عجزوا إلى اليوم عن أن يقتبســوا نظامنا في خط البلدة فيحذون حذوه ويقلدون أسلوبه.

لعلّ بخلنا بما عندنا حال دون قدرتهم على التقليد. فنحن لا تكاد بلادنا تزدحم بالحجاج حتى نضرب على الخط في بلادنا بخط أعرض منه، فيتعذر الاقتباس ويستحيل التقليد.

إننا البلد الوحيد الذي بلغ من تقديس الحرية الشـخصـية ما يبيح لكل صـاحب سيارة أن "يشطح" بها في أي وقت شاء، من أي طرف في البلدة إلى أي طرف، لا تحده ساعة يبدؤها، ولا وقت يتصرف فيه، ولا طريق خاص يلزم به، ولا لوحة تعيّن وجهته.

ربما جاء بسـيارته من الظهران أو من الرياض أو من جدة أو حتى من خط الأنابيب فمن حقه أن يقتحم الخط أي خط شاء في شمال البلدة أو جنوبها دون أن يتكلّف تغيير اسـم البلد المخطوط في ظهرها، فذلك نصـب لا لزوم له. ثم ليس من حقنا أن نكلّفه

---

[1] - كان هذا في عام 1375هـ.

كتابة جهة ربما عنّ له ألاّ يستغني عنها غداً إلى جهة أخرى ما دام الموضوع (شوعت)، وما دام لديه صبي أو أكثر يستطيع أن يملأ الشوارع بصراخه ويقلق راحة الناس حتى في بيوتهم.

ونحن إلى هذا يلذُّ لنا أن نبيحه أكثر من هذه الحرية، فلا نلزمه أثناء سيره أن لا يقف إلاّ في مكان معين، فهو حر لأن يستقبل أي راكب في أي مكان صادفه، أو ينزل غيره في أي جهة يختارها، وليس لركابه عدد محدود فذلك تعســـف وقعت في أخطائه جميع البلاد غيرنا.

ألا يا قوم في أمانة العاصـمة، ومجلســنا البلدي، وقلم المرور صـدِّقوني إذا قلت إنه ليس بينكم إلاّ صـديق أجلّه أو عزيز أكبره ولكن الكيل طفح وأن سكوتكم على مثل هذه الفوضى في كل هذه السنين شيء لا يصح أن تُعذروا عليه.. ولقد طالت الأقاويل حتى حسب الجهّال أن في الميدان مَن يستفيد من هذا الوضع! فهل يرضيكم؟

ألسنا مطالبين بهذا . . للتاريخ [2]

الأستاذ عبد الله خوجه من أبطال التعليم الليلي البارزين في المملكة وخدماته في هذا المجال من نحو 40 سنة معروفة مشهودة.

وهو إلى جانب هذا مولع بالعاديات الأثرية. عاش حياته يتتبعها ويبذل الكثير من ماله الحر على قلته في سبيل اقتنائها، حتى اجتمع له -كما يقول- من نوادر النقود والأحجار والأواني والملابس الأثرية وغيرها وغيرها ما يصح أن يكون نواة طيبة لمتحف أثري حافل.

وقد تلقيتُ منه من أيام كلمة يبثني فيها أمله في أسلوب مرير، ويسألني لماذا يسخو بنفسه ولا يبالي بما يرهقها في سبيل ما جمع من العاديات الأثرية، ويبذل من جيبه على قلة ذات اليد في سبيل أن يتحف بلاده بما يحملها، ثم لا يجد من المعنيين بالأمر مَن يقدِّر ما بذل أو يعيره أدنى التفاتة.

ويقول: لقد تقدمتُ إلى أمانة العاصمة أطلب السماح بإقامة متحف لعرض ما أملك من عاديات أثرية، فطلب المجلس البلدي إليَّ تقديم بيانات بأنواعها، فتقدمت بها في 14 صفحة، فرفعوا ذلك إلى إمارة مكة، وأحالتها الإمارة إلى وزارة الداخلية، التي أحالتها إلى وزارة المعارف، وقد جاء في قرار وزارة المعارف أنه من غير المفيد السماح للأفراد بإقامة متاحف خاصة؛ لأن ذلك من اختصاص الحكومة ممثلة في إدارة الآثار التي أنشئت حديثاً بوزارة المعارف.

إلى هنا لم يتجاوز الأمر إلى حده المعقول، ولكن ما يأتي بعده يدعو إلى كثير من الدهشة فهو يقول:

"وحينما راجعتُ وزارة المعارف أستطلعُ رأيها فيما سينتهي إليه الموضوع، أفادني المختصون بأن لجنة خاصة ستكوّن للاطّلاع على ما أملك من أثريات وتقوِّمه بالثمن المستحق توطئة لشرائه ليصبح ملكاً للحكومة، تستطيع عرضه باسمها.. ولكن هذه اللجنة لم تزل في عالم الغيب إلى

([2]) - كان هذا في عام 1379هـ.

اليوم، رغم ما مضى عليها من أشهر، ورغم مراجعاتي العديدة.. إلى أن يقول وقد كتبتُ إليهم أخيراً بأن العاديات بدأت تتعرّض للتلف، وأن تراكم الملابس بعضها فوق بعض في مكان ضيّق هيأ للعثة أن تتوالد في ثناياها وأن اضطراري إلى نقلها من مكان إلى آخر عرَّض بعض أنواعها للكسر أو التلف.

وهو بعد أن يمضي في بث ما يعانيه من ألم وهو يشهد ممتلكاته الغالية يدب إليها الفناء يرجوني لفت نظر وزيرنا الشاب إلى شكواه، ويطلب أن يهتم معاليه بالأمر فيأمر بصورة مؤقتة بتعيين مكان صالح يستطيع أن ينقلها إليه، ويتولّى تنظيفها وترتيبها لبينما تجتمع اللجنة للبت في أمر شرائها.

وأنا شخصياً أرى أننا مطالبون للفن والتاريخ أن نولي الأمر حقه من العناية، فالأمم اليوم تتسابق بصورة جادة إلى العناية بتراثها الأثري. فالتراث الأثري تاريخ ناطق كثيراً ما يغني عن عشرات المجلدات، وهو إلى جانب هذا مدعاة للاعتزاز والمباهاة بين شعوب العالم. فأنت لا تكاد تجد اليوم بلداً واحداً لا يُعنى بآثاره ويبذل الكثير في سبيل صيانتها وتنسيق عرضها.

ومعالي وزيرنا الشاب خير مَن يعرف أن اهتبال مثل هذه الفرصة قبل أن تفلت من يد صاحبها أو تفقد قيمتها بفعل الأيام هي من أجلِّ الخدمات التي يستطيع أن يخدم بها تاريخ بلاده.

ووزارة المعارف يهمها أن تدرك الأمر قبل موت أستاذنا العجوز عبد الله خوجه لا أرانا الله فيه سوءاً.

طبيب الغابات

إلبرت شفايتسر أحد الرجال الذين فازوا في السنوات الأخيرة بجائزة نوبل.

وهو طبيب عاش حياته شريداً بين الغابات في مجاهل إفريقيا.. وفي أسلوب هذه الحياة التي عاشها ما يصح أن يكون درساً بالغ التأثير بالنسبة لما درجنا عليه من (التنبلة) والاستنامة للعيش الوادع الخفيض.

ما كاد شفايتسر يتسلّم شهادة الطب قبل ستين عاماً حتى نزعت به إنسانيته، فطوحت به إلى البعيد من مجاهل إفريقيا.. وفي رأيه أنه إذا استطاع أن يحسن إلى المرضى والمتألمين من الفقراء بين الغابات المجهولة في إفريقيا فإنه بذلك يلبي أفضل الواجبات الإنسانية التي تلح على ضميره الحي.

وبذلك شد رحاله إلى إفريقيا وشرع يتوغل في الغابات بين القبائل شبه المتوحشة، وظل على هذا أكثر من ثلاثين سنة يحمل ما يستطيع من صناديق الأدوية بمساعدة من يقنعه بالخدمة من الزنوج.

ولما شاعت خدماته الطبية، وما جناه المرضى من عنايته الممتازة، وثق الزنوج به فكانوا يتتبعون خطواته من قرية إلى أخرى، عارضين أمراضهم وما يقاسون من آلامهم فيجدون من مواساته ما يشفي عللهم ويعالج شكاواهم.

واستطاع وبعد طول الممارسة في تلك الأصقاع الفقيرة من كل شيء أن يستخرج من أعشابهم ما أغناه عن كثير من مستوردات أوروبا، فتوسعت أعماله. وعندما اشتد عليه الطلب تعلم أن يجالد في المشي من أميال، إلى أميال، كما تعلم أن يستغني عن مائدته المترفة في أوروبا بأي عصيد يصادفه مما يأكل الزنوج في أدغالهم.

وعندما تقدمت به السن أبت نفسه عليه أن يعود إلى بيته الجميل وحياته الناعمة، فألقى عصاه على نهر أو جوفه من منطقة جابون ليكون على مقربة من متوسط

الخطوط التي يتفرع منها عشرات الطرق إلى مساكن القبائل.. وأنشأ هناك مستشفى كان يستقبل فيه يومياً مئات المرضى قادمين من وراء الغابات.

وعاش في خدمة مستشفاه سنوات طويلة.. حتى بلغت سنوات أعماله في تلك المناطق 51 عاماً.

وهو اليوم وقد أوفى عمره على التسعين يأبى أن يفارق أصدقاءه في تلك الأصقاع؛ لأنه يشعر بحاجتهم الملحّة إلى مساعدته، ولا يرى في صحته ما يقصر به عن متابعة العمل في سبيل خيرهم.

والطريف في أمره أنه من هواة الموسيقى علقها في شبابه، والتحق بدراستها فاشتهر أمره فيها إلى جانب ما بلغه في الطب، ولو بقي على ما نشأ عليه في بلاده لكان له شأن بين مشاهير الموسيقى.

ولكنه اكتفى بما حذقه من آلاتها، واصطحب الآلات معه لتكون سلوته الوحيدة في أوقات فراغه بين تلك الأدغال.

واتصلت أخبار جهاده ببعض المجلات العلمية، فكتبت عنه الفصول الطوال تثني على ما يبذل للإنسانية وما يقاسي في سبيل إسعادها فاستحق في نظر المعنيين بجائزة نوبل أن تمنح له اعترافاً بأريحيته بعد تحقيق طويل أثبت جدارته.

إنه درس بعيد في مثاليته.. ليتنا نتعلم فيه كيف تثبت الرجولة مستواها الصحيح فتنسى جميع المغريات في الحياة في سبيل أن تسعى لخير الناس وإسعادهم.

هل آن للإسلام أن ينطلق؟

هل صحت أحلام أستاذنا الكواكبي رحمه الله..؟؟

لقد تخيّل في كتابه (أم القرى) أنه أُنشئ في مكة مؤتمر إسلامي عالمي يبحث سائر شؤون الإسلام، ويحيل ما يلزم إحالته منها إلى لجان خاصة لدراستها. وبعد أن تستكمل جميع الإجراءات ويوافق عليها المؤتمر تستأنف دورتها لتحال إلى التنفيذ.

إنك تقرأ الكتاب فتتصوّر أنه مؤتمر قائم فعلاً دون أن يكون له أثر في الخيال، وتجد أنك أمام تنظيمات لا تشك في وجودها إطلاقاً. فهل كانت الفكرة إرهاصاً لحقائق نعمل اليوم لإثبات وجودها؟

والواقع أن ما نشاهده اليوم من نشاط الرابطة في مكة يتسع لكثير من الآمال التي يتمناها كل مسلم على وجه الأرض، فأمانتها العامة لم تألُ جهداً في بذل المساعي على أوسع نطاق كما نتخيّله. وأمينها العام يفرغ فيما يبدو لنا كل طاقاته من النشاط والتجارب ليجعل لصوتها صدى يدوّي في آفاق العالم الإسلامي.

وها نحن أولاء نتيجة لهذا الجهد الواسع نصافح اليوم في مكة أعيان المسلمين ووجوه الرأي في أقطار الإسلام من أقصى الشمال إلى أدنى الجنوب، ومن أبعد نقطة في الشرق إلى آخر مدى في الغرب.. تقاطروا جميعهم مستجيبين لنداء الرابطة، متهيئين للعمل في نطاق مؤتمرها الكبير..

ولكن الذي يحلو لي ولكل مسلم أن يسأله: هل آن للإسلام أن يبدأ بهم انطلاقة جديدة تخدم المسلمين في جميع أصقاعهم في أسلوب عملي جديد؟

لقد سئم المسلمون كثيراً من ألوان الاجتماعات التي تبدأ بأوراق المحاضر وتنتهي بلفات الأضابير، وهم اليوم يأملون من مؤتمراتهم هذه وقد ضمّت وجوه أصحاب الرأي في بلاد المسلمين أن يبدأ حياة جديدة لا علاقة لها بكل الأساليب القديمة التي كانت تلف مجتمعاتنا.

نتمنى على المؤتمرين أن يعطوا الموضوع ما يستأهله في قلوبهم، وأن يتكاشفوا الحقائق في غير غموض أو تقية، وأن يتبيّنوا ما يمكنهم أن يتفقوا عليه في وضوح، وما لا يمكنهم فلا يضطروا إلى الإبهام في قراراتهم، أو تحميلها ما لا تحتمل من التفسير، أو صياغتها فيما لا يقبل التنفيذ جرياً على عادة أكثر الاجتماعات في أكثر البلاد.

نتمنى عليهم أن ينسوا ولو إلى حين خطاباتهم البليغة، وكفاءتهم في الإسهاب والبيان فالوقت في حاجة إلى شيء عملي تتكاشف فيه النيات ليستوضحوا من بينها ما يهدف إلى خدمة المسلمين عامة.

الوقت في حاجة إلى أن نسدد ونقارب في سبيل المصلحة العامة.

إلى وزارة التجارة وأمانة العاصمة

استمعتُ إلى بعض نفر من المواطنين يرون أن عليَّ أن أنبّه أمانة العاصمة إلى بعض الأجانب الذين يستأجرون بعض الجدر المطلة على الشوارع العامة خصوصاً في حي أجياد، ثم يجهزون لها دواليب لا تشغل من الشوارع إلاّ أقل من نصف متر، ولكن صاحب الدولاب إذا وقف بجانبه ووقف الحجاج حوله أخذوا حيزاً من الشارع وضيّقوه على المارة والسيارات وهم يرون أن هذا يزاحم أصحاب الدكاكين الوطنيين.

وهم يلاحظون على هذه المساحات الواسعة الواقعة بجوار المسجد الحرام، ويرون أن المسؤولين يحسنون صنعاً لو قاموا بتوزيعها على فقراء الباعة الوطنيين في شهور الموسم، فقد كانوا يجعلون منها دكاكين صغيرة مؤقتة ينتفعون من أعمالهم فيها وهي في الوقت نفسه تصون المساحات من تبول الحجاج الفقراء وأوساخهم، واتخاذها مأوى يسكنونه بأثاثهم ومواعينهم فيسيؤون إلى المنظر العام حول المسجد ويشوهونه.

وهم يطالبونني بأن أقترح على أمانة العاصمة اتخاذ أكشاك خاصة على غرار الأكشاك التي اتخذتها في بعض الشوارع، فهي تملأ فراغ المساحات في بعض الجهات المجاورة للمسجد والتي تراها تحتاج إلى الصيانة من عبث فقراء الحجاج وتؤجرها على الباعة الوطنيين مساعدة لهم وتحاشياً من تشويه المنظر العام.

وهم يرون أن تكون هذه الأكشاك كبيرة الحجم نوعاً ما، تعلوها مظلة أوتوماتيكية واسعة بعض الشيء إلى حد لا يضيق الشارع بسببها، وأن تحاول الأمانة أن تتقارب الأكشاك من بعضها في كل منطقة ليتيسر ارتزاقهم باحتكاك أقدام الحجاج بين كل منطقة وأخرى فإنهم لا يرون الأكشاك التي أقامتها أمانة العاصمة إلى الآن صالحة للعمل لهم بسبب ضيقها، ولأن مواقعها غير استراتيجية بالنسبة للمرتزقين من الموسم وهي غير متقاربة لتكون وسيلة لتجمع الحجاج.

وهم يرجون إلى وزارة التجارة ملاحظة بعض الأجانب الذين يسرحون ببعض الساعات القديمة والخربة في أيديهم، فيغشون بها الحجاج ويعتبر غشهم محسوباً على الأهالي في مكة، وهي فكرة تستحق التأييد في رأيي كما تستحق التوسع لتشمل حتى الباعة من الوطنيين من سائر الأصناف، فسمعة البلاد يجب أن تعيش مصونة لا يعبث بها صغار الباعة سواء كانوا وطنيين أو غير وطنيين.. فقد أساء كثير من أصحاب الجشع في السنوات الأخيرة إلى سمعتنا إساءات لا تليق بشرف هذه البلاد، ولا تكرم أمة تريد أن تبني لنفسها بين الأمم.

مأساة الذباب

الذباب في بلادنا نوع من أمراضنا المستعصية وكذلك شأن الناموس.

ونحن نعرف أن حرمان بلادنا طول سـنيها من المجاري العامة هو علة العلل في هذه المأسـاة. كما نعرف أن حكومتنا أحالت موضوع المجاري إلى الدراسة من سنوات وكاد التنفيذ أن يبدأ لولا أنه تعثّر لظروف خاصة، وأن الجهات المسؤولة ما لبثت أن استأنفت البحث في موضـوع المجاري ولم يبقَ على بدء التنفيذ إلاّ خطوة روتينية، يقول العالمون ببواطن الأمور إنها بسيطة فعسانا لا نتعثر من جديد.

ومع هذا فالمفروض أننا إلى أن يتم موضوع المجاري لا يجب أن نعجز كل العجز عن محاربة الذباب ودفع بعض ضرره ولو عن مآكلنا في الأسواق.

إن الأمم التي قضـت على الذباب لا تبيح رغم ما فعلت للمأكولات المعروضـة في الأسـواق أن تعرض مكشـوفة أخذاً بالاحتياط، فما بالنا نحن نترك الجزّارين والتمّارين وأمثالهم يعرضون بضائعهم مكشوفة دون خوف أو مبالاة!

أنا أعرف أن أمانة العاصمة كانت قد فرضت من سنوات على أمثال هؤلاء الباعة أن لا يعرضوا بضائعهم إلاّ في أقفاص خاصة، وأنهم شرعوا يتقيّدون بالأوامر ولكنهم ما لبثوا أن سئموا القيود فانطلقوا ببضائعهم يعرضونها للذباب. فهل علمت هذا أمانة العاصـمة؟ وهل علمه المراقبون بمتابعة الباعة؟ وهل حققوا على أحد من العصـاة عقوبة تردعه وتعلّمه احترام الأوامر؟

أذكر أنني كتبت مرة قبل شـهور طويلة ألفت نظر أمانة العاصـمة إلى باعة الكروش والمقادم وفضـلات اللحوم والرؤوس الذين يتجمعون في السـوق الصـغير لعرض بضائعهم في صـورة قذرة، يتجمع عليها الذباب في حالة تعافها النفس. كما أذكر أن أمين العاصمة اهتم للأمر يومها فأرفق ما كتبته إلى جهة الاختصاص يطلب تشكيل لجنة تقرر ما تراه لإزاحة هذا الضرر. وقد ذكر أن اللجنة المذكورة اجتمعت وبحثت وتقدمت بمرئياتها، ومع هذا فقد ظل الأمر كما كان لم يتغير بشـيء.. وظل الباعة على حالهم يعرضـون بضـائعهم في صـورها المزرية يخيّم عليها الذباب والغبار.. المؤلم في هذا أنه لا يحلو لهم مثل هذا العرض إلاّ في مواجهة شارع هو من أهم شوارع مكة المكرمة.

وأغرب ما أستغرب له في الأمر أن أمانة العاصمة عندما قنعت بوجهة نظري لم تبادر إلى التنفيذ، بل طلبت تشكيل لجنة لتقرير ما تراه اللجنة في هذه المرئيات! فهل أفهم من هذا أن أمانة العاصـمة تملك فرض رقابتها على المسـتهترين بالصـحة العامة وإلزامهم بصيانة بضائعهم في دواليب تصونها من عبث الذباب، وإبعاد كل ما يسيء واجهة الشوارع إلى مناطق منزوية تخصصها لهم في حالة معينة تقبلها شروط الصحة العامة.

وليت الأمر بعد كل هذا الروتين انتهى إلى نتيجة ذات أثر فعّال إذن لهان الأمر.. ولكن المؤلم أن الأمور تجري على ما كانت رغم الشهور الطويلة التي مضت عليها.

ولا أدري ونحن اليوم على باب موسم جديد، هل واجهاتنا العامة وبضائعنا المعروضة عرضة للانتقاد أم أننا نستطيع أن نفعل شيئاً يشرفنا؟؟ إننا منتظرون!!

ما معنى هذا؟!!

-1-

في بعض الإحصاءات أن عدد الأجانب المقيمين في سويسرا بلغ 15 بالمئة بالنسبة إلى سكانها. ويعلق بعض الباحثين الاجتماعيين على هذه الإحصائية فيقولون: إن الأهالي في سويسرا أخذوا يضيقون بهذا العدد ويعتبرون نسبته هائلة وخطيرة لا تبعث على الاطمئنان، وربما أحالت اقتصاديات سويسرا إلى حالة تعيش فيها تحت رحمة الأجانب.

ويقولون: إنها فرصة جيرانهم من الإيطاليين، فقد امتاز العمال في إيطاليا بالنشاط فوجدوا مرتعهم خصباً بين السويسريين الذين يميلون أكثر ما يميلون إلى الأعمال الإدارية والخدمة في البنوك ويتحاشون أن يزاولوا من المهن ما يخدش أياديهم الناعمة!!

تذكرت هذا وأنا أمر بالأمس بعمارة لا تزال في دور الإنشاء، فراعني منها أنه ليس بين عمالها مواطن واحد.. تعمدت الوقوف على كثب منها لأطيل النظر بينهم فإذا حاملو الحجر من التكارنة، وإذا العاملون في البناء من العدنيين، وإذا الواقفون للإشراف والهندسة من إخواننا المجاورين أصحاب البنطلونات.

ورأيتني أسائل نفسي: ترى لو تمت أعمال الإنشاء في العمارة وعقبتها أعمال النجارة والبلاط والبياض والتسليك وسائر ما يلزم لأعمال (التشطيب) أكنا نجد من بين الوطنيين من يتناول كل هذه الأعمال؟

وتبادر الجواب إلى نفسي كما يتبادر الآن إلى نفس كل قارئ بأننا قد لا نجد بين مزاوليها وطنياً واحداً!

تُرى ما معنى هذا؟؟

قد يُقال هنا إن الوطنيين مظلومون في مثل هذا المجال. ففي بلادنا عشرات وعشرات ممّن يمتهنون أمثال هذه الحرف يواجهونك عاطلين لا يجدون ما يشتغلونه.

إذن فالسؤال لا يزال في مكانه: تُرى ما معنى هذا؟

أمّا أنا فيتبادر إلى ذهني جواب أتمنى أن يكون خاطئاً.. فقد شـــاع من سمعة إخواننا المواطنين أنهم يغالون في أسـعارهم، وأن أعمالهم في مثل هذه المهن تتسـم بالرتابة، وأنهم رغم حاجتهم يمتازون بأخلاق (تجارية) لا يستسيغها الزبون!!

أنا شخصياً لا أؤكد هذا ولا أنفيه ولكني أسأل وللمرة الثالثة: إذن فما معنى هذا؟

ما معنى أن أصـحاب الإنشـاءات يفضـلون معاملة التكروني واليمني والفلسـطيني وكثير من أجناس المجاورين وينأون عن معاملة مواطنيهم؟!

قال لي مرة مســؤول في أحد مكاتب العمال إن إخواننا المواطنين متزاحمون على مكاتب العمل بحثاً عن عمل يرتزقون منه، فإذا عرض على أحدهم عملاً في ورشـــة للحدادة أو النجارة أو الســمكرة أو معامل الطوب أو ما أشــبه ذلك أزورّ عنا ثاني عطفه.

فإذا سُـئل عمّا يفضــله من الأعمال قال: أريدكم لتلحقوني في وظيفة فراش في أي مكتب يتراءى لكم.

إلى أن قال وعبارة: "أريدكم لتلحقوني فرّاشـــاً في أي مكتب" تكاد أن تكون قاسماً مشتركاً بين أكثر طلاب العمل من مواطنينا.

أجدني للمرة الرابعة حرّياً بأن أسأل: تُرى ما معنى هذا؟؟

وأرجو أن لا يلحاني غيور على بلاده إذا وجدني عاجزاً عن أن أعلل ما غمض عليّ من أسباب ذلك.

وأن يعذرني إذا رجوت إلى أصحاب الاختصاص في البحوث الاجتماعية أن يناقشوا الفكرة نقاشاً علمياً لعلّ في ذلك ما ينتهي إلى العلاج.

-2-

أشــرتُ في كلمتي الســابقة إلى ما يشــاع عن رتابة أيادينا العاملة وما يكرهونه من الأعمال المرهقة، وقلت لعلّهم مظلومون فيما أشيع عنهم.

وبالأمس قابلني شخص من رجال الأعمال ليقول لي: لقد قرأتُ كلمتك عن الأيدي العاملة عندنا، وكنت أتمنى لو خالطت بعض أعمالي واطلعت على ما يذهلك من الحقائق..

ثم قال: إني أملك ورشــة للسـمكرة. لو زرتني فيها لوجدت جميع عمالي من التكارنة إذا استثنيت المعلّم ومساعديه وهم من الأجانب المستقدمين..

ســتتّهمني بالجحود وتجدف على وطنيتي، ولكن ســتغير رأيك إذا راق لك أن تعرف الحقيقة.. فاسمعني:

إن اسم الورشة مسجل في مكتب العمل التابع لمدينتي، وإنها مستعدة لتشغيل ما لا يقل عن عشرين شخصاً من العمال الموفدين من المكتب..

ودعني بعد هذا أصوّر لك ما يصادفني من غرائب هؤلاء الموفدين، واسمح لي زيادة في الإيضاح أن أعطيهم أرقاماً متسلسلة..

العامل رقم (1) خطا نحو باب الورشة وأنا ألمح في يده مذكرة مكتب العمل، فاستعد لاســتلامها ولكنه ما كاد يلقي نظرة عامة على الحوش المترب ويســمع المطارق تصــم أذنيه حتى توقف لا يريم عن العتبة ثم يلوي عائداً من حيث أتى!!..

العامل رقم (2) كان أكثر إقداماً من سابقه، فقد تخطى الباب ثم سأل عنّي وسلّمني الورقة فأســـلمته إلى المعلم الذي كلفه بتنظيف قطعة معينة، فما كاد يبدأ العمل حتى تبيّن له أنه متعب فانسل من الورشة دون أن نشعر به عائداً من حيث أتى!!..

العامل رقم (3) جالد عمله أسبوعاً.. غاب بعده أياماً ثم عاد ليسألني لماذا لا أضعه إلى عمال (الصــباغ)؟ فلما أفهمته أن نظام العمل يقتضــي التدريج أطال التحديق في

مدى بعيد.. ثم استأنف: إذن حاسبوني.. وما كاد يقبض حقوقه حتى عاد من حيث أتى!..

العامل رقم (4) كان أكثر جلداً من سابقه. فقد واظب نحو شهر ثم جاء يستأذنني لزيارة أمه في القرية، فلمّا أفهمته أن التحاقه بهذه المهنة يقتضيه المواظبة وأن المواظبة يترتب عليها زيادة الأجرة، كما يترتب عليها نجاحه في مهنة تدر عليه في المستقبل كسباً طيباً ما زاد أن ضحك وقال الرزق بيد الرزاق ثم مد يده إلى باقي استحقاقه وعاد من حيث أتى!!..

العامل رقم (5) واظب على عمله أكثر من أربعة شهور، ولكنه كان يرهقني بطلبات السلف وعندما كنت أفهمه أن للسلف حدوداً لا يجوز أن تتعداها وأن نظامها مقدر بالأسبوع كان هذا لا يزيده إلاّ إلحاحاً، ومع هذا ظللت أجالده لشدة حاجتي إلى اليد العاملة فلم تجده المجالدة، ورأيتني في أحد الأيام أصفي حسابه فإذا هو استنزف راتبه قبل أن ينتصف الشهر فاضطررت لإنذاره فكان ذلك آخر يوم عاد فيه من حيث أتى!!..

العامل رقم 6 إلى رقم 18 استقاموا عندي أياماً يتراوح عددها ما بين عشرين إلى تسعين يوماً حسب التواريخ التي التحقوا فيها بعملي، ثم أهلَّ شهر ذي القعدة فإذا هم يتسللون واحداً بعد الآخر بحثاً عن مرتزقهم في الأسواق، وعند المطوفين، وأصحاب الزمزم، وقد شعرت بمغبة هذا التسلل من أولى بوادره فانثنيت أناقش زملاءهم قبل أن يتسللوا لأقنعهم بأن الكسب المؤقت في الموسم لا يفيد مستقبلهم بقدر ما تفيدهم هذه المهنة إذا واظبوا على أعمالها، فكانوا يؤكدون لي بأن ما أقوله حقٌ.. ولكن هذا الحق ما لبث أن انبلج يوم نظرت في الورشة فإذا جميع مقاعدهم خالية، وعلمت أنهم لحقوا بإخوانهم عائدين من حيث أتوا!..

هذه نماذج حية يشكو من نتائجها أكثر أصحاب الأعمال في بلادنا. وهي في رأيي من أشد الظواهر التي يتعيّن على وزارة العمل أن تحيل دراستها إلى الباحثين الاجتماعيين في الوزارة لعلّهم يجدون حلاً لعلاجها.

-3-

..وقال لي أحد رجال الأعمال: لقد قرأتُ ما كتبته عن مشاكل العمل، ولكن المشكلة التي أرويها يصح أن يكون لها بند آخر.

إن أعمالي لا ينفع لها أي شخص يوافيني ليطلب عملاً، لا بد له أن يتمرّن على شيء لا يعرفه ولم يمر بذهنه قط، ولا يكفي لتمرينه شهراً أو أكثر بل لا بد له أن يستديم إلى مدة ربما بلغت العام أو طالت إلى عامين.

ولا تسل عمّا أتكلّفه أثناء تمرينه فأنا أدفع له مكافأة شهرية لقاء تعطيله مرتبطاً بالتعليم، وأنا أتقاضى إلى جانب ذلك عما يتلفه أثناء التعليم دون أن أتقاضاه شيئاً.

ومع هذا فإنه لا يكاد يشعر أنه بات يتقدم خطوات فيما يتعلم حتى يصبح سيد الموقف.

ربما عنَّ له أن يترك العمل ليسافر إلى بلده، أو يلتحق بأي جهة في العمل نفسه ليعمل فيها.

سيقال إنه حر فيما يتصرف، وهذا حق يبدو ولأول وهلة لا غبار عليه ولكن.. صاحب العمل أليس له حق في مثل هذا المجال أو شبه حق؟؟

لقد فتح أمامه الباب ليتعلم وبسط أمامه جميع الأدوات ليتمرّن عليها كما تغاضى عن جميع الأخطاء وسامح فيما ناله من خسارة اقتضاها الحال.. ثم هو بعد ذلك أو قبله إن شئت لم يتقاضَ شيئاً عما بذل للتعليم بل تكلّف ما كان يدفعه شهرياً كراتب مقرر.. فما موقفه بعد هذا؟

إن نظام العمل لم يعيّن له موقفاً خاصاً لأنه ليس في مواده أن يتقاضى شيئاً عما بذل للتعليم.

لم ينص هل يتعيّن عليه أن يفيد الورشة أو المصنع بما تعلمه إلى مدة مقدرة تتكافأ مع ما بذله المصنع في تعليمه أم ينطلق حراً ويترك الدار تنعى مَن بناها وهل يظل دار العمل يعلم كل يوم جديداً حتى إذا غادره الجديد استأنف المشقة مع غيره.. ثم مع غيره وغيره.. دواليك.

من أجل هذا ظلّت الورش وظلّت المصانع تتحاشى أن تعلم طالب العمل فيظل حياته متسكعاً لا يجد ما يعمله.. وتضطر دور العمل لقاء هذا أن تحاول جهدها لاستقدام مَن سبق له العمل من خارج البلاد.

ولا تثريب فيما أعتقد على صاحب العمل ما دام يعرف أن جهوده لتعليم العمال لا تجديه إلاّ خسارة.. جهوداً يقف المتعلم في نهايتها سيداً للموقف.. يواظب إذا عنَّ له أن يواظب بدافع من شهامته.. ويترك العمل إذا عنَّ له تركه دون أن يخشى نظاماً يحده أو قاعدة تلزمه بما أنفق المحل على تعليمه.

ترى هل يعرف المسؤولون عن تقرير النظام الجديد للعمل والعمال أنهم إذا ظلوا يغفلون مثل هذا فيما ينظمون من مواد جديدة فإنما يسيئون بذلك إلى الثقافة الصناعية في البلاد؟

إن دور العمل لا تجرؤ على فتح أبوابها لطلاب التعليم فيما تحترف إلاّ إذا وجدت في نظام العمل ما ترتكز عليه ليضمن جهودها في التعليم وحقوقها عند من تعلمه.. وإلاّ فسيظل عمَّالنا على جهلهم متسكعين وتعيش دور العمل عالة على ما تستقدمه من خارج البلاد.

الذبائح في منى

نشرت في جريدة الندوة عام 1374هـ

لا ينكر أحد أن جميع الترتيبات التي حاولها المختصون لنظافة منى ضاعت هباء، ورؤيت الذبائح تملأ الطرقات وتنشر عفونتها بين الخيام والبيوت عدا أوساخ الحجاج وفضلاتهم.

والذي يراه أصحاب الرأي أنه لا حيلة في القضاء على هذا إلاّ بإنشاء مصنع تبريد اللحوم وتعليبها الذي طال عليه الأمد قبل أن يرى النور.

فعسى أن يكون عامنا هذا آخر عهد لنا بمثل هذه المناظر، وعسى أن يستطيع المكلّفون بالنظافة أن يعيدوا النظر جدياً بعد اليوم فيما نعانيه من باقي الأوساخ والفضلات.

نحن نعرف أن أمانة العاصمة استعانت بأصحاب الاختصاص فقدموا إليها عشرات المراقبين على أمل أن يضبطوا مداخل منى، فلا يبيحون لباعة المواشي دخولها إلاّ إلى الجهة التي عُيّنت للبيع والذبح تحاشياً من أن يتخللوا بمواشيهم خيام الحجاج فيتم البيع والذبح بين الخيام كما تعودوا أن يفعلوا في سنيهم السابقة.

ولكننا نعرف كذلك أن مداخل منى ليست محددة ليسهل مراقبتها، فهي محصورة بين سلسلتين طويلتين من الجبال ولا يعجز البدوي أو يعجز مواشيه أن يتسلقوا الجبال من أي جهة أرادوها ليهبطوا إلى الخيام بعيدين عن عيون الرقباء مهما بلغت قوة إبصارها.

ونحن نعرف أن أمانة العاصمة وجّهت نداءها في الصحف لترجو المواطنين والحجاج أن يقلعوا عن شراء المواشي من السارحين بين الخيام وذبحها حتى لا يسيئوا إلى صحتهم بما تبعثه فضلاتها من روائح كريهة.

ولكن الواقع أن الأغلبية الساحقة ممن عنتهم بندائها لا يقرؤون الصحف، وإذا قرأها القليل منهم فأنانية الإنسان هي أنانيته وهي تأبى عليه أن يتكلّف المشوار إلى نهاية منى وهو يجد المواشي سارحة بين يديه معروضة للبيع وسكين الذبح تلمع بين أوانيه.

إذن فجميع الترتيبات كانت إلى عبث، وجميع النداءات لم يسمع منها حرف! فعاشت منى أيامها مفروشة سائر طرقاتها ومسالكها وأزقتها بالذبائح تنبعث منها الروائح العفنة التي لا تطاق.

تُرى لو هبط أحد من غير المسلمين منى خلسة فصادفته هذه المناظر الكئيبة، وزكمت أنفه ما ينبعث منها ألا يجدها فرصة يحمل بها على أعمال المسلمين وتبذيرهم في وقت بات فيه العالم أشد ما يكون حاجة إلى كل أوقية من أكوام اللحوم الملقاة هدراً للعفونة والبلى!

لعلّ في هذا ما يكفي لأن يحفّزنا للعمل الجاد الذي طالت دراسته فننشط لبناء مصانع التبريد والتعليب توفيراً للأموال الطائلة التي ننبذها وعملاً لإفادة الفقراء من طعامها.

سارق الزهر . . وسارق الحقل!

العالم اليوم أتون يستعر بالأهواء الضالة، والختل الطاغي، والجبروت يدعمه البنزين والفحم والذرة.

وتطالعنا أخبار مدوّية بصيحات الويل في كل جانب من الأرض تتجاوب أصداؤه في استياء عام من هؤلاء الذين يهيمنون على مقدرات العالم فيسومونه الخسف والاضطهاد.

ويعنينا اليوم من هذا الطغيان ناحيته التربوية لفتيان الجيل الجديد وقيمته الإيجابية في سلوكهم الواعي.

ففتياننا الذين أرهقنا أرواحهم بمئات المثل شاخصة في كتب الأخلاق والسير والتراجم، وبذلنا جهود الجبابرة لندس في أوعيتهم الخفية صوراً تمثل الإنسانية في أعلى درجاتها من السمو والكمال سيفتحون أعينهم على واقع الحياة الداعر، ويشهدون من ختل الأقوياء وعسفهم وهو أن الضعفاء وذلهم ما يعفي على كل أثر طبعته كتب الأخلاق في أذهانهم.

والناشئ في سن المراهقة يبدأ الدور الذي يستقل فيه بوعيه الخاص ويشعر بقدرته على انتزاع دروسه من واقع الحياة.

ولو قلنا إنه في هذا الدور يضع لنفسه أول برنامج لسلوكه ينتزعه من واقعه المكشوف لما عدونا ما ينبغي أن يقال!!

وإذا كان صحيحاً ما يُقال: "إن العوامل الانفعالية تؤثر في تكوين شخصية الإنسان بمثل ما تؤثر الأحوال المناخية في نمو النبات" فإن وقائع العالم اليومية وما تذيعه الأنباء من أحداث سيترك أسوأ الأثر في تكوين شخصياتنا الجديدة ويطبعها على شر ما يطبع عليه الأنذال.

ستشخص آماهم شخوصاً يلوون ألسنتهم بعريض القول في مبادئ السلام، وحماية التعايش في أركان الأرض، ومساندة العدالة حتى إذا دانت لهم الحياة نسوا مبادئهم وتجاهلوا ما كانوا يلوون به ألسنتهم فأصبح العدل عدلاً ما أخذ أشكاله من منافعهم، والتعايش تعايشاً ما حقق أهواءهم ومضى مضي مصالحهم.

وبعد فيا أيُّها المتمدينون في آفاق الأرض ما أحلى أن تقتصدوا في مزاعمكم فتعترفوا بالمبادئ التي أجمعت كتب الأخلاق على اعتمادها دون مواربة والتواء، أو تعلنوها حرباً ضروساً عليها وتشعلوا النار في كل حرف يشير إلى أبسط معانيها، فتبيحوا لسائر الآثمين أن ينطلقوا في الأرض لا يلويهم وازع ولا تقف دونهم مقاييس من الأخلاق.

أمّا أن يظل (سارق الزهر مذموماً وسارق الحقل باسلاً) فذلك نسق سيطبع جيلنا بأسوأ ما تطبع به الأجيال.

أنت يا صديقي المتبرّمِ!!

سمعتك أمس تشكو وتتأفف.. وليس هذا جديداً عليك!!

لقد عشت حياتك في هذا البرم.. عشت تشكو سوء الحظ.. وتندب قلة التقدير.. وتنعى كفاءاتك الضائعة.. وتطلق آهاتك حسرات على دنيا سخيفة تمالئ من لا يستحق فتعبّد أمامه الطريق، وتعاند الأكفاء من أمثالك فتضع العثرات في سبيلهم.

لا يا صاحبي.. ليست هناك ممالأة وليس هناك عناد.

أتسمعني؟

إن الحياة فرص.. وكفاءاتك التي تدّعيها لا تكفي وحدها لتصيد الفرص.. والفرص نفسها ما تعوّدت أن تطرق أبواب الكفاءات الهاجعة إلاّ في النادر الشاذ.

أتدري؟؟

لعلّه ينقصك الذكاء.. والذكاء المتوقد الوهاج الذي ينشئك من جديد فتنسى كفاءاتك الميتة.. تنسى أن تلحس نفسك.. وتنسى أن تستجر الهموم والآهات.. تنسى كل حسراتك التي عشتها بين العويل والنعي والندب ومتابعة فلان الذي نجح فيما لا يستحق، وعلان الذي خدمته مفارقات الحظ.

تنسى كل ما يبدد طاقتك من هذه الألوان الخابية لتستغلها فيما يهمك من خصوصياتك.

إنسَ كل هذا يا صاحبي.. واستجمع ذكاءك وهيئه لتكون في خدمة ما تدّعي من كفاءاتك.

أتفهمني؟؟

يلذ لي أن لا أراك بعد اليوم كئيباً أو متشائماً.. ليس التشاؤم يا صاحبي إلاّ مرض ينتاب المهووسين بأنفسهم، والمتعسِّفين فيلوِّن الحياة أمامهم باللون القاتم، ويترك هذا أثره في تفكيرهم فيشل حركته وفي إرادتهم فيسلبهم قدرتها.

والمتفائلون.. ما ظنك بهم؟ إنهم لا أكثر من أذكياء ضحكوا للحياة أو ضحكوا منها.. إنهم لا يدققون حسابها مهما تنوّعت صروفها.. وأنت لا يعجزك هذا.

هل افتقرت؟

هل فشلت؟

هل خسرت؟

هل فاتت الفرصة؟

هل سبقك الأدنى؟

كل هذا لا شيء بجانب قوة نفسك.

ترى هل تندم؟ هل تتألم؟ هل تبكي.. لتفعل كل هذا إذا كان في هذا ما يعالج فقرك أو فشلك، أو خسارتك أو يعوض عليك ما فات؟

ستقول ليس في كل هذا ما يجدي.

إذن فأنت إنسان بدأت تصحو.. بدأت تفهم أنك مع كل هذا أسعد حالاً من ألوف أشقاهم الزمان بأكثر ممّا شقيت.

وما دمت قد استطعت أن تشعر ولو بهذا القدر الضئيل من السعادة فليس ما يمنعك أن تضحك.

اضحك يا صاحبي.. وإذا استطعت أن تنتزع الضحكة من أعماق صدرك.. وأن تنتزعها قوية مجلجلة فقد شفيت.

ولا ينقصك بعد هذا إلاّ العزم.. والعزم الواكد لتستأنف ما فاتك.. لا تتعسف كثيراً في تفسير ما نلت من جهادك.. حسبك أن ترضى عن نفسك كمجاهد ولا أكثر.

إذا ظفرت فاضحك فرحاً بما بلغت.. وإذا فشلت فلا يعجزك أن تضحك لغرائب المفارقات.

مطوِّفو صحن المسجد

نشرت عام 1381هـ في جريدة الندوة

يعجبني من أدلاّء المدينة المنورة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يعرفون للمقام الطاهر حرمته، ويقدرون نسبتهم إليه خير تقدير.

فهم بين سواري المسجد سواء كانوا قائمين أو قاعدين مجتمعين أو متفرقين في بقعة تكاد أن تكون معينة بجوار باب السلام، يهيمن عليهم هدوء مؤدب.. فهم فيما بدا لي قل أن يتزاحموا أو يشاغبوا أو يلاحقوا الزائر في إلحاح.

قد يهيب بك أحدهم وهو جالس: هل تزور؟.. دون أن يلحق بها كلمة أخرى، وربما صادفك غيره واقفاً في طريقك فلا يزيد على كلمة زميله حرفاً فإما أن يتبعك إذا وافقت، أو يتركك إذا أشرت إليه بغير الموافقة.

وهم قبل هذا وبعده يحترمون سمتهم فأزياؤهم نظيفة محترمة يبدو فيها معنى الاحتشام.

وأنت تقارن بين ما تشاهده من هؤلاء الأدلاّء في مسجد المدينة وبين رصفائهم في مسجد مكة وأسميهم مطوِّفي الصحن، فتجد البون شاسعاً. فإخواننا هنا يتوازعون أكثر الأروقة والمشايات وأبواب المسجد وصحنه ولا يتورعون عن المزاحمة والملاحقة والإلحاف.. وربما تجمعوا فإذا لأصواتهم ضوضاء أو تفرقوا فتسمع لنداءاتهم جلبة.. أما سمتهم أبرزه الجبة السوداء وهي الرداء العجيب الذي لا يعرف إلى اليوم وظيفته الصحيحة عند الكثير منهم، فهي إما عالقة بكتفه أو مجموعة تحت إبطه لجلوسه أو مسحوبة بإحدى يديه على الأرض أو مفروشة لجلوسه أو ملبوسة إلى ساقه كما لو كانت روتيناً سخيفاً لا بد من تطبيقه.

إن قربي بهم يجعلني أهتم بمناقشة شؤونهم وأحوالهم، فلا عجب أن تأخذني الغيرة لهم أو عليهم من بعض هذه المظاهر التي لا تتفق ونسبتهم إلى المهنة التي يحترفونها بجوار الكعبة.

كنتُ من سنتين قد كتبتُ أشكو من بعض المجاورين الدخلاء عليهم الذين كانوا يستقبلون السيارات خارج المسجد ليطاردوا ركابها وهم حفاة في صور مزرية، فاستجاب المسؤولون لما شكوت، وأمروا بمنع الدخلاء فامتنعوا وبذلك امتنعت مطاردة السيارات خارج المسجد كما يبدو لي، وهي عناية نقدرها للمسؤولين فما يمنعهم اليوم وقد صفا لهم الجو أن يتفقوا على وضع يشرف مركزهم! فالجبة يجب أن تكون ملبوسة في سمت محترم.. ما يمنعهم أن يتجمعوا في مكان معين قرب صحن المسجد، حيث ينوي الطائف بالبيت ثم يتقدم منهم فوج صغير ليبحث عمّن يطوِّفه حتى إذا وجد لحقه فوج آخر وتبعه بعده في أسلوب منظم ييسر لهم سبيل الارتزاق ويهون عليهم مشاق التسابق والتزاحم والإلحاف.

ليت المسؤولين عنهم يستطيعون إقناعهم ليجتمعوا على رأي كهذا أو ما يشبهه، ليتهم ينظمون لهم قاعدة تحفظ لهم مراكزهم كريمة مصونة ويندبون من يشرف على تحقيقها، ويفرضون عليهم زياً موحداً يشرِّف حرفتهم!

أزمات المواد الضرورية. . وكيف نتجنبها

وصلتني رسالة من أحد الأصدقاء واسمه أبو عبد الوهاب، الشيخ الذي شاب واكتهل في ميدان التجارة حتى تقاعد. لقد أبدى لي أسباباً لأزمة المواد الضرورية التي تفاجىء بها بلادنا في كثير من المناسبات.. وأستطيع هنا أن ألخص ما يراه ويقترحه لعلاج الحال.

إنه يرى العلاج رهيناً بتأسيس شركة مساهمة في كل منطقة من مناطق المملكة تصبح مسؤولة بصورة إلزامية عن تموين منطقتها بشكل آمن لا يتسرب إليه العبث ولا يشوبه تلاعب. ويرى أن تؤلَّف الشركة من عموم التجار المستوردين في سائر مدن المنطقة.. وكل راغب من بقية أفراد الشعب على أن يكون للتجار حق المساهمة في 70% كمؤسسين ويوزع الباقي على بقية الراغبين من أفراد الشعب.

كما يرى أن يتألَّف مجلس الشركة من الأعضاء المؤسسين ويتولى إدارة أعمالها منتخبون منهم وتشكل أهم وظائفها من بينهم.

وأن تمنح الشركة امتيازاً باستيراد أهم المواد الغذائية كالحبوب بأنواعها والدقيق والأرز واللحوم والسكر والشاي والسمن الصناعي.

وهو يقدر للشركة رأسمال كبير لتستطيع أن تواجه مطالب المنطقة من سائر المواد الغذائية على أن تحتفظ في مستودعاتها بصورة دائمة ما يكفي البلاد لستة أشهر أو عام وأن توزع جميع ما تستورده بأسعار ثابتة خاضعة لرقابة الحكومة على أن لا تزيد نسبة أرباحها عن 5% إلى عشرة.. وهو يدلل على وجاهة اقتراحه فيقول:

إننا بهذا لا نظلم المستوردين الحاليين بعد أن اعتمدناهم كمؤسسين وأوليناهم أمر الشركة، ومنحناهم أهم وظائفها لنستفيد من خبراتهم ونسهل لهم سبيل الكسب. كما أننا في الوقت نفسه نأمن تلاعب بعضهم بالأسعار وعبثهم بالمستهلكين عند كل هزة تتناقلها الأخبار العالمية، أو يتأخر فيها وصول البواخر فتختفي البضائع في أعماق مخازنهم ويبدأ ميزان أسعارهم في الصعود بشكل مخيف.

وفي استطاعة الشركة أن تدقق إحصاء ما تستهلكه البلاد من كل صنف، فتعرف مدى ما تستورده ليتوازى العرض بالطلب، وهي بحكم رأسمالها الكبير لا يعجزها أن تستورد الكميات

الهائلة فيتاح لها السـعر الأرخص، كما لا يعجزها أن توفر من أجور النقل في البواخر وغيرها ما يقلل من نفقات التكاليف، كما أن المستودعات وقيود المستودعات تصبح مكشوفة لرقابة الحكومة فلا تختفي الأصناف من السوق، ولا تجد من يستغل اختفاءها لأرباحه الخاصة.

ثم يشير إلى صوامع الغلال التي انتهت وزارة التجارة من دراستها ويقول: إن الشركة تستطيع أن تستفيد منها لحفظ الاحتياطي الكبير الذي تجد نفسها ملزمة به.

وعندما يأتي على قصة اللحوم في بلادنا يقول: إن متعهدي اللحوم أثروا ثراءً فاحشاً من أرباحها وهم مع هذا لا يفون بالتزاماتهم ولا ينفكون بين حين وآخر أن يعبثوا بالاستيراد ويتركوا أسعارها تتزايد باستمرار، رغم ما تبذله الحكومة لهم من إعانات، فلو أحلنا أمر اللحوم إلى الشركة نفسها لاستطعنا أن نستفيد من كفاءتها المالية، ونحتمي بسجلات القيود عندها من أي تلاعب نخشاه.. بل نستطيع أن نأمن من غائلة جميع الأسعار في جميع المواد الضرورية لأنها ستصبح ثابتة حتى ولو فاجأتها هزة خارجية، ذلك لأن الاحتياطي الكبير الذي تملكه يكفيها لتجتاز به المحنة وتستطيع –اعتماداً على عون الحكومة– أن تستورد في الأزمات ما ينقصها من أي جهة بعيدة عن الهزات.

ويقول قبل أن يختم كلمته: ربما كان بعض كبار المستوردين لا يعجبهم مثل هذا الاقتراح بعد أن أِلفوا الأرباح الطائلة التي أثقلت كاهل الشعب، فما يمنعنا أن نستغني عن مساهمتهم بغيرهم ممّن تهمهم المصلحة العامة إلى جانب ما يستفيدونه من أسهمهم في الشركة.

هذا ملخص ما يبديه أبو عبد الوهاب، أرجو أن أكون قد وفقت في عرض خلاصته أمام المختصين في وزارة التجارة والمعنيين في جميع الغرف التجارية، كما أرجو أن ينال من عنايتهم ما يؤهله للدراسة والبحث.. وعلى الله قصد السبيل.

ماركات السمن الصناعي

كنا مجتمعين.. وكان البحث يدور في شتى شؤون الحياة.. وفي مثل هذه الاجتماعات يبدو وكأن كل شخص يحاول أن يثبت فهمه لما يدور في المجلس من أفكار..

وفي مثل هذه الاجتماعات يكثر النقد العام، وتتوارد التعليقات وتتتابع الاقتراحات ويجد (هرّيج الغبرة) فرصة سانحة ليشبع هوايته في الحديث (الفارغ والمليان).

ولكن يبدو أن (هرّيجنا) في هذا الاجتماع لم يكن فارغاً إلى الحد الذي تضيق به المجتمعات، بل كان أميز ما فيه هذه المرة أنه (مليان).

قال أخونا بعد أن ترك ليّ الشيشة يستريح فوق المتكأ إلى جانبه: ألا ترون أننا نعيش مع هذا السمن الصناعي المستورد في حيص بيص؟؟

قلنا وكيف؟؟

قال لقد تعددت ماركاته، وتنوّعت حتى أصبحت أكثر من الهم على القلب.. ولكن هل يستطيع أي منجم أن يحدد الفرق بين أي ماركة وأخرى؟

صحيح أن ثمة فرقاً بين سعر وآخر، ولكن هل لدينا ما يثبت الجودة للأغلى دون الأرخص مثلاً، أم هو أسلوب تجاري يستطيع التاجر المغالي أن يشعرنا أن صنفه من النوع الممتاز؟!

قال هذا ثم عاد إلى شيشته (يكركر) فيها ويستأنف حديثه:

"إن من السمن الصناعي ما تتكوّن مادته من الشحوم الحيوانية، وإن منه ما يتكوّن من زيت الحوت أو بعض الحيوانات السفلى وإن منه ما يتكوّن من زيوت نباتية بحتة.. ولسنا نشك في أن تركيب المواد ومزجها بما يضاف إليها من مواد كيماوية أخرى تعطيه لوناً أو نكهة خاصة أصبح فناً يضاهي فنون الحواة.. ولكن هل يغير كل هذا شيئاً من طبيعة المادة الأولية التي تكون منها..؟؟

ستقولون: لا.. وإذن ماذا أفعل أنا إذا كنت ممنوعاً من دسم الشحوم مثلاً، أو فرض الطبيب أن لا أطعم إلاّ سمناً نباتياً.. هل لديَّ ما يثبت نوع السمن الذي أشتريه؟

وعاد مرة أخرى إلى ليّ الشيشة يضعه فوق المتكأ في أناة وهو يقول: لماذا لا نفرض على المصنع المصدِّر أن يسجل على كل علبة أسماء المواد التي تكوَّن منها السمن ومقاديرها كما تفعل مصانع الأدوية؟

قال أصحابي: إنها فكرة (مليانة) في هذه المرة.. قلت وعليَّ أن أتوجه إلى وزارة التجارة وأصحاب الغرف التجارية ليدرسوا الفكرة ويصدروا في شأنها أمراً يضع حداً لما نحن فيه من حيص وبيص.. فهل بلغت؟

أرجو ذلك وإنا لمنتظرون!!..

ماذا.. بعد الفتح الجديد ؟!

قلتها يوم بدأ العمل في تمهيد جبل كرا.

قال العربي وهو يزهو بكبرياء جبله:

لنا جبل يحتله من بجيرة	منيع يرد الطرف وهو كليل
أصله تحت الثرى وسما به	إلى النجم فرع لا ينال طويل

ترى هل دار بخلد العربي يومها أن جباله المنيعة "التي ترد الطرف وهو كليل" ستتطامن وتستخذي؟؟

وأن فروعه التي سمت إلى النجم حتى لا تنال باتت رهينة العلم الجبار والإرادة الحديدية التي تعصف بأعتى الجبال، وتنفذ إلى أبعد ما يتسع له الخيال؟

لقد أثبت الفيصل عزيمته.. وحقق العلم كفاءته، ولم يبقَ إلاّ أن يؤكد المسؤولون عن عمران الطائف جدارتهم للفتح الجديد.

إنه فتح سيجتذب إليه ألوف المتطلعين ليشهدوا ما بنت أيدينا وشادت عزائمنا، ويستعرضوا مصيفنا الذي شغل حيزاً واسعاً في التاريخ، وتسامع الناس في حاضرنا بالكثير الذي يميزه عن أمثاله من المصائف.. فهل أعددنا ما

يصافحهم فيه من الجمال والتنسيق أم سنتركه ليصدم آماهلم فيه ويجعلنا أضحوكة بين المصائف؟!

سيدلج الطريق بالمصطافين والسيّاح الأجانب فهل تواجههم في قمته قرى بدائية لا أثر فيها للحياة إلاّ بعض كراسي الشريط المتهالكة، وصبيان القهوة الذين لا تعرف ألوان ثيابهم من كثرة ما نالها من أوساخ؟!

وإذا سال الطريق بهم إلى الطائف فهل يصافحهم في شوارعها من التنسيق والنظافة ما يثبت حضارتنا؟ وهل تلتقي الشوارع بميادين واسعة مخططة في إبداع؟

وإذا سال الطريق بهم إلى الطائف فهل يصافحهم نظامها ما يشرف سمعة الطائف كمصيف؟ وهل يرون في أزقتنا لو عنَّ لهم أن يتغلغلوا بين منعطفاتها ما تعودوا رؤياه فيما مروا به في أي بلد متمدن؟

والواقع أن الفتح الجديد أحالنا إلى ألوان من الحرج يتعذر الصبر عليها. فالسائح الذي يشهد الطريق العملاق سوف يهيئ نفسه ليصافح في مصيفنا الكثير الذي يليق بما مر به من الفخامة، سوف يهيئ نفسه ليصافح المروج الغنّاء، والاستراحات الجميلة، والشوارع النظيفة، والسواق المنسقة.. سوف يهيئ نفسه ليصافح الجمال شائعاً في كل ما تقع عليه عينه..

فهل أعد المسؤولون عن عمران الطائف عدَّتهم لهذا قبل أن نتعرض لمقت الساخرين ونقدهم؟

إننا نؤمل هذا.. وننتظر!!

ليتهم يدرسون التاريخ!

لو فوّض إليك أحد أصحاب الملايين أن تختار له عملاً خيرياً يجعل أفضل أمواله وقفاً عليه، فلا أشك أنك ستختار له بناء ملجأ أو مستشفى أو أي شيء من هذا القبيل الذي تعوّد المحسنون وقف أموالهم عليه.

ولكن رغم وجاهة رأيك، فإني أرى أن ينفق على غير هذه الوجوه!..

لا تضحك كثيراً مما أبديه.. فربما ثبت لك أنه أفضل وجه يجب أن توجه إليه أعمال الخير في ضوء أحداث الساعة.

أليسوا يقولون إن نظريات الحياة يجب أن تستلهم من أحدث أفكار الساعة؟! إذن فنظريتي لا تعدو هذه القاعدة.. فهي مستلهمة من آخر ما وصلت إليه تطوراتنا!! فهل تسمعني؟

أرى أن ينفق المبلغ في تأسيس فصل يلحق بإحدى الجامعات العليا في العالم، وأن نتقدم باحترام إلى السادة الذين يديرون دفة العالم فوق سطح الكرة الأرضية وعددهم كما هو معروف لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة.. نتقدم إليهم في رجاء حار أن يتفضلوا بالموافقة على التحاقهم بهذا الفصل كطلبة معيدين.

أنا أعرف أن مستواهم الثقافي من أرفع المستويات ولكن ثبت لي بالأدلة القاطعة أن ثمة مادة لها قيمتها العلمية لم تتفق أذهانهم لدراستها دراسة وافية.

تلك هي مادة التاريخ! وسوف لا يرهقهم هذا الفصل بغير الدراسة لهذه المادة وحدها.. وأكبر ظني أن مثل هذا الطلب سوف لا يضيرهم كثيراً..

خصوصاً إذا علموا أن نجاحهم غداً.. إذا قدر لهم فيه النجاح سيترتب عليه نجاح العالم من القطب إلى القطب.

نريدهم ليدرسوا حوادث العالم وما تناوبته من آثام وشرور لازمته طوال الأحقاب التي عاشها على سطح هذه الكرة بسبب الحروب التي كانت تشنها أطماع القادة في أقطار العالم.

نريدهم ليفهموا أن سائر الشعارات التي عاش الطامعون يطالون بها أطماعهم ويقترفون باسمها كل ألوان العدوان والقتل والتدمير في سبيل أن ينصروا مبادئهم.. عجزت كل هذه عن نصرة مبادئهم نصراً مبيناً خالداً!! فالنصر لا يولِّد قط إلاّ محاولات جديدة تهدمه وتثأر للمهزومين فيه. وأنهار الدماء لا تجف في العادة إلاّ لترويها سيول جديدة من دماء جديدة.

نريدهم ليقتنعوا بأنه ليس في تاريخ الأرض حرب استطاعت أن تحل مشكلة، أو تهب نصراً أبدياً.. أو تمنع سلسلة من الحروب تتوالى على أعقابه في فتك أشد وتدمير أكبر.

عساهم بعد هذا يستطيعون أن يحكّموا عقولهم فيما توتر من أعصابهم فيبحثوا عن وسائل أجدى لفائدة البشر وأمان حياتهم.

إلى سيداتنا المثقفات

-1-

قال لي وهو يغالب دمعة تكاد أن تطفر من عينيه: ألا تجدون حلاً لما نعانيه منهن؟؟

قلت: إنها إشارة ناعمة لعلّها تنتهي إلى شيء أنعم.

قال: إذا كنت تراهنَّ ناعمات فإن أعمالهن لا تكاد تدانيها قسوة الحجر الصلد!

قلت: ليتك تفصح.

قال: إني أب لفتاتين ناهدتين، وطفلين أحدهما يحبو، ويتعثر الثاني في خطواته الأولى نحو المدرسة.

وأنا كما تراني أعمل في محل تجاري لقاء مرتب لا أشك في أنه سيكفيني مؤنتي وأهلي لو وجدت في بيتي مَن يتجاوب معي ويفهم دقائق ملابساتي.

قلت وما عليك إذا أنت دققت موازنتك الشـــهرية بعد حســـم الاحتياطي طبعاً ومضيت تنفق في حدودها ما يتعيّن إنفاقه.

قال: إذن.. لماذا أشـــكو إليك ما دمت أملك حقوق تنظيم موازنتي؟؟ لقد نظمتها بنوداً، وجعلت لكل بند رقمه، وبلّغتها إلى أم الأولاد وزيرة الداخلية في بيتي ولكن مَن لي بمَن يعلّمها كيف تفهم؟!

هناك يا سيدي بند خاص بالكساء مثلاً أشتريه اليوم جديداً لكافة أفراد الأسرة فلا يكاد يمضي أسبوعان حتى يقال إنهم مدعوون إلى حفل زواج، وإنه يتعين عليَّ شراء ما غلا ثمنه وربما وجدتهم معذورين فتكلّفت ما يرونه واجباً وتحمّلت الدَّين في ســـبيله، ولكنه لا يكاد الشهر يتم حتى يُقال إنهم مدعوون إلى حفل (تَسْمَيةْ).

وأقول ليس في هذا ما يكلفنا فلا تزال الملابس الثمينة التي كلفناها يوم حفل الزواج وتكلّفنا الدَّين في ســـبيلها لا تزال محتفظة برونقها فتضـــحك الأم لبلاهتي وتضـــحك الفتيات لضحكها.

لقد شـــوهدت الملابس عليهنَّ في حفل الزواج! فهل يلبســـنها مرة أخرى في حفل آخر؟

إنني في نظرهنَّ أشد سذاجة من أي أبله وأنا أبدي مثل هذا الرأي.. وإنهنّ لا يصح أن يحتملن استهانة السيدات بهنّ، وهن يكررن لبس (فستان) لَبِسْنَه مرة من قبل هذه.

وبذلك تظل أم الأولاد تحاضـــرني فيما يجب عمله لتثبت قيمتها الاجتماعية وقيمة فتياتها بين السيدات، ويجهش الفتيات بالبكاء عند كل مقطع من المحاضرة، كما نصفق نحن بالضبط لكل جملة راقتنا ونحن نستمع إلى محاضر كفء.

ترى ماذا أفعل؟؟

هل أتكلّف الدّيون بعد الأخرى في سبيل تقليد لا أعقله فتضطرب موازنتي ويرتبك عيشي وأذوق ذل الدَّين ومرارة الفاقة؟

أم أقف عند رأيي منصـوب القامة فيشـتعل البيت ناراً وتسـوء علاقتي بأم الأولاد وفتياتي إساءة لا يغسلها شيء؟

أؤكد لك أنني في سـبيل أن أتفادى كل هذه الشـرور اضـطررت للتذلل لرئيسـي في العمل، وبعد أن استمعت إليه من توبيخي به تنازل بإعطائي قرضـاً جديداً أضـيف إلى الدَّين القديم فكان ضغثاً على إبالة.

-2-

ولم تمض على هذا أسابيع حتى قيل لي إن عائلة فلان وصلت من السفر!!

حمداً لله على سلامتهم.. فهل من جديد؟؟

-أجل.. فنحن ســـنحضـــر الحفل الذي أقاموه.. وأنت تعرف ما يجب.. إن كل الفساتين التي نشكرك على ما بذلت في سبيلها أصبحت ملبوسة.. وأنت لا يرضيك أن نعود فنلبسـها مرة ثانية.. نسـأل الله أن يسـاعدك فتشـتري لنا من هذه العينات التي (فنَّت)، فنحن لا نريد أن نكون أقل من عائلة فلان أو بنات علان.

وثمة شـيء آخر.. لا بد لنا –وأنت سيد العارفين– أن نصطحب معنا ولو بعض الهدايا، فقد سبق أن أهدونا يوم (طهور سامي)، ويوم عودتنا من المدينة في الشهر الماضي.. وأنت لا تقبل ذهابنا في أيدٍ فارغة.. يكفينا ولو بعض الواجب.. تكفينا ثلاثة (فساتين) نقدمها ثلاثتنا لسيدة البيت وسنغض الطرف عن الباقين مرغمين.

أرأيت؟؟ إنه بعض الواجب.. وإنهن سيرغمن فيغضضن الطرف!

هذا ما سيكون من أمرهن.. أما أنا.. أنا المثقل بالديون.. المرهق بالهموم.. المضطربة حياتي ومعاشي.. أنا المسهد الذي لا أنام أكثر ليلي لطول ما أفكر فيما آل إليه أمري من شدة ارتباكي.. أنا.. أنا يا سيدي لست في حسابهن.

ثق يا سيدي أنني رجل أحب أن تمضي أموري على نظام مقدر.. ولقد عشت قبل زواجي أتقبل عسر الحياة بنفس الروح التي أتقبل بها اليسر.. عشت أضغط على نفسي وأجالدها إذا عسرت تفادياً من أن أكابد هموم الديون وأُستذل لأصحابها، أو يرتبك معاشي في سبيل سدادها.

ولكنني اليوم لا أجد مَن يفهمني.. إنهنَّ في بيتي أسيرات لتقاليد لا يستطعن عصيانها بأي حال.. وعليَّ وحدي تقع كل هذه التبعات.

أنا اليوم أعاني من الديون ما لا يطاق حمله.. ومع هذا وبالرغم منه فأنا معرَّض في كل يوم جديد لتقليد جديد يثقلني بديون جديدة.. وقد حاولت مراراً لأجرب وقوفي منصوب القامة، فرأيتني بين اثنتين إمّا أن أعلنها حرباً فأفقد عائلتي وبناتي، وأُطرد من قلوبهن، أو أستخذي فتفنى حياتي كما تفنى الشمعة بعد طول احتراق.

قال هذا.. ثم ما ملك أن تهالك أمامي على الكرسي في إعياء يتفطر له الفؤاد.. ومضت دقائق طويلة استفاق بعدها بعض الشيء فوقف يودعني وهو يترنح ويسألني هل تستطيع الصحافة أن تفعل شيئاً لهذا الذي نقاسيه؟!

ورأيتني بعدها أفكر بدوري: هل تستطيع الصحافة أن تفعل شيئاً لهذا الذي يقاسيه الناس؟

الواقع أن في بلادنا نهضة نسائية شملت أهم المدن، وتجند لها أبرز المثقفات في بيوتنا فما يمنعهنّ وهنّ العاقلات أن يغضبن لمثل هذه المظاهر الزائفة التي باتت تفتن العائلات وتثير الشرور بين الرجل وزوجه وبناته.

إنهنّ خير مَن يعرفهن أن تعسف السيدة وهي ترفض لبس فستان جديد لأنها شوهدت تلبسه مرة سابقة شيء لا يقره منطق ولا يصدقه عقل.

ومن خير مَن يعرفن أن أكثر هذه التقاليد التي شاعت بينهنَّ طالما سببت مشاكل وهدمت بيوتاً وأفقرت رجالاً.

وأنه لا يعالج كل هذه الشكاوى إلاّ أن تغضب المثقفات غضبة صارخة فيجمعن على أن يبدأن بأنفسهن فلا يرتدين لأبهى الحفلات إلاّ ثياباً سبق استعمالها، ولا يتقدمن في كل المناسبات إلاّ بهدايا رمزية لا تزيد عن قارورة عطر، أو صحبة ورد، أو منديل حريري، أو شيء من فاكهة.

إننا ننتظر غضبتهن كما ننتظر اسم السيدة الكريمة التي تجرؤ على تحدّي سائر هذه التقاليد بعزم ثابت وقوة واكدة.. رحمة بالرجال وخدمة للاقتصاد العام.. فهل يسمعننا؟؟

إلى وزارة العمل

سيدي وزير العمل والشؤون الاجتماعية..

أهم ما يلفت نظر الحاج المسافر بين مكة والمدينة ملاحقة الشحاذين له في سائر القرى التي يمر بها.

فسيارته لا تقف في أي محطة لتتزود بالبنزين، أو ليأخذ قسطه من الراحة حتى يزدحم حوله الشحاذون يسألونه الصدقة في إلحاح.

بل ربما اصطف بعضهم في قرى أخرى على جانبي الطريق أثناء سير السيارة وهي مارة بهم كالسهم ليصيحوا بطلب الإحسان في مسكنة غريبة.

على أن بعضهم ربما عرض للبيع نوعاً من المنتجات عندهم كالبيض أو البطيخ أو التمر في صورة مشرفة، لكنَّ كثيراً من هؤلاء الباعة لا يلبثون أن يمدوا أيديهم بطلب الإحسان.

أنا لا أنكر أن بعضهم ربما دعته الحاجة إلى طلب الإحسان، ولكني أعتقد أن الكثرة منهم يمكنهم أن يستغنوا عنه لأن مَن يعولونهم موزعون على أكثر المدن يتكسبون فيها من أعمال شريفة، ويوالون رعايتهم وإرسال ما يكفي لنفقاتهم.

إذن فما معنى هذا التهالك المزري على احتراف التسول.

ليس لديَّ إلاّ تعليل واحد ربما استاء له بعضنا ولكنها الحقيقة يجب أن تُقال مهما كانت مرارتها.

هذا التعليل يتلخص في أن هذه البلاد عاشت مئات السنين ترتزق أكثر ما ترتزق من الحجاج، وكانت لا تدقق كثيراً في أنواع التكسب، فالحاج في نظرها حاج ما جاء إليها إلاّ لينفق ويعطي، كما أن مصادر الكسب عن غير طريق الحاج كانت مفقودة إذا استثنيت أعمال التجارة وبعض الاحتراف في بعض المهن اليدوية الصغيرة، ذلك لأن المهيمنين على الحكم يومها كان لا يعنيهم من أمر هذه البلاد إلاّ أن تظل حياتها تعيش

على برِّهم وبر المحسنين، فلم يهيئوها للعمل المثمر الذي هيّأوه لسائر الممتلكات الإسلامية الأخرى.

وكان أمر سكان البادية أشد وأنكى. فقد عاشوا فقراء لا يتكسَّبون من غير الحجاج مهما كان لون هذا التكسب.

إذن فنظرتنا إلى الحاج كمصدر للرزق والإحسان ليست جديدة علينا؛ لهذا فقد بات بعضنا بحكم العادة لا يستنكف أي محاولة للارتزاق من الحاج في أي صورة استطاعها حتى ولو كانت من طريق الإحسان.. بل ربما تعالى بعضهم عن أن يمد يده إلى محسن من المواطنين بينما لا يرى أية غضاضة في أن يمدها حتى إلى أفقر الحجاج.

تأصلت العادة وربما ظل أثرها باقياً إلى اليوم بيننا، وهي في بعض بوادينا باتت أكثر تأصلاً لكثرة الفراغ بين الفارغين منهم.

ونحن بعد أن حمدنا لوزارة العمل نشاطها في علاج التسوّل في أكثر مدننا نتمنى عليها أن توجه أكثر من هذا الالتفاف إلى إخواننا في البادية.

والغريب في الأمر أن أكثر حجاجنا في سنواتنا الأخيرة يصافحون بلادنا وهم فقراء، ولو قيست نسبة ما تحمله جيوبهم إلى أكثر مواطنينا العاديين لحق للحجاج أن يكونوا هم المتسوّلين ومع هذا فلا يزال بيننا من يؤمل إحسانهم بالرغم من أن إحسانهم حتى لو جادوا به فقد بات لا يزيد عن القرش أو أقل من القرش إن وجد.

إن في استطاعة وزارة العمل أن تمد يدها إلى البوادي بعد المدن.. في استطاعتها أن ترشدهم إلى أن مثل هذا التكسب يشين بلادنا ويحقرها وستجد أن البدوي من أشد الناس غضباً لكرامته إذا اعتقد ما يشينها أو يحقرها.

في استطاعتها أن تندب مَن يتولّى إشاعة هذا الوعي وأن تستعين بوزارة المعارف ليبث أساتذتها في مدارس البادية مثل هذا الوعي ويشنوها حرباً على التقليد المشين الذي أصلته مئات السنين.

وفي استـــطاعتها بعد هذا أن ترشـــد الفارغين في البادية إلى بعض المهن اليدوية التي تدر عليهم الكسب، فأكثر قراهم غنية بسعف النخل وفي استطاعتهم أن يتعلّموا صنع عشـرات الأواني منه في صـورة أطباق و "زبادي" و (تباسـي) وأغطية ومواعين وأشـياء كثيرة لزينة الرفوف والموائد بعد أن يلوّنوها بشـــتى الأصـــباغ ويعرضـــوها على الحجاج كنوعٍ من (الأنتيكات).

إن مثل هـذه المهن إذا تولّى تعليمهم فيهـا بعض الفنـانين الـذين ننـدبهم إلى مـدارس القرى ونعيّن لهم فيها حصـــصـــاً خاصـــة ســـتجد رواجاً بين الحجاج يغنينا عن الإلحاف بالسـؤال، ويصـون كرامتنا.. وهي وسـائل شـائعة وأمثالها بين أكثر قرى العالم، فما يمنعنا أن نسابقهم إليها؟!

(القبان) دار أبي سفيان

قرأت للزميل الأستاذ صالح جمال كلمة يدعو فيها إلى العناية بدار أبي سفيان كأثر له قيمته التاريخية بالنسبة إلى أول إشعاع شعّ في مهد الإسلام.

وأنا أشاركه الرأي ولا عبرة في رأيي ببعض الجهلة الذين ألِفوا التمسُّح بالآثار أو جدارها فقد تقشعت الغياهب التي كانت تغشى أكثر بلاد الإسلام بعد انتشار التعليم في عصر النهضة الأخير، وباتت أجيالنا الجديدة تفهم روح الفكرة من تخليد الآثار والحفاوة بها كتذكار ينطق بما سلف من أمجاد نستطيع أن نباهي بها دون أن نتمسَّح ونجعل منها نبراساً يبعث الأمل في ناشئتنا ليستعيدوا ماضيهم العتيد.

وإذا كان لي من رأي بعد هذا فإني أقترح أن لا تقتصر الفائدة من هدم دار أبي سفيان (القبَّان) على بناء مكتبة فقط، فأرضه واسعة جداً وهي تقع في نقطة ممتازة من مكة مشرفة على المسعى وباب السلام وفي الاستطاعة أن نستفيد من موقعها الممتاز لعدة مرافق لها أهميتها.

نستطيع أن نخططها شوارع لينتظمها ما لا يقل عن مائة دكان أو أكثر، كما نستطيع أن ننتفع تحت الدكاكين بممرات واسعة نجهز فيها بعض المرافق لقضاء الحاجة، فالمسجد الحرام من هذا الجانب يستقبل ضغطاً شديداً لا يقل عن ثلث ما يستقبله عموم المسجد؛ لأن السكان والحجاج من أعلى مكة إلى نحو منتصفها يصبون في باب السلام، كما أن جميع الساعين بين الصفا والمروة ينتهي سعيهم في هذا الجانب. لهذا فنحن في أشد الحاجة إلى بناء أكبر مرافق لقضاء الحاجة يتسع للعدد الهائل الذي يجمعه هذا الجانب من المسجد.

ولا يهيئ لنا مثل هذا المرفق إلاّ مثل هذه الأرض في هذه البقعة الواسعة.

وإذا أنشأنا فوقه عدة شوارع استطعنا أن نوسع للتجار والباعة الذين فقدوا دكاكينهم في سـويقة وغيرها، وأن نضـمن لصـندوق الأوقاف مورداً له قيمته المادية.

وسوف يتهيأ لنا أن نبني فوق الدكاكين المكتبة الهائلة التي أصر الملك العظيم على بنائها عظيمة تليق بمركزها كمكتبة للحرم الشـريف. فإن مسـاحة الأرض سـوف لا تضـيق بالتخطيط الفخم الذي ينويه الملك لها، بل ربما اتسـع لبناء بعض المكاتب أو المعارض التجارية إلى جوارها لتعطي المكان ما يسـتحقه من بهاء.

ولا يعجزنا بعد هذا أن نبني فوقها عدة طوابق تنتهي إلى عشـرة أو أكثر نستفيد منها لأزمة السكن بجوار الحرم ونبني بعضها كفنادق ثم نجهز لها ولشقق السكن عدة مصاعد.

إن هذه البقعة الممتازة بمسـاحتها الواسـعة وموقعها المحترم كفيلة بأن تهيئ لنا وللبلاد والحجاج منافع كثيرة كلها وجيهة وناجحة. فليت المعنيين بتخطيطها يجدون في اقتراحي ما يستأهل الدراسة.

ومن الخير بعد هذا فيما أراه أن تكون غلات الشـوارع وجميع ما يبنى فوقها من طريق وقفاً على المكتبة لتجد مصـدراً ثراً سـنوياً تنفق منه في صـورة جد واسـعة على شـراء الكتب والمخطوطات.. فحرام على مكتبة تنسـب لقبلة المسـلمين أن لا تحتل مركزها في الصـفوف الأولى بين مكتبات العالم في سـائر أقطاره.

ممّا قالت الكتب

تحدثت كتب الأدب كثيراً عن غرام توبة بن الحمِيّر (بتشـــديد الياء) بليلى الأخيلية وغرامها به.

وأورد صاحب الأغاني عن رجل يُقال له ورقاء.. القصة التالية قال:

سمعتُ الحجاج يقول لليلى الأخيلية إن شبابك قد ذهب واضمحل أمرك وأمر توبة فأقســم عليك إلا صـــدقتني.. هل كانت بينكما ريبة قط، أو خاطبك في ذلك قط؟ فقالت: لا والله أيُّها الأمير إلاّ أنه قال لي ليلة وقد خلونا كلمة ظننت أنه قد خضـــع فيها لبعض الأمر. فقلت له:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها	فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب ما ينبغي أن نخونه	وأنت لأخرى فارغ وخليل

فلا والله ما سمعتُ ريبة بعدها حتّى فرّق بيننا الموت.

قال لها الحجاج: فما كان منه بعد ذلك؟

قالت: وجه صاحباً له إلى حاضرنا فقال: إذا أتيت الحاضر من بني عبادة بن عقيل فأعلُ شرفاً ثم أهتف بهذا البيت:

عفا اللّه عنها هل أبيتن ليلة	من الدهر لا يسري إليّ خيالها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى فقلت له:

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه	عزيز علينا حاجة!!! لا ينالها

وأنا أتساءل لماذا لم يكلّفه غشيان منزلها؟ أيُقال إنه يتعذر عليه لجهله الطريق؟ أم لخوفه من القوم أن يسيئوه أو يسيئوها.

أسئلة عابرة أرى أنها من لزوميات القصة لتكمل حبكتها؟

لئن قيل ليس في الأمر ما يخيف ولكنه جهل الطريق، ففي استطاعة المندوب أن يسأل عن الخباء حتى يأتيه فيسر إليها وتسر إليه، وإن قيل إنه الخوف فأي أمان لرجل يهتف من شرف يطل على القبيلة ليبلغ الرسالة بصوت عالٍ.

لعلّ القصة تريدنا لنفهم أن البيت من الشعر كان رمزياً لا تفهمه إلاّ بطلتنا ويغمض عن الباقين؟؟.. ولكننا نجد البطلة تستجيب للهاتف في صراحة وترد عليه وفي ردها على هذه الصورة ما ينفي الخوف نفياً قاطعاً!!

لم نسأل بعد كيف وضحت حروف المنادي يصرخ من الشرف العالي فوق القبيلة وعهدنا بالصراخ يبدد أكثر الكلمات.

ولم نسأل كيف تم لها أن تبلغه جوابها من بين المنازل، وعهدنا بمثلها لو صرخت من داخل الخباء أو من عرصته خارج الخباء فليس من السهل أن تبلغه كلماتها ولو ببعض الوضوح.

ألا يبدو في القصة ما يجرح سياقها ويدل على تهافتها؟؟ أم يتعين علينا ألاّ نتعمق في تدقيقها.. فحسبها أنها قصة لا أكثر!!

الواقع أنها قصة!! ولكن ما رأي الفاهمين أن أكثر مقدرات تاريخنا أوردتها الكتب قصصاً على مثل هذا الغرار، ثم ما لبث التاريخ أن احتضنها كعنصر من عناصره الأساسية.

ترى إذا أبينا إلاّ أن ندقق جميع ما انتهى إلينا من فصول التاريخ وندرسه دراسة واعية لننفي كل ما يتهافت أو يجرح السياق. فإلى أي حد يمكننا أن نستصفي ما يصح اعتماده من تاريخنا؟؟

–اللَّهم لا أدري!!

نحن وهُم . . في ميادين التنافس!

من أطرف ما قرأتُ عن الانتخابات الألمانية الأخيرة أن الأحزاب في ألمانيا الاتحادية عقدت اتفاقاً فيما بينها يحدد شكل الإجراءات الانتخابية، ويحد من وسائل التنافس ولا يبيحهم دخول المعركة إلاّ بالوسائل الشريفة. وقد جاء هذا الاتفاق في 12 فقرة تناولت أهم ما تناولت الإقلال من النفقات المالية في سبيل بث الدعاية، فتحظر وسائل الإعلان والدعاية بالطائرات من كتابة العبارات في السماء بواسطة السحب الصناعية، كما تحظر الدعاية في محطات الإذاعة والتلفزيون تفادياً من دفع الرسوم الباهظة التي ترهق الجيب الألماني، وأن لا توزع النشرات على البيوت بطريق البريد، ولا الإعلانات بواسطة الصحف والمجلات إلاّ في أوقات حددتها الاتفاقية، وأن لا تشرع الأحزاب في إقامة لافتات الدعاية إلاّ في أماكن قررتها الاتفاقية وحددت مواعيدها.

إلى آخر ما جاء في الاتفاقية ممّا يدلل على ميزة الوعي الألماني ومبلغ إدراكه لحقيقة الحياة البرلمانية التي يعيشها والحقائق العالية التي يعنيها أسلوب المنافسات.

فليت بلاد الشرق التي لذ لها تقليد الحياة البرلمانية تدرك الحقائق الدقيقة التي تنطوي عليها معاني حياة البرلمان.

ليت إخواننا وهم يتطرفون في الأخذ بأسباب الدعاية لأحزابهم فيتبارون في بذل الملايين وربما أباحوا لبعض المهتمين بنتائج انتخاباتهم من الأجانب والجيران أن يتعرضوا لشراء الأصوات في السوق العامة ليضمنوا صداقة النواب الفائزين.. ليتهم وهم ينفقون بشتّى الوسائل ومختلف الأساليب، ويعرضون مواطنيهم لأقسى أنواع الشقاق والمنابذة، ويضحون بعشرات القتلى ومئاتهم في سبيل فوز مرشح أو سقوطه.. ليتهم يعلمون أن حكمة الحياة النيابية قامت لغير هذه الأغراض.. وليت غيرهم يعرف أن عنايتهم بالانتخاب الصناعي الذي يوجّه الناخب ويفرض عليه الوسيلة ويعين أمامه

النتيجة ليست إلاّ أساليب تسيء إلى روح الأمة وتفقدها أصالتها وتهيئها للحياة الزائفة التي لا يتحقق بأسبابها أي تقدم.

ليسوا سواء في هذه الحياة أمة تشترط الوسائل الشريفة في معاركها الانتخابية وأخرى لا يهمها إلاّ أن تظفر بالنتائج مهما كانت وسائلها.

ولا يقتصر الأمر على معارك الانتخاب فيما أرى، فميادين العراك سياسية كانت أو تجارية أو علمية أو أدبية لا يهيئها للنجاح شيء كما تهيئها الدراسة الصادقة. أمامنا اليوم مثل قائم في ميدان التجارة طالما شهدنا فيه أفراساً لا يهمهم إلاّ أن يتنافسوا دون أي اعتبار لما تقتضيه الدراسة الصائبة والنظر الصادق حتى جاء التنافس على أهم مقوماتهم.

وأمامنا مثله في ميدان الطوافة، ومثله في ميدان المناقصات وغيره في غير ذلك من شتّى ميادييننا المحدودة.

ما أحلى أن يتعاقد المتبارون على أن يؤدوا مصالحهم ولا يسيئوا إلى مقدرات بلادهم ولا يهدروا أنفسهم وأموالهم، وأن يتبصروا العواقب قبل أن تخر السقوف من فوقهم وهم لا يشعرون.

لا مستحيل في هذه الحياة فكل ميادين التباري والمنافسات في البلاد الراقية نظمت في أشكال تصون مقدراتها وإلاّ لأغلقت المصانع والورش وبيوت التجارة وسائر الأعمال التي تتعرض للاحتكاك جميع أبوابها.

إن التنافس في كل ميادين الحياة لا يعني التدابر والمضاربات المدمرة، فيتعين على المتنافسين في كل مجال أن لا يفارقوا عقولهم ليثبت الرجل منهم أنه الوحيد القادر.. إنه شطط يجب أن يتلافاه عقلاء المتنافسين، فيقيدوا مضارباتهم بوسائل شريفة تنظم أعمالهم ولا تسيء إلى المستفيدين في الميدان.

عندما تتأخر قوافل الحج

ممّا يلاحظ من شؤون مواسمنا في السنوات الأخيرة أن حجاجنا بات يلذ لهم كثيراً أن يتباطأوا ما استطاعوا في قدومهم إلينا سنة بعد أخرى حتى لأكاد أوقن بأن السنوات الآتية سوف لا نستقبلهم إلاّ بعد إهلال ذي الحجة أو قبيل يوم التصعيد.

ربما كان عذر الأغلبية الساحقة منهم أن الحج عرفة، فما عليهم إذا تباطأوا في انتظار آخر أسبوع أو حتى آخر يوم يشرق في نهايته صبح عرفة.. وما دامت وسائل النقل أصبحت أمامهم سهلة ميسورة؟ فما يمنعهم أن يختزلوا مدة إقامتهم إلى أدنى حد ممكن توفيراً للوقت واقتصاداً في النفقة؟

لقد مضت الأيام التي كان الناس فيها ينظرون إلى الحج نظرتهم إلى متعة روحية يحاولونها لتطول بهم في أماكن القداسة، ينسون في غمارها جميع مشاغلهم الحياتية، وينصرفون بقلوبهم إلى العبادة والابتهال وكسب المزيد من الحسنات كتعويض عما أسلفوا في حياتهم.

مضى كل هذا بمضي السنين وحل محله جديد لا يعنيه من أمر الحج إلاّ أن يقف يومه في عرفات، ولا يكاد يزدلف إلى منى حتى يهيب بمطوفه أن يساعده في النفقة، وإذا استطاع ذلك في أول فوج فتلك منة لا تقدر عند الحاج بثمن!!

ونحن إذا صرفنا النظر عمّا لا شأن لنا به من خصوصيات الحجاج فإن ما نعانيه حكومةً وشعباً من زحامهم في أسبوع الحج أصبح شيئاً لا يُطاق احتماله.

فبواخرهم تنهال أكثر ما تنهال في أيام هذا الأسبوع، فتضيق الميناء على سعتها بعشرات الألوف تتقاطر في تتابع مستمر، فيعاني الموظفون والمكلفون باستقبالهم وتوزيعهم وقيد أوراقهم وترحيلهم من المشقة والسهر والإرهاق ما يتجاوز طاقة البشر.

إذا أضفت إلى هذا ركاب الطائرات التي تهبط المطار بأكثر من عدد ساعات النهار والليل، تحمل الأفواج تلو الأفواج وألحقت به ألوف السيارات التي تسيل بها سائر

الطرقات إلى مكة، وما تفيض به البوادي من ركبان أو مشاة ظهر لك مدى ما تقاسيه البلاد حكومتها وشعبها، موظفوها ومطوفوها وسائر المكلفين بمرافق الخدمة في مجال الحجاج من نصب وإرهاق خلال أسبوع الحج.

إليك مثلاً واحداً.. كان المطوفون فيما مضى من سنيهم يستقبلون حجاجهم في أناة، فلا يأخذ الفوج من القادم برقاب ما قبله.. وكانوا إذا أهلَّ شهر الحجة يحصون ما في بيوتهم من عدد الأشخاص ولا يعجزون عن تقدير ما ينتظرونه في اليومين الآتيين، وبذلك يعدّون عدتهم للترحيل والخيام وما يلزم من عدة وخدم، فيمضون أياماً هادئة هانئة.. أما اليوم وقد زلزلت الطائرات السريعة والبواخر القوية علينا أرضنا، فقد أصبحنا في غمرة من الزحام المفاجئ.. فلا غرابة إذا ارتبك موظفونا، واضطرب حساب مطوفينا وضغط التدافع على سائر مرافقنا وأسواقنا وبيوتنا.

إني أقترح على أصحاب الأمر أن يحاولوا تخفيف هذه الوطأة ما أمكنهم ذلك، فيعلنوا إلى أصحاب شركات البواخر والطائرات وسيارات البر بأن لا يقلوا ركابهم إلاّ إلى يوم محدد يعينونه ليكون كافياً لاستقبال الحجاج في عناية لا يرهقها الزحام.

إننا بذلك ربما حملنا الحجاج في سائر أقطارهم على أن يفكروا في رحيلهم مبكرين ما استطاعوا، وبه نمنح الفرصة واسعة لسائر المختصين بالخدمة في سائر مرافق الحجاج بأن يؤدوا واجباتهم في تؤدة تساعد على راحتهم.

امتحانات طلبة الثانوية . . أيضاً!!

ترى ماذا فعلت وزارة المعارف؟

لقد أبلغناها شكوى أبنائها من اجتماع مادتين صعبتين في يوم واحد، ورجونا إليها أن تتفضل فتعيرهم لفتة تساعدهم على اجتياز الامتحان في يسر.

أبلغناها شكواهم وكان من رأيي الشخصي أن يطمئن أبناؤنا لأن مطلبهم كان يبدو عادلاً أمام مَن يتصفّحه، ولأن العاملين في وزارة المعارف خير من يتفهمون المطالب العادلة.

..ولكن.. تُرى ماذا فعلت وزارة المعارف؟

لقد زارني بالأمس نفر من الطلبة يسألونني هل تلقيت شيئاً نستبشر به بعد أن باتت أيام الامتحان على الأبواب؟

قلت: لست أنا الذي أتلقى جواب شيء كهذا.. ولكن امضوا إلى إدارة التعليم لتنبئكم بما جد في الأمر.

قالوا: ليس في إدارة التعليم جديد!!

قلت: هذا لا يمنع أن تطمئنوا فربما كان الطريق يحمل إليكم هذا النبأ الجديد، فأنا لا أتصور أن المسؤولين عن جداول الامتحان في وزارة المعارف يقرأون كل هذه النداءات دون أن يعنوا بما جاء فيها..

يجوز أن ما يبدو أمامكم وأمامي بل وأمام كل من كتب في شأن شكواكم لا يزيد عن جانب واحد في المسألة، وأن هناك جوانب أخرى ذات مساس خاص نجهله ألزمت المسؤولين في وزارة المعارف أن ينهجوا ما نهجوه في توزيع الجدول..

يجوز هذا.. ولكن الذي لا يجوز في رأيي أن يسكت المسؤولون على ما عندهم دون أن يبدوا ما يرونه سبباً وجيهاً لموقفهم تطميناً لأبنائهم وعناية بالصحافة التي احتضنت ما رأته حقيقاً بالاحتضان..

من أجل هذا أرى أن تطمئنوا.. سيوافيكم الطريق بما يقنعكم أو يكشف عنكم.. ستقرؤون غداً بياناً يعلن استجابة الوزارة لما تشكون أو يفصّل لكم وجهة النظر التي جهلناها وإيّاكم..

ذلك لأن الوزارة تعرف واجبها نحو أبنائها، كما تعرف حقوق الصحافة عندها.. كما يعرف المسؤولون عن الجداول أن سكوتهم على ما عندهم لا يتفق مع ما أَلِف الناس من سجاحة وزيرها الشاب وعنايته بشكاوى الناس وميله لنصفة من يستحق النصفة.

في الطواف

إن كثيراً من أفكار الحياة تحيّرني فلا أفهم لها معنى.

يذكرني بهذا ما أشهده من ضوضاء الطواف وجلبته التي تقضي على هدوء الطائف وخشوعه ومتعته بالاتصال بربه.

إنني أفهم معنى أن يصرخ المطوف وهو يتقدم حجاجه في الطواف ليسمعهم الكلمات التي يتلقونها واضحة. أما الشيء الذي لا أفهمه فهو متابعتهم إياه بنفس الصراخ.

إذا كنا نجيز له أن يصرخ لأنّه مكلّف بإسماع مَن خلفه، وربما بلغ عددهم العشرات، فهل كان تابعوه مكلفين مثله بإسماع أصواتهم إلى أحد ليجيزوا لأنفسهم هذا الصراخ الذي يملأ المطاف جلبة وضوضاء، ويقطع على الخاشع لذّة الهدوء في طوافه.

أرى أنه أمر في أشد الحاجة إلى نظر الجهات المعنية بالدِّين. فإذا بدا لها أن من الخير للحجاج أن يرددوا ما يسمعونه من مطوفيهم في ذات سرهم دون أن تصحبه أصوات صارخة فإن في استطاعتهم الإيعاز إلى وزارة الحج لتكلِّف المطوفين بالتنبيه على حجاجهم قبل كل طواف أن لا يرفعوا أصواتهم فيما يتلقون، وأن يعيدوا ما يسمعونه سراً دون أن تجهر به أصواتهم.

ويلفت نظر الطائف في أسبوع الزحام كثرة الأوساخ في المطاف على الرغم أن المشهود لأغوات المسجد عنايتهم بالكنس والتنظيف في صورة مستمرة ولكن الزحام الذي يأبى إلاّ أن يغلبنا على كل شيء لا يتركنا حتى في المطاف، ولو قدرنا لهذا حقه لاستطعنا أن نعد للشيء عدته بفرض نوبة على بعض المختصين من الأغوات ليتعقبوا الأوساخ في أيام زحام الطواف ويحاولوا إزالة أهمّه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فإن من يشاهد أوساخنا في ذلك اليوم ربما حكم على قصورنا ونسي جميع جهودنا المضنية في سائر أيام السنة.

ولا تقتصـر الأوسـاخ في أيام زحام الطواف على المطاف بل إن أكثر زوايا المسـجد ومشـاياته وأركانه تجمَّع فيها كثير من أوسـاخ الحجاج حتى أحيلت إلى مناظر تكتئب لها النفس، فلو عنيت إدارة المســجد بانتداب مراقبين لا يملون من الزحام ليشــرفوا على نظافة المسجد لظهرنا أمام الحاج بما يشرفنا.

ويبدو أن المعنيين بدار الرعاية غفلوا في غمرة الزحام عن المتســولين في المطاف أيام الزحام، فقد شـوهدوا يعرضـون عاهاتهم للطائفين، وربما كان الحاج معذوراً، إذا انتقد ما يشاهده وهو لا يعلم ما نبذله لهم وما ننفقه على إعاشتهم في دار الرعاية.

إلى سيدتي

جاءني من جمعية اليقظة النسائية بالطائف خطاب يلفت نظري إلى أن مكتبة الجمعية في حاجة إلى مساندة الأدباء وغير الأدباء ليتبرعوا لها ببعض الكتب التي من شأنها أن ترفع مستوى المرأة السعودية ثقافياً.

إلى أن يقول الخطاب: وقد وجّه الدكتور عبد الله مناع نداء منذ شهرين تقريباً إلى الأدباء وغيرهم يحثهم فيه على المساهمة بتزويد المكتبة بشيء من ذلك.. ولكن للأسف!! لم يصل إلى مكتبة الجمعية حتى تاريخ كتابة هذه الرسالة أي كتاب، إلاّ أن مؤسسات الصحافة يصح أن تستثنى من ذلك، فقد تفضلت جميعها بإرسال صحفها إلى الجمعية عدا جريدة عكاظ.

وفي خطابهن يرجون إليَّ المساهمة في نداء الأدباء وغيرهم على أمل أن لا يبخلوا بتبرعاتهم وأن يساعدوا الجمعية بما يساهم في رفع المستوى الثقافي بين أعضائها.

إلى هنا ينتهي ما جاء في خطابهن. أنا شخصياً أشعر دون شك أن من حق فتياتنا الناهضات على مثلي أن ينادي بضرورة مساعدتهن ومن حقهن كذلك على أدبائنا ورجالاتنا وسائر هيئاتنا الثقافية رسمية كانت أو أهلية أن لا تضن على جمعية كهذه تطالب بحقها في النور والمعرفة بما يضيء أمامها الطريق ويهيئها لثقافة الأمم الناجحة.

على أني بعد هذا الرجاء يهمني أن أعلق على أسف الجمعية الذي ساقته إلى أدبائنا وغيرهم وإلى جريدة عكاظ في عتاب مؤدب رقيق لأقول لها إن شأن عكاظ لا يزيد – فيما أعرفه من زملائي– عن نسيان لا أكثر وأن في استطاعة الجمعية أن تذكر أصحابها بخطاب يعاتبهم وستجد الزملاء عند حسن الظن.

أما الأدباء فأمرهم أدق من هذا.

أي سيداتي..

إن الأديب وأخص بالذكر منهم إخواننا المؤلفين. ولولا خوفي أن أشق على أمثالكنّ لأهبتُ بكنّ أن تتفضلن بتشجيع مؤلفاتهم.

لعلكنّ لا تعرفن أن المؤلف منهم يرهق أعصابه شهوراً أو سنوات إذا اقتضى الأمر حتى إذا انتهى من التأليف والطبع تحول إلى سائل يستعطي مَن يساعده على الشراء لا ليتقاضى أتعاب الشهور والسنوات التي عاناها في التأليف بل حسبه أن يستعيد ما أنفقه كرأسمال.

إن استعادة رأس المال يا أخواتي دونه خرط القتاد، فأكثر المؤلفات لا ينفد ربعها أو نصفها إلاّ بعد جهد شاق، وليتنا نتركه بعد هذا لما يقاسي فإن هيئاتنا ومدارسنا وما أكثرها، وأصدقاء الزمالة والقرّاء والقربى كذلك وهم ربما تجاوزوا المئات.. كل هؤلاء يشعرون أن من حقهم على المؤلف أن يهديهم مؤلفه.. لهذا فهو ضائع.. وهو خليق بالتشجيع.

وإذا كان لي من رأي عند الجمعية فهو أن لا نكتفي بنداءات الصحف، ومن الخير لها أن تحرر خطابات خاصة بالبريد إلى المعروفين بالأريحية من أصحاب الثراء في بلادنا ليتبرعوا لها بشراء الكتب، وأن تطلب إلى وزارة المعارف وإلى القائمين على مطبوعات الملك المعظم ليزودوها ببعض ما في خزائنهم من الكتب الموقوفة على مثل ذلك.

حرفةالسباكة. . وشبابنا

تتداعى المعاني في ذهني بمناسبة ما كنتُ كتبته عن تكتلنا على أبواب الوظائف، فتذكرني بما وقع لي شخصياً قبل أسابيع، فقد قيل لي في البيت إن المياه غمرت أرض الحمام حتى تعذر دخوله، فأسرعت إلى التلفون أرجو إلى صديق لي من أصحاب المعارض التي تبيع أدوات الحمام أن يسعفني بأحد السباكين من عملائه ليصلح ما فسد في الحمام، فغاب نحو ساعتين ثم طلبني ليؤكد لي أنه أرسل في طلب عدة أشخاص يعرفهم فوجد الجميع مشغولين أو غير موجودين، وأنه يرى أن أنتظر إلى صباح اليوم التالي، ولكن انتظاري إلى صباح اليوم التالي أمر لا يمكن احتماله بعد أن طفحت بالوعة الحمام، فكلّفت سائقي أن يبادر فيجول بسيارته على كل المظان التي يؤمل أن يجد فيها سباكاً وأن لا يحضر من غير سباك مهما كلفه الأمر.

وأشهد أنه كان يومها على غير ما عرف الناس من مزايا السائقين إخلاصاً وبراعة، فقد صافحني وجهه بعد غياب أكثر من ساعة ونصف ساعة وهو يتنزى عرقاً فقلت مهيم؟؟ لعلّك سبع؟؟

فرفع صدره في عظمة المدل بنفسه وقال: سبع وأي سبع!! فقد غربلت البلد غربلة حتى وقعت لك على حضرته!!

وطالعني وجه حضرته من أول درجة السلم، وإذا شخصية تستاهل بحق أن تكون من أصحاب (الحضرات) تحتويها بذلة فيها كبرياء دكتور وأناقة وجيه.

ولا أكتمكم أن شيئاً من الخجل انتابني وأنا أصافح وجاهته وأتقدمه على الحمام. ولكنه ما كاد يقف على عتبته حتى نسي بزته الأنيقة وبدأ يشمر عن ساقه ليغوص في لجة الماء الطافح، وعن ساعده ليزج به في البالوعة دون أن يتوقف في انتظار إدارة حتى قطعة من حديد أو خشب تقيه غثاء البالوعة وأوساخها.

ولم تمض إلاّ دقائق حتى شرعت المياه الطافحة تأخذ مجراها دون أن يبدو على وجهه الشارق أي أثر للتأفف أو الاشمئزاز الذي تعودناه في كثير من ملابسات أعمالنا.

لا يعرف إلاّ الله كم أكبرت فيه هذه الرجولة الناضجة!

وما كدت أغيب عنه دقيقة حتى استوى أمامي نظيفاً في بزته الوجيهة وقامته الأنيقة، فتقدمت إليه بأتعابه وأنا جد مسرور.. وكانت أتعاباً لا تقل عن أتعاب طبيب يستقدمه إلى البيت أي مريض لعيادته.

ليت شبابنا الذي فاته ركب التعليم يدرك قيمة أمثال هذه الأعمال الحرة، ويعرف أنها لا تقلل شيئاً من مركزه أمام لداته، وأنها خير ألف مرة من أن يعيش (سبهللا) بين البيت والمركاز لا أمل له إلاّ في عمل فراش أو مراسل.

بل ليتنا نعرف أن التعليم لا يصح أن يكون حائلاً بين الشاب وعمله في أي مجال. فأمثال هذه الحِرف في سائر بلاد العالم ليست وقفاً على الأميين، فالأمية عندهم تكاد أن تكون ندرة بين الناس، وأكثر الممتهنين لأمثال هذه الحرف لا يقل مستواهم العلمي عن أكثر أندادهم من الموظفين.

إن المحترف في أمثال هذه المهن في العالم الراقي يشعر أنه سيد نفسه وأن قيمته الشخصية رهن بكفاءته في موارد الكسب.

ليت وعّاظنا فوق المنابر يضيفون إلى نصائحهم وصايا تبين مزايا الرجل الكسوب وأثره في دعم نهوض بلاده وإعزازها.

إلى المريخ . . فركة كعب!!

نشرت في عام 1373هـ في جريدة الندوة

أذكر أني قرأتُ من نحو عشرين سنة قصة معرّبة من اللغة الصينية، جعل المؤلِّف بطلها بروفيسوراً صينياً تعمّق في دراسة الفلك اللاسلكي، واستطاع أن يتصيد بعد مراقبة طويلة بعض الموجات اللاسلكية التي استغرب إشارتها، فواظب على تتبعها في أوقاتها، وجاهد كثيراً في تطبيق الإشارات حتى استطاع أن يعين حروفها وما تعنيه، فأخذ يتجاوب مع مصدرها حتى عرف أنه في كوكب المريخ.

لقد ضحكتُ يومها أشد الضحك.. لا للفكرة الغريبة التي تخيّل المؤلف فيها وجود عوالم تسكن المريخ، وترسل إلى الأرض موجات لاسلكية تؤمل أن يتجاوب معها أحد من سكان الأرض.. لم أضحك لهذا فقط، بل ضحكت وأغرقت في الضحك لأن البروفيسور الصيني اكتشف -كما تقول القصة- جميع الأحداث في كوكب المريخ تستأنف وقائعها في الأرض بعد أسبوع واحد من وقوعها في كوكب المريخ، فلو قامت الحرب بين اليابان والصين لكان معناه أن مثل هذه الحرب قامت بين نفس الدولتين في المريخ قبل وقوعها بأسبوع واحد.

وتتوسع القصة حتى تجعل البروفيسور يثري ثراءً فاحشاً بسبب اكتشافه، فهو يتلقى أخباراً عن ارتفاع أسعار النقد في البورصة أو أسعار أسهم مصنع كبير للصلب في المريخ، فيسارع إلى بذل الملايين في سبيل الشراء ثم ينتظر أسبوعاً ليعرض ما اشتراه للبيع فيحقق أرباحاً لا تقدر.

لذّت لي القصة يومها لا لإغرابها في الخيال، بل لأن الإغراب كان محبوكاً بشكل نادر ينسيك نصيبه الواسع من الخيال.

تذكرت كل هذا من أيام وأنا أقرأ في جريدة الندوة نبأ اكتشاف حضارة تقدمية في الكواكب، وصراع علماء الأرض على صحة النبأ بين النفي والإثبات.

يقول النبأ: إن العالِم الروسي جنادي شـولوميتسكي لاحظ انطلاق موجات من مصدر مجهول وأن دكتوراً روسياً آخر هو نيكولاي كارداشيف قال: إذا كانت موجات (ستا–102) هي مصدر اصطناعي لموجات لاسلكية، فإنها ولا شك ستأتي في أعقاب إشعاعات منتظمة، وقد بات يجزم بهذا ويقول: إنه تم اكتشاف حضارة متقدمة للغاية.. وإن علماء روسيين آخرين دققوا في نتائج مراقبة العالم شولوميتسكي وقالوا إننا نواجه ما قد يكون أهم اكتشاف في تاريخ علم الفلك اللاسلكي، كما أن عالماً أمريكياً يقول: إن موجات (ستا–102) لا يمكن أن تكون من صنع إنسان.

إلى أن يقول النبأ: ومع هذا فقد أبدى علماء أمريكيون آخرون تحفّظهم وقال بعضهم إنه ليست هناك بيّنة كافية، وإن قول الروس عن وجود حياة في الفضاء الخارجي بعيد الاحتمال.

قرأتُ هذا فتذكرت الخيال الخصب الذي أضحكني من عشرين سنة ووجدتني أتساءل هل يعيد التاريخ حكاية الذين تخيّلوا الطيران على بساط الريح قبل حدوثه بعدة قرون، وتخيلوا إلى جانبه مئات الأجهزة التي نتمتع اليوم باستعمالها!

ترى هل تعتبر قصة البروفيسور الصيني الخيالية إرهاصاً لاكتشافات لا يعلم إلاّ الله مداها.. وهل يُكتب غداً لأحد أحفادي أن (يفرك كعبه) في مشوار قصير إلى أحد الكواكب كما نفرك اليوم كعوبنا إلى أمريكا وكانت قبلنا وراء حدود المجهول؟! اللّهم لا علم لنا إلاّ ما علمتنا.

عندما يتباهين بما لا يملكن!

نشر في جريدة الندوة عام 1372هـ

ذكر لي –والعمدة على راوي الخبر– أنه: في إحدى حفلات الزواج كانت المدعوات من سيداتنا يشكلن معرضاً واسعاً من معارض الحلي والمصوغات والأحجار الكريمة تتلألأ بها نحورهنّ وصدورهنّ وأيديهنّ.. وأنه كان بين الحاضرات سيدة مثقفة من إحدى جارات بلادنا الشقيقة أناطت بنحرها قطعة واحدة يتدلّى من سلسلتها الرفيعة حجر كريم متوسط القيمة، فلم ترق هذه البساطة لسيداتنا الفاضلات فأخذن يتغامزن على الضيفة في شيء من السخرية والاستخفاف الضاحك.

وشعرت الضيفة بما يبدين فلم تعره اهتماماً أول الأمر، ولكن الحالة ما لبثت أن تفاقمت واتسعت فما ملكت الضيفة إلاَّ أن وقفت تهيب بهن: لقد صبرتُ طويلاً على غمزاتكنّ، وأنا أؤمل أن يتبيّن لكنّ وجه ما تغمزن على حقيقته.. إنكنّ تسخرن مني لأني لا أملك إلاّ هذه السلسلة الرفيعة التي ألبسها، وكان يحسن أن تسخرن من أنفسكن وأنتنّ تعلمن أن أكثركنّ لا يملكن أكثر الحلي التي يلبسنها!!

قالت هذا ثم عادت إلى مجلسها ساكتة، فلم ينبس أحد منهنّ ببنت شفة كأنما شعرن بحرجهن أمام الحقيقة الفاضحة.

وهل ثمة ما يحرج أكثر من هذا؟..

إن سيداتنا يتباهين بأشياء يعرفن أنها آخر ما يصلح للمباهاة.. إنهن يعمدن إلى الاستعارة من بيت فلان، أو الإجارة من دكان علان حتى إذا أثقلن صدورهنّ ونحورهن بالثمين الغالي مضين يتهادين متباهيات في الحفلات والمناسبات، بما لا يملكن.

وأغرب ما في هذا أن السيدة لا تكاد تتهادى بما تتحلّى والتعليقات: (شوفي يا أختي هذا عقد فلانة، وهذا الطوق مستعار من بيت فلان.. وهذه (اللبة) يؤجرها الدكان الفلاني.

ولا تكاد التعليقات تقتصر على الواحدة منهنّ أو الاثنتين في المجلس بل كثيراً ما تشمل أكثر الحاضرات.

إذن فهنّ يباهين بأنهنّ عارضات أزياء لا أكثر، وهي (تقليعة) لا أدري كيف تستسيغها عقولهنّ.. وكيف يتذوقنها وليس فيها شيء من أصول الذوق.

يصح للسيدة أن تباهي بحلية تملكها تدل على متوسط ثروتها، كما تدل في الوقت نفسه على دقتها وحسن ذوقها في الاختيار. أمّا أنها تبدو وكأنها موديل تجاري لعرض اللامع والبراق من أموال الناس فهذا آخر ما يستسيغه الذوق الأصيل.

أنا لا يعجبني أن أتجنى على السيدات وليس بينهنّ إلاّ أختي أو ابنتي ولكنه لا يرضيني في الوقت نفسه أن يشايعن (تقليعة) فيها من غثاثة الذوق ورداءة التكلّف ما يسيء إلى سمعة بيوتنا.

إن السيدة الراقية في أي بلد متمدن باتت اليوم لا تتحلّى بأكثر من حلية واحدة فيها كثير من البساطة غير المتكلفة.

وباتت إلى هذا تستنسب من الأصناف المقلدة ما يوحي بميلها إلى البساطة، وأنها تعتمد على جمالها ورقة أنوثتها أكثر ممّا تعتمد على البهرج المتكلف.

إني هنا أكرر رجائي إلى رائدات نهضتنا النسائية آملاً أن يتقدمن الصفوف للقضاء على أمثال هذه التقاليد الجاهلة، فليس أقدر منهن بالقضاء عليها.

شبابنا ((الموضة))!

-1-

في خطاب من الأخ محمد عبد الله يقول ما معناه: "إن ميوعة الشباب العربي مشكلة عامة يجب أن ندقق فيها النظر.. إنه يعرض عن كل القيم المثالية، منهمك فيما يعود عليه بالضرر.. فهل من سبيل لعلاج هذا الداء؟."

والموضوع في رأيي ذو شقين.. شق يتعلق بفتنة الشباب بـ (الموضات).. وشق يتعلق بما يستهويه من محدثات تعود عليه بالضرر.

فإذا نحن أردنا أن نبحث أمر (الموضات) اختلط علينا أمرها، وربما تعذر الفصل بين الحسن والرديء منها، فيحسن بنا قبل أن نتعمق في أمر (الموضات) أن نتعرف على علاقتها بالحياة!!

من المسلَّم به أن الإنسان منذ وجد على الأرض بدأ يخترع لنفسه قيماً اجتماعية ويعطيها مركز التقدير من نفسه. كما أن من المسلَّم به أن جميع ما تعارف عليه من قيم غير ثابت.. فهو يخضع على الدوام لحركة مستمرة من التغيير والتبديل.

ولتقريب الأمر لا نريد أن نبعد كثيراً.. فنحن من خمسين عاماً أدركنا القيم الاجتماعية تفرض على الحلاق حلق رأسك بموسه ليبدو ناعماً لا أثر فيه لشعرة واحدة.. وأدركنا الحزام يمسك وسط الرجل كشرط للرجولة فيما تعارفت عليه القيم الاجتماعية.. وأدركنا ساعة اليد كأسلوب من الميوعة تنبذه القيم الاجتماعية.. بل وأدركنا جيلاً كان يناضل في سبيل هذه القيم وينقد في حماس وحرد أي عبث بها، فماذا حدث؟

أبت الحياة إلاّ أن تسير سيرتها فتمضي خاضعة لسننها في تغيير الأنماط وتبديلها، فإذا نحن ننبذ الحلاقة الناعمة في الرأس، ونستهين بالحزام كرمز للرجولة فنقصيه عن خصورنا، ونعطي الساعة في معصم اليد قيمة اجتماعية لا تتفق مع ذلك الحرد الذي واجهته يوم سمّيناها ميوعة واعتبرناها عبثاً بالأخلاق.

هذه أمثلة لا يميزها عن غيرها إلاّ أنها كانت قريبة المتناول نستطيع أن نقيس عليها مئات من أمثالها.

وهي أمثلة تستطيع أن تثبت لنا أن قيم الحياة لا تستقر على ثبات.. وأن كل قيمة جدت على وجه الأرض من يوم خلقت الأرض كانت يوم جدتها (موضة)، وكان في الميدان من أصحاب القيم مَن يستنكرها في حماس وحرد.. ثم ما لبثت هذه (الموضات) أن أخذت مع الأيام دورها في الصدارة بين القيم المثالية لينشأ عليها مَن يغضب لتغييرها وربما سُمّي العبث بها ميوعة، وسُمّي الخروج عنها إلى أي (موضة) خروجاً عن القيم الاجتماعية.

لا أريد بهذا أن أحبذ كل أعمال الشباب و (موضاتهم)، ولكني أريد أن أقول إنه يتعين علينا أن ندقق بين الجديد الذي خضع لسنن التغيير والتبديل كما خضع أمثاله في سائر الأجيال قبله، وبين الرديء الذي يتعين أن نحلل نوع رداءته ومبلغ ما يستحقه من مقت؛ لئلا نفسر غيرنا على مثلنا الخاصة وقد خلقوا لغير زماننا.. فإلى عدد قادم.

-2-

قلتُ في كلمتي السابقة إنني لا أحبذ كل جديد افتتن به الشباب، وإنني أرى أنه يتعين علينا أن ندقق بين الجديد الذي خضع للتغيير والتبديل كما خضع أمثاله في سائر الأجيال قبله، وبين الرديء الذي نستطيع أن نحلل نوع رداءته.

وأريد أن أقول اليوم إنه مر بنا عهد كان ضعيف النظر لا يجرؤ على لبس النظارة؛ لأنها شيء مقيت مائع في نظر القيم الاجتماعية يومها.

وإذا عرفنا اليوم أن علم الطب يوصي باستعمال النظارة عند أول بادرة تشعر فيها بضعف مهما كان بسيطاً في نظرك لتتلافى استمرار الضعف، ظهر لنا إلى أي حد كانت القيم الاجتماعية تتسرع في مقت النظارة كشيء جديد وتفرض فيها معنى الميوعة بتأبط "شراً."

وأذكر أني في أول عهدي بالشباب لبست الساعة في معصم يدي أول ما لبستها وكان وضعها جديداً علينا، فسخر بي شخص كان من أشد المحافظين على ما تعارف عليه الناس من قيم وراح يمسّـــخني بكلمات تعافها الأذن إلى أن قال لي: وما يمنعك أن تلبســـها في رجلك؟!

ولكني وجدتني لأول مرة أجرؤ على مجابهته في عناد، وأشير إلى الساعة التي كان ينيطها بشـــريط من فتل الحرير إلى جيده، ثم يجمعها في (عياقة) إلى جيبه وأنا أقول: لا يجب أن تنســى أن أجيالاً كانت قبلك تنظر إلى طريقتك هذه في اتخاذ الســاعة.. بل إلى الســاعة نفســها نظرها إلى حدث ممقوت تســتنكره القيم الاجتماعية، حتى إذا نشـأت أنت كانت سنة الحياة قد استطاعت أن تلاشـي تلك النظرة، وأن تهيئ السـاعة وأسـلوبك في لبسـها للصـــدارة بين القيم ذات المثال الاجتماعي. فأنت اليوم تعتز بما نشـــأت عليه من القيم، وتدافع عنها في غضب وفي دفاعك عنها دفاع عن ذاتك ثم تنسى في الوقت نفسه أن ما تدافع عنه كان مقتاً عند من سـبقك، ثم تأبى إلاّ أن تجرحني لما جد عندي ولا تدري أن ما تجرحني به سيغدو في أحد الأيام وقد احتل مركزه محترماً بين ما تتعارف عليه القيم.

قدمت كل هذا لأقول: "ليســت كل (موضــة) ميوعة، وليس كل جديد على القيم التي تعارف عليها جيل سابق يصح أن يستحق مقتنا أو ازدراءنا."

إننا بهذا نحاول أن نعرقل عجلة الحياة في ســيرها.. وهي محاولة عابثة ربما أســلمتنا إلى دواليب العجلة لتدوسنا دون أن تتوقف العجلة لحظة عن السير.

ليس من حقنا أن نجعل جميع القيم الاجتماعية التي تعارف جيلنا عليها مقياسـاً لكل ما جد على الشباب من (موضـات)، فنأمرهم أن يحلقوا رؤوسـهم ناعمة بالموسى أو نسـميهم مائعين.

علينا أن نحقق ما نمقته فلا نخلط بين ما نكرهه لبعده عما تواضـــعنا وبين آخر نكرهه لعلّه ثبتت رداءته!!

إننا ونحن نفعل هذا نعلِّم الشاب كيف يقدر تمييزنا وسعة آفاق الفهم عندنا.. كما نعلِّمه كيف يحترم آراءنا ولا يستهين بها فيعصيها ويتمرد عليها.

علينا إذا أردنا التوجيه الصحيح أن نقتصد جهد الإمكان في أوامرنا فنقصرها على الرديء، ولا نتعرض (لموضاتهم) ونتعصب ضدها لمجرد أنها (موضات) لا تقول بها قيمنا الاجتماعية في جيل سابق.

عزيزي الصديق

عشتُ.. وعاشت لي سطحيتك، فلا شيء ألذ من الغباوة التي تتمتع بها إلى جانب خفة روحك وسلامة نيتك.

لا يا صديقي.. لا تستعجل الحكم لصاحبك بهذه الميزات التي تتراءى أمامك في بعض ما يعامل به الناس.. كن حذراً ما استطعت قبل أن تحكم لي أو عليَّ فرضا الناس غاية لا تدرك.

نسيت أنه عبس وبسر يوم جاءته أم الصبايا ترجو نيله لمواصلة ابنها للدراسة.

ثق يا صاحبي أن الأخلاق العالية كثيراً ما تكون كياسة يفرضها الذكاء كضرورة من ضرورات النجاح.

ووعوده هذه التي تراها في أكثر المناسبات صادقة لا يكفي في شأنها أن تستغني بما رأيت منها، فثمة غيرك مئات جرّبوا ألواناً من مينه وبهتانه.. فهل يغر بك هذا لتتعلّم العمق أم تعيش كما عشت بادي الرأي، سعيداً بهذه الطيبة الحلوة التي حبّبتك إلى سائر مَن عرفوا غفلتك.

تعرف يا صديقي أنني أو إياك كثيراً ما نصدق أو نفي لأننا لا نملك إلاّ أن نصدق ونفي.. ترى هل تسمي هذا صدقاً نابعاً من الطبع؟

وهل تعرف أنني أو إياك كثيراً ما نتحاشى السيئة ونترفع عنها لأن بعض ملابساتنا أو ظروفنا الاجتماعية تفرض علينا سمتاً خاصاً.. ترى هل تُسمى هذه فضائل أصيلة؟

وهل تعرف أنني أو إياك ربما طرقنا بعض دروب الحياة في نزاهة مطلقة!! لأنه كان ينقصنا كثير من براعة غيرنا.. ترى هل تُسمّي هذه ميزة كريمة.

لا أريد أن أقول لك إن كل ما في الحياة بهتان، ففي هذا افتئات على النبيين والصدِّيقين والصالحين –وقليل ما هم.

أريد أن أقول لك: لا تستعجل الحكم قبل أن تتعمّق.. ولا تتزعم الرأي في هذه الحياة أو تسلم به قبل أن تقلب الأمور على سائر وجوهها.. وإن أبيت إلاّ أن تعيش لسلامة نيتك.. فهلم.

هلمّ يا صديقي.. وخذ سببك إلى أعلى جبل في صعيدك لتعيش مع أحلامك الناعسة وأوهامك اللذيذة.

لا تنسَ يا صديقي أن صاحبك يبدو شهماً عالي المروءة في بعض مواقفه وينسى كل هذا في مواقف أخرى.. فهل تظنه كان فاضلاً فيما بدا من شهامته أو خسيساً في موقفه الآخر.

أبداً.. فقد كان يخدم ذاته في الأولى كما يخدمها في الثانية.. إنه ذكي طويل المراس يعرف كيف يملك ناصيتك بمروءته إذا دعا داعيها.. كما يعرف كيف يؤيد ذاتيته بصلفه إذا قضت بذلك الضرورة.

تحسبني بعد هذا أريدك لتتنكر لما يبدو من إحسانه أو تكفر به يوم يخطئ ظنك فيه.

لا فلست عليه بوكيل، والحياة ذكاء.. حسبك أن تتولى نفسك فلا تنساق وراء كل بادرة فتحكم لها أو عليها، فذلك شأن البدائيين.. تعمّق وانس طيبة البله.. ولكن إلى قدر.. لئلا تفقد كل صداقاتك.

شبابنا في حقل التعليم

كتب الدكتور عبد الله مناع في جريدة "البلاد" ينعى عدم إقبال خريجي الجامعات على الوظائف التعليمية، ويعلل ذلك بقلة المزايا التي يحظى بها الموظف كأستاذ في إحدى مدارسنا، وضخامة العمل الذي لا يتكافأ مع المرتبات وامتداده إلى ساعات المساء وما يرهق هذه الساعات من أعمال التحضير والتصحيح.

إلى أن يقول "وقد نجم عن هذا أن وجدت الوزارة نفسها وبدافع الحاجة الملحّة مضطرة إلى أن ترتبط بعقود مع مدرسين من خارج المملكة بشروط عالية في كثير من الأحيان."

ولم يقل الدكتور لنا صراحة.. هل يرى شبابنا مخطئاً وهو يتحاشى وظائف التدريس.. وإن كان في تلميحه ما يدل على رأيه عندما يقول: "إن واقعية التفكير في يومنا هذا لم تعد تكتفي بأن تلوك المثاليات دون رحيق لها."

وإذا كان لي ما أعلق به على ما ذهب إليه فإني أرى أن واقعية التفكير لا تلوك المثاليات دون رحيق لا من يومنا هذا فقط، بل هي حقيقة الحياة من أول يوم خلقت فيه الحياة.

إنه خير من يعرف أن مناصب التدريس عاشت مزدهرة يوم كان المدرس يتألق في منصبه، وكانت أكثر أعمال الدولة لا تداني منصبه ولا ينالها من شهد الرحيق ما يناله.

أنا –يا دكتور– أحد الذين يرون أن الإنسان هو الإنسان.. وأنه عاش حياته على الأرض ينظر إلى المثاليات في ضوء ما يحقق لنفسه إلاّ إذا صادفنا بعض النوادر وليس للنوادر حكم.

لعلّك لا تدري أني زاولت وظيفة معلّم قبل ثلاثين سنة، ولا أكتمك إني كنت ضائقاً بها أنتظر فرصة الهرب حتى واتتني.. ولم أهرب وحدي فقد هرب قبلي وبعدي عشرات

وعشرات لو اتسع المجال لسردتُ لك أسماءهم؛ لتعرف أنهم أكفأ مني بما لا يدع مجالاً للشك، وأن هروبهم كان خسارة لا تعدلها خسارة.

أنت تعرف أن أكثر وظائف التدريس لا في بلادنا وحدها بل في أكثر بلاد الشرق تعيش مغموطة خارج الهالة التي تتألق فيها المناصب المرموقة.. هذا عدا ضخامة العمل الذي قلت بحق إنه لا يتكافأ مع العطاء الذي يقدمه المرتب.

ومن غريب الصدف أنني في الوقت الذي كنتُ أقرأ فيه كلمتك الهادفة تقع في يدي مجلة الثقافة الدمشقية لأقرأ فيها مقالاً دبّجه أستاذ من معلمي المدارس، وفيه يقول "التهذيب الروحي.. المستوى الفكري ملكك أيُّها المعلم.. وبيدك الوطن والمستقبل..". ولكن مهلاً.. دعني أضحك قليلاً ومن حقي أن أضحك لأني من قافلة المعلّمين.. إنها كلمات حلوة وصحيحة لمن كان بعيداً عن المهنة يمسك بيده منظاراً فيرى المعلم محاطاً بالاحترام.. يتكلم فيصمت الجميع.. يأمر فيطاع، أمّا كيف يعيش ذلك المعلم (فشيء آخر).

إلى أن يقول: كسل الولد يعود إليه، وبلادته هو سببها.. هو المسؤول عن العلاقة السيئة والرسوب.. وهي مسرح لتندر الطلبة، هذا يقلده وذاك يدبر له مقلباً، إلى أن يقول.. تمضي الأجيال ويصبح طفل اليوم حاكماً محترماً، أو قائداً عظيماً، أو تاجراً غنياً، أو سفيراً مرموقاً، والمعلم باقٍ في بيته الصغير."!!

أرأيت –يا دكتور– أي معاناة يلقاها المعلم في منصبه؟

وبعد فهل تبحث عن الحل؟؟

لقد نوّهت به وأنت تذكر الشروط العالية التي يشترطها أصحاب العقود من المعلمين خارج المملكة، والمرتب الذي يصل أحياناً إلى أضعاف مرتبات المعلّمين الوطنيين.

لندفع مثل هذا للمدرسين عندنا وننظر ماذا يفعلون!!

تعبت أقدامه!..

كتب إليَّ أحدهم مرة يقول:

"إنني شاب كفيف البصر، تقدمتُ إلى مكتب الضمان الاجتماعي بجدة بتاريخ 82/10/15 أطلب إلحاقي بالمستحقين الذين يكفلهم مكتب الضمان بتعيين المساعدة لهم، ولكني إلى تاريخ خطابي هذا (85/1/19) لم أتلقَ إجابة على ما كتبت. لقد تعبت أقدامي وأنا أراجع المكتب في جدة ولا جواب عندهم، إلاّ أن معاملتي لا تزال في الرياض.. إني أرجو إليك عرض مأساتي للمسؤولين في وزارة العمل لعلّها تصادف قلوباً رحيمة فتبحث عن معاملتي التي ذهبت أدراج الرياح، وتعثرت بين مكاتب الموظفين."

إلى هنا تنتهي خلاصة الكتاب المطول الذي كتبه إليَّ الشاب محمد سعيد الفائدي كفيف البصر، ومنه يتبيّن أن معاملته مضى عليها أكثر من سنتين دون أن ينجز منها أو يتلقى عليها أي جواب. وهو ما نشكوه من مآسي الروتين إلى جانب قلة الأيدي العاملة في كثير من دوائرنا الرسمية.

على أنه لو كان لي رأي في مثل هذا الموضوع لطلبت إلى المختصين في وزارة العمل ألاّ يكتفوا بتعيين مساعدة شهرية لمثل هذا الشاب الكفيف، فإن إنساناً مثله يتمتع بنشاط الشباب يستطيع أن يفيد نفسه وبلاده بعشرات الحرف التي تهيئها الدولة ليعمل فيها أمثاله من المكفوفين.

أرى أنه يجب أن تربأ به الدولة عن أن يمد يده لإحسانها، فإحسانها يجب أن يكون وقفاً على الضعفاء الذين يعجزون عن مزاولة أي عمل يدر عليهم كسباً. أمّا كفيفو البصر الذين يتمتعون بحيوية الشباب فسبيلهم عند وزارة العمل أن تهيئ لهم مدارس مهنية لا تتعارض مع أبصارهم المكفوفة ليتعلموا ويعملوا بأيديهم ما يقيم أودهم ويغنيهم عن الحاجة.

على كل حال نحن نعرف أن وزارة العمل جديدة في ميدانها لم يمض على تأسيسها الوقت الكافي لأداء مهامها كاملة في سائر المجالات وكل ما نتمناه لها أن تتسع أمامها الفرص لتتوسع مجالاتها لسائر الخدمات العامة.

وإذا كانت إمكانياتها اليوم لا تزال محدودة فلا أقل من أن يتفضل كبار المسؤولين فيها بمساعدة عاجز كهذا كفيف البصر بالعمل على إنجاز أوراقه التي مضى عليها أكثر من سنتين دون أن يتلقى عنها جواباً شافياً.

إن وزير العمل بما عرف من حدب على الضعفاء هو أفضل من يستطيع إغاثة هذا المحتاج بأي وسيلة يراها نافعة.

حذارِ أيُّها الأدباء..

لا أدري لِمَ أميل دائماً إلى تصديق مَن ينقل إليَّ خبر أديب اختلط عليه عقله أو مسّه لون من الجنون رغم أني كثير الشك في أكثر ما ينقل إليَّ من أخبار الناس وأحوالهم وقد تعودت أن لا أقبلها إلاّ بعد تفحص وتدقيق ما يلابسها من قرائن..

أمّا قصة جنون الأديب –أي أديب– فتغزو عقلي دون استئذان وأحسبني لو تنبأ لي قارئ كف بأني سأختلط في أحد الأيام اختلاطاً يسلمني إلى الجنون لما تبادر لذهني أن أشك في نبوءته رغم أني تعوّدت أن أسخر في حياتي بكل محترفي قراءة الكف وحساب الطوالع.

لستُ أعني بهذا أني شعرت أو أشعر بأدنى خلل في عقلي.. لا.. فأنا واثق بأني أتمتع إلى اليوم بعقلية إن لم تكن ممتازة فهي موزونة إلى حد معقول..

ولكن يثير إشفاقي لا على نفسي بل على أكثر الأدباء، ومعذرة إلى أصحاب الرجاحة منهم.. أقول يثير إشفاقي على أكثرهم رهافة أحاسيسهم وسيولة عواطفهم وليس كالرهافة والسيولة ما يخل بالتوازن العقلي ويعبث بملكاته.

ولا يقتصر الأمر على هذا، فالملكات التي يتطرق إليها العبث لا تنفك قابلة للانطلاق وقد تمعن في انطلاقها حتى تعيش ويعيش صاحبها في ملكوت بعيد.. بعيد لا صلة له بملكوت الناس..

فإذا عثرت بأديب ساهم.. يعيش على هامش الناس.. يختلط بمجالسهم وهو في الوقت نفسه شارد عنها.. هائم في البعيد.. البعيد الذي لا يحده نطاق فاحمد الله على نعمة عقلك وأساله العافية لمن ترى!!..

وبعد.. أغريب بعد هذا أن نقرأ في جريدة (الجزيرة) أن شاعرنا الرقيق المرهف (حمد الحجى) اختل توازنه، وعبثت سيولة عواطفه بملكاته العاقلة فانطلق يهيم في الملكوت

البعيد.. عن ملكوت الناس.. ورأى صبية الشوارع في هيامه فرصة للعبث فانطلقوا يجرون خلفه ليطفئوا آخر ذبالة من شعلة كانت تتوقد في تلافيف رأسه.

ترى هل أنعي على الأطفال فعلهم فأحرمهم لذة العبث وأنا أعرف أنه لا يلذ للطفل شيء ما يلذ له أن يعبث في مثل هذه الفرص لينتقم وهو لا يشعر لطفولته من الأجسام الكبيرة التي عودته الخضوع لما تفرض؟؟

أم أنعي على الكبار الذين تركوا أخاهم إلى اليوم لعبة يتقاذفها أطفال الشوارع دون أن يبادروا إلى انتشاله؟؟

لقد قرأت آخر ما قرأت أن سمو أمير الرياض أعلن استعداده لقبول التبرعات توطئة للإنفاق على علاجه.. وأنا مع تقديري لهذه الأريحية أرى أن يساهم الأدباء وأنا منهم في قائمة التبرعات لعلّهم يجدون في أحد الأيام من تسخو نفسه لمساعدتهم إذ قدر لأحدهم أن يختلط بتأثير هذا الشرود الذي لا ينفك يقصيهم عن دنيا الناس ويتركهم يهيمون في البعيد.. البعيد!!

وإذا كان لي من تعليق بعد هذا فهو أن أسأل وزارة الصحة ما يمنعها أن تتفضل فتتبنى الأمر.. ما يمنعها أن تحيل شاعرنا إلى إحدى المصحات العالمية ليعالج فيها على نفقتها؟!

صدَّاحة الغجر!!

في مؤتمر عقد في مدينة (سان ريو) درس موضوع الضوضاء وأثره على الإنسان. وقد مثل في هذا المؤتمر كثير من الدول منها سويسرا وبلجيكا وهولندا والدانمرك وإيطاليا والسويد والولايات المتحدة الأمريكية.

وقد وافق الأعضاء بإجماع الآراء على أن مشكلة الأصوات العنيفة أصبحت من أخطر الأمور في الحياة المدنية الحاضرة.

وقرروا أن الضوضاء والجلبة ترفع من ضغط الدم وتزيد في خطورة أمراض القلب والشرايين والمعدة، وتسبب الانهيار العصبي وحدة المزاج والأرق والاضطراب، وتضعف من حدة الذكاء، وتؤثر على العقل فتصيبه بالهذيان وتعرضه للجنون.

وهي إلى ذلك تسير بالمرء حثيثاً نحو الصمم بل إنها قد تقتله!

ولم يقتصر قرارهم على ضرورة علاج ما تحدثه أصوات القطارات والطيارات والسيارات من ضجيج وجلبة، بل أضافوا إلى ذلك أصوات العربات التي تجرها الخيل بل وحتى أصوات الأحذية الثقيلة التي يلبسها المارة وفي نعالها قطع حديدية.

فهل يسمع السائقون في بلادنا مبلغ الخطر الذي يتعرض له الناس بسبب هذه الأصوات العنيفة (صدَّاحة الغجر) التي يطربون لها ويتبارون في شدتها كلما ولجت سياراتهم بين الشوارع.

وهل يعلمون أن السائقين في كل بلاد أوروبا لا يبيحون لأنفسهم ضرب الأبواق مهما اشتد زحام الشوارع احتراماً للمارة والساكنين في حوافي الشوارع.

يقول سائق سيارتي، وهو يبدو لي مصارعاً في قبيلته قبل أن يهبط مدينتنا لهذا فأنا أخشى أن أطيل لجاجه، يقول هذا السائق إن المدن في أوروبا واسعة الشوارع فلا يجدون ما يضطرهم (لصدَّاحة الغجر)، وقد حاولته ليفهم أن شوارعهم على سعتها

مزدحمة بالسيارات كأشد ما يكون الزحام وأن الفرامل تحت أقدامهم هي المسؤولة وحدها عن سلامة السير.

قلت هذا وأكثر منه فلم يفهم إلى أن بلغه أن رجال المرور تتعقب (صدَّاحة الغجر) بنشاط، وأقسمت له في أني سأشهد ضده عند أول بادرة، فما عتم المسكين أن تضاءل وخبا في عينه لهب الصراع المتوقد ورضي أن يعالج بعض الأسلاك فخف الإزعاج أو كاد.

ليت المسؤولين في قلم المرور يطبعون المواد التي قررها مؤتمر مكافحة الضوضاء في مدينة (سان ريو) ويجعلونها في صفحة الزجاج المواجه لمقعد السائق بعد أن يقرأها عشرات المرات على الأميين منهم ليظل ذكر الأخطار عالقاً بأذهانهم كلما عنَّ لأصابعهم أن تعبث بجهاز (صدَّاحة الغجر).

كسوةالكعبة . . وأوقافها

قال لي أحد الحجاج وهو ينظر إلى كسوة الكعبة الجديدة: (إنني وأنا من رجال صناعة النسيج لا أكاد أصدق أن هذا العمل المتقن من صنع هذه البلاد).

قلت: على رسلك.. فالحياة ماضية بنا في طريقها الجاد.. وأخشى أن تفتح عينيك بعد سنوات فإذا الأرض غير الأرض، والأمة غير الأمة، وعند ذاك ستعرف مبلغ ما نستطيع تحقيقه كأمة جديدة على الحياة.. أمّا اليوم فإن كنت في ريب ممّا تشهد فدونك سيارتي أتطوعِ بها لتنقلك إلى مصنع الكسوة على غير بعيد منا لترى بعينيك مصدر صنعها!!

فما ملك أن وضع يده في يدي ليشد عليها بحرارة..

الواقع أن فكرة صنع الكسوة في مكة فكرة تستحق تقدير الحكومة، كما تستحق تقدير العاملين على إنتاجها بهذا الإتقان. وإذا صح ما صرح به بعض المختصين من أن المصنع سيتسع غداً لعدة صناعات لها علاقة بالنسيج فذلك ربح له قيمته في نهجنا الصناعي الذي ننويه لسنواتنا القادمة.

وتحفزني المناسبة لأن أسأل المعنيين في وزارة الحج والأوقاف هل دار بخلدهم أن يبحثوا عن أوقاف الكسوة التي كان ينفق من غلتها على صناعة الكسوة ومخصصات الغلال لفقراء الحرمين؟

أذكر أني كتبتُ قبل نحو عامين بحثاً طويلاً جئت فيه على أسماء القرى الموقوفة على أعمال الخير في الحرمين، وأوضحت مواقعها كما أشرت إلى بعض القرى التي تغيرت أسماؤها بمر السنين أو تحرّفت قاعدتها إلى أصولها. وتوجهت يومها في بحثي إلى مديرية الأوقاف عندنا قبل تشكيل الوزارة أسألها هل ثبتت لديها أسماء هذه القرى ومواقعها فتلقيت من سعادة مديرها في ذلك الوقت فضيلة السيد أحمد العربي ما يفيدني بأن مديرية الأوقاف تحققت عن هذه الأسماء وعرفتها وهي في سبيل مطالبتها بها..

ويهمني اليوم وقد مضى نحو سنتين على ما كتبت أن أسأل وزارة الحج والأوقاف عمّا إذا كانت سجلاتها لا تزال تحتفظ بأسماء هذه القرى وهل جد شيء في شأن المطالبة بحقوق الحرمين فيها؟

ثم.. ما يمنعنا أن نطالب بإعادة القرى الموقوفة والاستفادة من غلتها لصالح صناديق الرعاية الاجتماعية في مكة والمدينة وهي اليوم تعول فقراء المدينتين، وتدفع لألوف العائلات الفقيرة مخصصات شهرية؟ وأعتقد أن أحداً لا يضن على هذا البلد بحقوقه الشرعية خصوصاً إذا عرف أن ثمة إدارة للشؤون الاجتماعية تتولى رعاية المتسولين ومساعدة الفقراء.

إلى شبابنا الجامعي

-1-

أرى من الغريب جداً أن أقلام الرعيل الأول والثاني من أدبائنا لا تزال تصول بين أعمدة الصحف كما كانت تصول قبل ربع قرن، ولكني لا أرى لشبابنا الجديد إلاّ بعض الأثر الذي لا يتكافأ مع هذا العدد الهائل الذي تهديه إلينا الجامعات في مطلع كل عام.

لست أغمط هذا النفر العامل من شبابنا الجامعي والذي تصافحنا بحوثه الممتازة في كثير من صحفنا ولكني مع هذا لا أرى فيه ما يكفي.

ذلك لأن نسبة مَن نقرأ لهم من الكتّاب الجامعيين المجيدين إذا قيس بالعدد الهائل من المتخرجين ظهر أننا ما فتئنا مظلومين لم نستوفِ حقوقنا عندهم ولم نربح إلى اليوم ما كنا نؤمل ربحه يوم أسلمناهم إلى الجامعات عبر البحار وبتنا نقاسي آباءً وأمهاتٍ مضض الفراق وآلامه.

لقد كان آباؤنا قبل اليوم يهيئون أبناءهم في سن الفتوة ليشاركوهم فيما يمتهنون ثم يضطلعون دونهم بكامل المسؤولية ليتقاعد الأب هادئاً، وفي ذلك لون من الخدمات العامة لا أشك فيه.. ولكننا اليوم بتنا محرومين كآباء من معونة شراكة أبنائنا ولذتها فاحتسبنا هذا براً بهم وخدمة لبلادنا.

لماذا نحتسب كل هذا؟؟

أفي سبيل أن يربحوا الكراسي ويتصدروا المكاتب وينعموا ببسطة العيش في ظل رواتب محترمة ولا أكثر؟؟

إنا إذا كنا قد فقدنا مساهمتهم فيما نحترف فإن بلادنا تفتقدهم في سائر المجالات التي عاشت تنتظرهم من أجلها.

نريدهم ليبرزوا أمامنا في ســـائر الخدمات العامة.. نريدهم ليعالجوا قضـــايانا بروح الشـــاب الفاهم الذي أهلته ثقافته العالية لأن يقود مجتمعاتنا إلى مســـالك الحياة الصحيحة.

حضـرتُ من أيام حفل زواج في بيت يضـم بين أفراده أكثر من شـاب من أصـحاب الثقافات العالية، فهالني أن يتنطع الحفل ليبدو في زينة من لا يكترث لتبذير أو ســـرف ولا يحســـب حســـاباً لقيمة ما ينفق في ترهات تقليدية فعلمت أنها أفعال قادها عجائز البيت من عمات أو خالات أو جدات على رغم ممانعة شباب البيت المثقف. فأسفت لهذا الدور القيادي الذي ظل الجيل من أمثالي مســيطراً عليه بأفكاره التقليدية دون أن يجرؤ الشـــباب الجديد على تحويله أو توجيهه أو صـــبغه بأي لون يترك أثره في حياتنا العامة.

-2-

كنتُ قد تحدثت عن حفل الزواج الذي شـــهدت فيه الدور القيادي في متناول العجائز والذي عجز الشباب أن يتناولوه بتوجيهاتهم أو يطبعوه بأثر من ثقافتهم.

وجئت اليوم لأناقش المطمئنين لكراسيهم من شبابنا وشاباتنا.

وصـــدقوني إذا قلت إني أصـــافحهم بكلمتي وأنا واجف القلب، ففي بعض أيديهم أقلام مرهفة، وبين صـــفوفهم أفراس إذا أثيرت عقد الغبار رواقه القاتم وأظلم ما بين الأفق إلى الأفق.. وتلك ميادين نشأت أكرهها وتعودت أن أنفض ثيابي منها.

ولكن لا عليَّ.. فإن أصـحاب الأقلام المرهفة، والغبار المثار تعودنا جولاتهم في كثير من البحوث النافعة، فبات نقاشـي لا يعنيهم.. وإنما هو يعني المطمئنين إلى كراسـيهم.. وهم قوم لا يتكلفون ما يرهق أقلامهم أو يتعبها.

إلى هؤلاء أريد أن أتوجه بكلمتي فقد أنفقنا الكثير والكثير جداً، وجالدنا طويلاً وطويلاً جداً وباتت مجتمعاتنا تنتظر أن يعود الغائبون ليبثوا ثقافتهم ويوحوا إليهم

بالكثير الذي يقضـــي على ترهاتهم التقليدية ويتولوا قيادهم إلى الطرق الســـليمة التي تنتهجها الأمم الحية إلى غاياتها في الحياة.

لقد طال هجوعنا واســـتكانت مجتمعاتنا بمرور الأجيال إلى تقاليد أورثتنا ألواناً من التخلّف جمدنا عليها وبتنا نستلهمها في كثير من مقدرات حياتنا.

فإذا استبشرنا اليوم بهذه اليقظة الجديدة التي بدأ التعليم يبني أساساتها ويهدينا نحو الجديد لتدعيم ركائزنا، فليس معنى هذا أن تنســـى الركائز وظائفها في البناء الجديد وتعيش على الهامش هانئة بما ظفرت لنفسها من شهادات خولتها الحياة الناعمة.

إن أكثر اختصـاصـاتهم العالية لا نفقه من دقائقها إلاّ النذر وبلادنا في أشـد الحاجة إلى توعية عامة تتفتق لها الأذهان لتستجيب لما تفهمه من معانيها وتستطيع أن تساير القافلة في أحدث خطواتها.

يجب أن نقرأ لكل صـاحب اختصـاص من شـبابنا فيضـاً من البحوث في سـلسـلة متصلة الحلقات، فهم قبلنا مسؤولون عن التوعية العامة.

يجب أن تكون لهم نوادٍ عامة تفتح أبوابها لكل متعطش يتمنى أن يستمع إلى آخر ما أحدثه العلم من أفكار معزز بالخرائط التوضيحية أو شاشة الفانوس السحري.

يجب أن يعتمد الشاب الجامعي نفسه مندوباً ثقافياً في عائلته وأهله وسكان حيّه من الجيران ليترك طابعه في أذواقهم ويهيئهم لفهم الحياة على غير النحو الذي عاشـــوا يألفونه.

لا نريد قشـوراً لامعة مما شـاع لونه بين بعض الشـباب الصـفيق في أوروبا، وأمريكا فوقتنا أضـيق من أن يتسـع لمثل هذه السـماجة، وحاجتنا أشـد إلى أن نتأسـى بالبناة الذين أقاموا الصروح وشيدوا الأمجاد.

لعلّهم يعلنون عن أوقات الهدم!

يسألني وفي محيّاه يلوح معنى القلق: "هل تراهم سيهدمون الدكاكين التي نسكنها؟."

قلت: وأيّ دكاكين تعني؟

قال: أعني الدكاكين القائمة على حافة الميدان الكبير.

واستطرد: كان المعروف أن الهدميات في العام الماضي استوفت مساحتها المطلوبة للميدان. وكنت شخصياً أسكن من سنوات دكاناً في الشامية أدركه الهدم فآليت أن لا أنتقل إلى دكان جديد إلاّ إذا استقر عندي أنه بعيد عن الهدم.. ولهذا انتظرت حتى تم هدم المساحة المطلوبة للميدان أمام باب أجياد، فاستخرت الله وسكنت أحد الدكاكين القائمة على حافته وأنا مطمئن لما انتهى إليه استقراري.

ولكن ما كدتُ أقضي بضعة شهور حتى شاهدت بعض المهندسين يقيسون عرض الأرض التي تقوم عليها الدكاكين بجواري فرحت أسألهم: هل تقرر هنا هدم جديد؟ فما زاد كبيرهم على أن ضحك ثم ولاني ظهره.

وسألت بعده أكثر من واحد كانوا يترددون على استئناف ما يقيسون فلم أجد عند أحدهم إلاّ كلمة: لا أدري.

وتفضل واحد منهم فقال: يا صاحبي نحن مأمورون بضبط مقاسات مطلوبة ولكننا لا نعرف ماذا يراد بها.

وما إن انتهى الحائر في أمر دكانه عند هذا حتى تجلّت أمارات الارتباك والقلق في محياه بصورة أوضح وهو يقول: والآن وقد أهلت السنة الجديدة فإن مالك الدكان يطالبني أن أدفع إليه أجرة الدكان أو أتخلى عنه ليوجهه إلى غيري.

وقد حاولته لينتظر أياماً عسى أن يتكشف الأمر بإعلان في جريدة أو خبر موثوق يذاع ولكنه يأبى إلاّ أن أدفع أو أتحول عن ملكه.

قلت: وما يمنعك أن تدفع.. حتى إذا صح موضوع الهدم باتت حقوقك مضمونة تستطيع أن تستوفيها بطريق مشروع؟

قال: يمنعني من هذا أمران: أولهما موضوع بضاعتي فهي موسمية لا رواج لها إلاّ مدة الموسم، فلو أشغلت الدكان لشهرين قبل الهدم تعين عليَّ دفع أجرة الشهرين دون أية فائدة أنالها من الدكان في غضون الشهرين.. فما بالك إذا طالت المدة إلى أكثر من هذا!؟

الأمر الثاني وهو الأهم أنني استطعت بعد جهد بالغ أن أوفر ما يكفي لأجرة الدكان، فإذا دفعته اليوم وأنا أعرف أن صاحب الملك لا يملك من الدكان إلاّ ما يوازي سدسه، وأنه سيوزع الباقي على ورثة مستحقين فمن أين لي أن أسترد ما دفعت.. إنني سأفقد حصيلتي وسأعجز عن استردادها إلاّ بعد لأي طويل أعيش أثناءها طريداً بلا دكان.

استمعتُ إليه وأنا أحس بأثر مأساته في جوانب نفسي أليمة ممضة.. ورأيتني أتساءل: لماذا لا ينظم المسؤولون عن التوسعة برامجهم في وقت سابق عن إهلال العام حتى إذا أهل أعلنوها واضحة كما فعلوا في هدميات القبان.

إنهم دون شك يعرفون أن أكثر دكاكين وسط البلدة لا يستفيد أصحابها إلاّ من رواج الموسم فإذا دفعوا أجرتها وأشغلوها بعض شهور العام ثم أخلوها خسروا قيمة ما دفعوه لشهور لا يستفيدون منها.

إني أتمنى إليهم وهم على أبواب عام جديد أن يعلنوا عن سائر الجهات التي ينوون هدمها قبل أن تعقد أجورها فيتعرض المستأجرون والملاك لمشاكل لا يحتملون وطأتها.

ألا نعمل شيئاً . . من أجل الطوافة

نشرت في عام 1371هـ عندما كانت شكاوى المطوفين لا حدود لها

مما يلفت النظر في شؤون المطوفين أن الأغلبية الساحقة باتت تحس بفداحة ما تلاقي بسبب النظام العتيق الذي ورثته الطوافة من عهود كان يسود فيها الشقدف والجمل.. حتى المحافظين منهم، وكانوا يقدسون ما ألفوا بدأوا يشعرون بعظم الهوة التي تتردى فيها مهنتهم بين عام وآخر.

وليس من شك في أن مشكلة المشاكل التي تعانيها المهنة في سنواتها الأخيرة هي موضوع السمسرة التي بدأت أول ما بدأت كشيء لا يعتد به في صورة هدية أو منحة، ثم ما لبثت أن تطورت عاماً بعد آخر حتى تفاقم أمرها وأصبحت تستنزف جزءاً هاماً من موارد المطوفين، كما أصبحت أمراً لازباً لا يقوم للمطوّف شأن بدونها، وأصبح الناس يشاهدون أقطاراً بكاملها تكاد أن تكون وقفاً على بعض المطوفين كنتيجة لسخاء أيديهم وحسن علاقتهم بالسماسرة. ومع ذلك فالأمر لا يزال قابلاً للتطوير وسينشأ في أعقابه بارعون يسبقون إلى بذل أكبر ويحسنون ترضية السماسرة بشكل أفضل حتى يأتي البذل والفضل على باقي أرباح المطوّف.

وأنا شخصياً لا ألوم المقدام على شجاعته أو براعته في الاتصال والبذل ما دام الميدان أمامه مباحاً لمن يثبت شجاعته وما دام الأمر متروكاً لقاعدة: (الجيدة تفوز براعيها).

ليس من حقنا أن نلوم أحداً ما دام أمر السمسرة أصبح واضحاً وضوح الشمس، ولم يبقَ للسمسار إلاّ أن يتقدم إلى المعنيين ليطالب بحقوقه رسمياً دون أن يغضب المعنيون أو يحاولوا تغيير شيء..

ولو كان السمسار وطنياً من بلادنا لهان الأمر.. بل لما وجدنا مبرراً للشكوى فما فات على أحدنا دخل إلى جيب أخيه، وهو على عمومه لم يتجاوز حدود بلادنا، ولكن

الأمر أبعد من هذا.. فنحن بما نبذل للأجنبي نبدد ثروتنا القومية ونقضـي من حيث لا نشعر على جزء هام من اقتصاديات بلادنا.

وأغرب ما يروعك في الأمر أنه ما من عاقل يهمه أمر الطوافة من أصـحاب العلاقة أو الاختصاص الرسمي، إلاّ وقد وقر في نفسه مدى ما تعانيه الطوافة وما تنزلق فيه عاماً بعد آخر ومع هذا لم يتغير شيء.

ما أغنى البحوث التي كتبت في هذا، وما أعظم الاجتماعات التي عقدت من أجله، وما أطول الجلسات التي درست تفاصيله وما أكثر الاقتراحات التي تقدمت في سبيله ومع هذا لم يتغير شيء!

أعتقد أن في هذا ما يكفي لحفز همم المسـؤولين عن مسـتقبل الطوافة كما أعتقد أن فيما عاناه المطوفون في موسمهم هذا ما يثير حماسهم ويدفعهم إلى العمل الجاد الحاسم

رُبَّ ذِكرى!!..

لعلّ شـبابنا الجديد لا يعرف الكثير عن الحيوية التي كنا نعيشـها في عهد شـبابنا قبلهم.

لم يكن بيننا صـاحب شـهادة عالية أو خريج جامعة، ومع هذا فقد كنا نشـعر أن بلادنا تخطو إلى شيء جديد، وأنه يتعين علينا كشباب أن نبرز في إطار يصافح العيون المتطلعة إلينا.

كانت لنا اجتماعات شبه دورية لا نقضيها في لعب الورق وشرب الشاي فقط بل كنا نتداول أثناءها الكثير ممّا يفيد بلادنا.

لا أدّعي أننا صـنعنا كل ما يجب أن نصـنعه لبلادنا ولكنها على العموم كانت اجتماعات حيوية استطعنا في تضاعيفها أن نصدر كتاب (وحي الصحراء) كمجموعة تدل على أولى خطواتنا في الأدب الجديد.

وكان إلى جانبنا طائفة من الناشئة يحلو لها أن تترسم خطانا.. كان فيها الإخوان عبد الله عريف وهاشم الزواوي وحسين عرب وعبد الله بلخير وعلي فدعق وكثير من أمثالهم يتمتعون بما لا يقل عن خبرتنا. وكانت لهم اجتماعات هي الأخرى شبه دورية يتبادلون فيها كثيراً من الآراء وربما تباروا على منبر الخطابة في نطاق تهيمن عليه نزعة الأدب الذي شاعت لوثته في ذلك العهد بشكل متطرف.

واستطاعت الطائفتان أن تثبتا وجودهما في أكثر من فكرة.

فقد تراءى لنا نحن جماعة الشـباب أن نحتفل في منى في كل عام بكبار الحجاج فندعوهم باسم الشباب ونتبارى في الترحيب بهم ثم نترك لهم المنبر ليشنفونا بما نطرب لسماعه من خطبائهم. وكانت طائفة الناشئة تساعدنا في كل هذه الحركات، كما كان أصحاب المعالي الشيخ عبد السليمان والشيخ محمد سرور يعضدانا مادياً في كل أعمالنا. ثم نسينا الفكرة بعد عدة سنوات وأخنى الزمان عليها.

وعندما أقبلت أول بعثة أتمت تدريبها على الطيران في إيطاليا قررنا نحن الشباب تكوين جمعية سمّيناها جمعية تشجيع الطيران تولت استقبال العائدين إلى جدة في ضجة قامت لها جدة وقعدت ثم أعلنا في الصحيفة التي كنا نملكها يومئذٍ وهي "صوت الحجاز" أعلنا استقبالاً أهلياً في جرول فضجت مكة للاستقبال ثم قدمنا إليهم السيارات المكشوفة لتنقلهم إلى داخل مكة بين الهتاف العالي بحياة الشباب.

ولم نكتفِ بهذا بل كوّنا لجاناً تطوف بالموسرين لتجمع تبرعاتهم لنشتري بقيمتها طائرة تقدم هدية باسم شباب مكة، فقد كان شباب مكة يومها من أبرز الشباب في المملكة إذا صح ما فهمت.

وأذكره بمناسبة العيد في الأسبوع الفائت أننا كنا بحثنا موضوع تقليد الحلوى التي تقدمها بيوتنا في أيام العيد واتفقنا يومها على قرار يقضي بالدعوة إلى إلغاء تقديم الحلوى وأن نستعيض عنها بالتمر الفاخر تشجيعاً لإنتاج بلادنا فتولت أقلامنا حملة صارخة في سبيل الفكرة وشكلنا في ما بيننا لجنة استوردت التمر وعرضته للبيع فنجحت الحملة إلى حد لا بأس به وقدّم كثير من بيوتنا التمر بدل الحلوى في ذلك العام، ولكن ما لبثت الفكرة أن تضاءلت بعدها بمساعي بعض الشطار.

وطلعنا بفكرة (مشروع القرش) وتحمسنا له وتوزعنا العمل في سبيله وساعدنا عليه كثير من ناشئتنا فجمعنا مبالغ لا بأس بها في موسمه الأول، ولكن الفكرة ما لبثت أن تضاءلت العام الثاني ثم نسيت في العام الذي بعده. وأذكر أن ما جمع كان محجوزاً في شركة التوفير والاقتصاد التي لا نعرف ماذا تم في شأنها.

إنها ذكريات لعلّ من الخير أن يذكرها شبابنا الجديد المثقف على سبيل المقارنة كلما تهيأت له خطوة جديدة يخدم بها بلاده.

إربأ بنفسك!..

يعجبك في بعض قبائلنا هذا التوثب الحركي في أسـواقنا رغم فقرهم وشـدة حاجتهم وقلة ما يتداولونه كرأسمال لأعمالهم.

فهذه قبائل حرب على مختلف فخوذها اختلطت بكثير من أعمالنا ونسـيت حياة السبهلل لا التي كانت تعيشها في وديانها المقفرة بين لحاف الجبال وشِعابها كما نسيت الفروسية الضالة التي كانت تواجه بها الحجاج بين الدروب والمسالك.

نسـيت كل هذا وهي تعمل اليوم في مجالي الحدادة والسـباكة والكهرباء كما يعمل فريق منهم في الخطوط الحديدية بين الدمام والرياض. وهم إلى جانب هذا يزاحمون أهم أسواق المدن الكبيرة بما يتجولون به من بضائع عديدة الأصناف.

وهذه قبائل الحجاز وعسير لا يقل نشاطها الحركي عن نشاط قبائل حرب. فقبيلة غامد تعلمت كيف تحترم كسـبها الصـغير وتنميه بشـكل حاذق.. فمنهم اليوم تجار يزاولون عشـرات المهن في المدن الكبيرة ومنهم ملاّك سـيارات يسـيِّرونها بين قراهم ومختلف طرق المملكة من الأطراف إلى الأطراف ومنهم ملاّك عقارات وأصـحاب مقاهٍ وبساتين، وإذا أردت التجاوز ففي استطاعتك أن تقول مثل هذا أو ما يقرب منه عن أكثر القبائل في الحجاز وعسير وضواحي الطائف. ولا تنسى قبائل الشمال من جهينة إلى بِلي إلى كثير من الفخوذ المجاورة فأكثرهم عمليون قلَّ أن تجد من يحترف التسوّل أو يستعطي لقمة العيش.

ولكنك لا تجد هذا النشـاط بارزاً في بعض قبائل الجنوب بين جدة إلى الليث إلى القنفذة إلى حَلِي، فثمة فخوذ لا أريد أن أسمّيها غفلت عن كثير من أبواب الكسـب واستمرأت المسكنة وذل الاستجداء.

اللَّهم إن هذا لا يرضـيك، فشـهامة العربي وشممه وإباؤه لا تزال تلوح فوق جباههم المتغضنة رغم جميع الطوارئ التي تعرضوا لها.

إن ممّا يحز في النفس ويؤلمها جِدَّ الإيلام أن بلادهم لا تكاد تأزم لأي عارض سماوي أو أرضـــي حتى يتســـللوا إلى أقرب مدينة لهم أفواجاً تتلوها أفواج يتبعهم أطفالهم ونساؤهم يصافحون الناس في مسكنة ويمدون أيديهم لطلب الإحسان لا فرق عندهم بين شاب صحيح البنية أو فتاة قادرة على العمل في بيوت المدينة.

أســـأل الله أن يغفر لي بقدر ما تعرضـــت لهم، فهذا كبير العائلة يقف أمامي في بزته النظيفة ولحيته السـوداء التي تشـعرك بصـباه تتبعه امرأة لا تقل عنه نشـاطاً وصـبية لا يتجاوزون المراهقة.. إنه يســتجديني لعائلته التي هبطت من توها فيحتدم غيظي: "إنك يا صاحبي قادر على العمل.. وهذه الشابة صالحة للخدمة في بيوت الموسرين.. كما أن صـــبيتك تحتاجهم كل هذه الدكاكين والبيوت في أعمالها.. فما يمنعك أن تشـــمر وأن تبحث عما يليق بك وبهم من أعمال.. إن البلاد يا صاح في أشد الحاجة إلى الخدمات في البيوت والخادمين في ســـائر الأعمال، وأنت إذا أعجزتك الحيل لنفســـك ففي اســـتطاعتك العمل في عمران البيوت.. أنت ترى هؤلاء اليمنيين جيرانكم يتزاحمون في الأعمال عندنا.. وترى نســاء التكارنة يخدمن في أعمال الغســل والتنظيف في كثير من البيوت وهن مصونات فارباً بنفسك عن الامتهان وتمرن على الكسب من العمل."

أقول هذا وأكثر من هذا فلا يزيد عن أن يشـيح عني بوجه يتصـنع فيه ملامح الألم ليقول لي إننا.. مرضى..

مرضـى!.. هذه هي الكلمة التي حذقوها وهي منتهى ما عرفوه من حيل الحياة على الارتزاق.

أتمنى إلى وزارة العمل أن تعير هذه القبائل لفتة خاصـــة تنقذهم بها من الجهل الذي يغمرهم فتفرض عليهم العمل وترشـدهم إلى الوسـائل العملية التي تصـون شمم عروبتهم من ذل المسكنة.

لِمَ لا نصدِّر صحفنا؟!

فكرة تصـدير الإنتاج، أي إنتاج إلى خارج الحدود، موضـوع له قيمته بين المهام التي ترتكز عليها سمعة الدولة كما أن له في موازنتها بنداً سـخياً لتعويض الفرق بين تكاليف السلعة وسعرها في السوق التي تصدَّر إليه.

أنت تشتري الكبريت مثلاً في أي بلد يصدِّر الكبريت بسعر خاص فإذا انتقلت إلى بلد آخر يستورد الكبريت نفسه من البلد نفسه استطعت أن تشتريه بنصف قيمته تقريباً فتتساءل أهي بلاهة المستوردين؟ أم جنون أصيبت به دور التصدير؟

الواقع.. إنه ليس ثمة بلاهة ولا جنون ولكنها السياسة الاقتصادية اقتضاها التخطيط الحاذق، وأحال إلى ميزانية الدولة عبء الفرق بين تكاليف السـلعة وسـعر البيع عند التصدير.

ليس الأمر أمر الكبريت وحده، فإن جل السـلع التي تواجهنا في جل المتاجر والمعارض تباع في أسـواقنا كموردين بأقل ممّا تُباع في أسـواق من صـدرها إلاّ في بعض أنواع تكاد أن تكون محدودة.

ونحن كبلد جديد بدأ يستيقظ لفن التصـنيع لا يجب أن يغرب عن بالنا أننا إذا كنا نحاول اليوم خطوتنا فيه نحو الاكتفاء الذاتي فسـيحل عاجلاً أو آجلاً يوم نجد فيه أننا مغمورون ببعض الفائض الذي يتعين تصديره وعند ذلك لا يصح أن ننسى دور الميزانية العامة في إعانة التصدير.

ولقد شـعرنا ابتداءً من اليوم أننا أمام إنتاج فائض يتعيّن علينا تصـديره.. هو إنتاج فكري يتلخص في هذه الصـحف والمجلات والمؤلفات التي باتت تغمر الأسـواق بفيض واسع.. دون أن نفكر في عمل إيجابي لتصديرها.

قد يقال إن بعض الوزارات ذات الاختصاص تساهم مساهمة فعّالة باشتراكها في مئات الصحف لتتولى من جانبها تصديرها وتكليف بعض المختصين من موظفيها بتوزيعها مجاناً لمن يطلبها في أكثر البلاد العربية وبعض البلاد الأجنبية.

ولكن هذا لا يعد تصديراً في رأيي. ذلك لأن مفهوم التصدير يعني أن صحفنا يجب أن تغمر سائر الأسواق في سائر البلاد العربية.. يعني أن ينادي بها الباعة في يوم صدورها وتعرضها جميع المكتبات الكبيرة في واجهاتها إلى جانب جميع الصحف التي تتخطى الحدود إلى كبريات المدن في العالم العربي وبعض الخارجي.

أيقال إن صحفنا لا تستطيع أن تزاحم في تلك المجالات؟ أبداً فصحفنا إذا قيست بكثير من زميلاتها في البلاد العربية تستطيع أن تثبت جدارتها.. على أن الأمر ليس كله جدارة.. فإن الصحف الرائجة لا تروج لجدارتها بقدر ما تروج بحركة المد التي تتولاها.

إن بند الموازنة العامة لا يغفل حقوقها في التصدير فهو يتولى ترحيلها بالمجان في الطائرات السريعة لتقرأ في الساعات الأولى من صباح تصديرها، وهو يبيح لأصحاب الصحف أن يسخوا فيما يبذلونه كعمولة لأصحاب المكتبات والباعة (السرِّيحة) كما يبيح لهم أن يبيعوها بأرخص ممّا تباع في بلادها ثم يتولى تعويض الفرق بين التكاليف وما يقتضيه البيع.

إن المسألة هنا ليست مسألة تصدير كبريت تهتم به الموازنة العامة على غرار ما تهتم به موازنات الحكومات في العالم.. بل هو أكثر من هذا وأبعد أثراً.

إن صوتنا يجب أن يبلغ أسماع العالم، وإن موقفنا من السياسة العامة والأحداث الخطيرة يجب أن يكون مبذولاً للقرّاء بين سائر طبقات الشعوب والأمم التي يعنينا أمرها.

ولا يتهيأ هذا ما لم تتحمل الموازنة العامة عبئه وتعمل على توفير جميع الإمكانيات التي تساعد عليه.

لكلِّ حاجٍ بطاقته!

كتب إليَّ (م.ط) من الخرطوم يسألني قائلاً:

لماذا تعوّد الناس في بلادكم أن لا يرشدوا الحجاج إلى ما يسألون عنه؟ ثم يقول: لقد ضاع منِّي الطريق إلى بيت مطوِّفي أول يوم من وصولي فكنتُ أسأل المارة والباعة المتجولين وأصحاب الدكاكين أن يدلوني إلى طريق المطوف فلم أجد بينهم مَن يرشدني وهو على عكس ما نجده في بلادنا مثلاً.

صدقت يا سيدي الحاج. وكنتُ أتمنى لو قرأت اسمك صريحاً فنحن في بلادنا وفي صحفنا تعوّدنا أن نتقبل الصراحة من رجل صريح لا يخفي اسمه وراء الرموز خصوصاً وهو في موقف شكوى.

أقول صدقت رغم ما غاب عليك من جوانب الموضوع.

لقد سألتَ المارة، وسألتَ الباعة، وسألتَ أصحاب الدكاكين عن بيت المطوِّف فلم يرشدك أحد.. ولكن هل أنبأك أحد أن كل هؤلاء الذين سألتهم كانوا من أصحاب البلد؟

إننا يا سيدي بلد مضياف بشكل لا يتصوّره أحد.. ولا أبالغ إذا قلت لك إن جل الباعة الذين تراهم يتجوّلون ليسوا إلاّ ضيوفاً مثلك من اليمن أو من حضرموت أو من الباكستان والهند، وأنت تراهم في أزيائهم فلا تستطيع أن تفرق بينهم وبين أهل البلد بحال، وقد يكون بينهم سعوديون من باديتنا ولكنهم ضيوف لا يهبطون مكة إلاّ للارتزاق في بعض فترات العام.

وأصحاب الدكاكين يصح لك أن تتأكد من حقيقتهم فربما كان الجالس في الدكان ليس إلاّ خادماً.. والخدم عندنا ضيوف على الإطلاق فليس عندنا خدم إلاّ من الطارئين على البلاد من خارج حدودها أو النازحين إليها من باديتنا وكلهم مؤقتون لا يعرفون في الغالب سوى الشارع أو الشوارع التي يعملون فيها.

والمارة.. أخشـــى أن لا تعرف صـــاحب البلد من غيره، ربما كان بينهم طارئون أو نازحون أو حجاج، فالسمات كثيراً ما تختلط على مثلك وأنت جديد في هذا البلد.

ومع هذا فثق أنني لا أريد أن أعتذر لأهل هذا البلد على طول الخط. فربما كان بين من سـألتهم شـخص أو أشـخاص ينتمون إليه، فلا يكونون معذورين ولكني أخشـى في الوقت نفســـه أن يكون الأمر قد اختلط عليك لاختلاط الســـمات بين أهل البلد وضيوفها.

وإذا أردتني إلاّ أن أحقق موضـــع الخطأ في قصـــتك، فالخاطئ الوحيد في رأيي هو مطوّفك!!

ذلك لأن الأوامر الخاصـــة عندنا تقضـــي على المطوِّفين أن يوزعوا على حجاجهم بطاقات صـــغيرة تحمل اســـم المطوف وتعيّن مقر بيته في مكة وعرفات ومنى، وبهذا لا يضل الحاج مهما أبعد في الضياع.

فهل كانت لديك بطاقة من هذا النوع؟ أم أن مبعث الخطأ كان مصدره مطوفك؟

إني أرجو إلى رؤساء المطوفين أن يتفضلوا فيعفوا الحجاج من مشاكل الضياع ويعفونا من حقهم في الانتقاد فيتعقبوا المطوفين ليلتزموا بتوزيع البطاقات على الحجاج ولا يبيحوا للحاج أن يتحرك إلى أي وجهة دون أن تكون في جيبه بطاقة تحمل اسم المطوف والشارع وتعيّن الموقع تعييناً واضحاً.

أراضي مِنَى..

موضوع الإقامة أيام منى يحتاج إلى الكثير من إعادة النظر..

كان المعروف أن أراضي منى مناخاً لمن سبق، فكان الحجاج وكان المطوفون يتسابقون إلى حجز أماكن لإقامة خيامهم فيها، فكانوا لذلك يعانون من الإرهاق ومعاناة السباق ما يعرضهم لكثير من المشاق وكان بعضهم يسرع إلى حجز الأراضي قبل موعدها بأسبوع وربما اندفع بأنانيته كإنسان إلى حجز قطعة تزيد عن ضعف كفايته.

لهذا رأت الحكومة أن نقضي على فوضى التنازع والسباق وما يكتنفهما من إرهاق وأنانية، فأمرت بتشكيل لجنة لتوزيع الأراضي سنوياً على الحجاج والمطوفين بنسبة أعداد كل مطوف.

وكانت فكرة أفادت الموضوع إفادة تامة وقطعت دابر المنازعات والفوضى إلى سنوات طويلة، ولكن الفكرة ما لبثت أن جدَّ عليها ما أساء استعمالها.. فقد باتت بعض الهيئات الرسمية ممّن لها علاقة أو شبه علاقة بالحج تطالب سنوياً بحجز قطعة لموظفيها وأعمالها، وربما كان أكثر موظفيها لا علاقة لأعمالهم بالحج، ولكنها فرصة يمكنهم أن يوسعوا بها على كل من يلوذ بهم من أقارب أو حجاج واتسعت أمثال هذه الطلبات على مر السنين بشكل غريب لا تعرف صحة علاقته بالحج حتى أصبح الأمر أشبه ما يكون بالمجاملات.

وزاد الأمر اتساعاً عندما أخذ كثير من الهيئات الأجنبية.. ضيوف أو بعثات طبية أو علمية أو غيرها ممّا لا يحصى عدد أسمائها تطالب بحظها من تقسيم الأراضي في منى، وربما اقتضت المجاملة أن يوسع عليهم في التقسيم فكان من نتائج كل هذا أن عاد الضيق يكتنف الحجاج من جديد رغم أن بعض الهيئات المحظوظة لا تكتفي بما يقيم خيامها بل تهيئ بين الخيام ميداناً واسع الأرجاء.

والغريب في الأمر أن الحجاج من داخل المملكة لم يحسب لهم في هذا أي حساب، فربما انتهى أحدهم بأهله وعائلته إلى منى فلا يجد مكاناً لخيمته، ومن المحال أن يقبل أحد المطوفين دخولهم إلى نصيبه من قطعة الأرض إلاّ إذا دعته مجاملة خاصة أو أغرته بعض الفائدة.

من أجل هذا أرى أن الأمر أصبح في أشد الحاجة إلى إعادة النظر في نظام التوزيع ومن رأيي أن لا نتوسع في مجاملات بعض الدوائر الحكومية أو حجاج الهيئات الأجنبية.. ومن رأيي أن نقتصد فلا نمنح الأراضي إلاّ لأصحاب العلاقات الماسة بالحج مساساً مباشراً ولا نعطي إلاّ في حيز محدود ضيق لتتوفر باقي الأراضي لأجناس الحجاج الذين يتكاثر عددهم كلما مرت السنوات

أيتقاتلون للمبادئ؟؟

كم من مرة وجدتني أسائل نفسي: هل تحضر العالم بعد هذه المسيرة الطويلة التي أدمت قدميه في فدافد الحياة، وبعد هذه التجارب المريرة لازمت تاريخه فوق الأرض من أول يوم خلقت فيه الأرض؟

لقد كان ينازل خصمه بالحجر أو بالحديد في وحشية بالغة؛ لأن ذهنيته لضيقها لا تتسع لفهم خصمه، ولأن خلافه مع الخصم لم يكن خلاف رأي بقدر ما هو خلاف للاستئثار بالغنيمة، يطعم جوعته بها أو المرأة يطفئ لوعته عندها على نحو ما ألفت الوحوش في غاباتها.

كل ذلك كان مقبولاً يوم كانت الطبائع جلفة لم تهذبها الحياة أو تصقل مواهبها.

والجلف لا يبالي في سبيل انتصاره أن يدوس في شخصك كل مكرمات الحياة؛ لأنه لا يخاصمك إذا خاصمك خلافاً على رأي بل بدافع من حقد طاغٍ وشهوة عارمة وأعصاب تتوتر في غير منطق.

ولكن هذا الإنسان الذي ساير مئات الحضارات عبر التاريخ، وشذبت طباعه ملايين الأحداث، واستطاع أن يسمو بمدنيته فوق كل ما عرف من مدنيات فوق الأرض.. هذا الإنسان الذي تحدثك ثقافته العلمية عن أرقى النظريات الأخلاقية ما باله يسلك في معاملة مخالفيه أرخص المعاملات السلوكية وأدناها إلى أعمال وحش الغاب.

ما باله لا يبالي أن يقضي على خصمه بأفتك آلات الدمار وأكثرها هولاً وأشدها فناءً.

أيُقال إن بين المتخاصمين خلافاً على مذهب اجتهد فيه الرأي فآمن به أصحابه؟

أخشى أن يكون خلافاً على حب البقاء.. خلافاً على شهوة السيطرة، فكان لا بد له أن يصطدم ببقاء آخر لا يقل عنه شهوة وحباً في السيطرة.

ما يمنع الناس أن يختلفوا على المبادئ الفكرية دون أن يبالغ كل مخالف في تقدير ما انتهت إليه فلسفته الخاصة إذا كان مخلصاً بحق لمبدئه لا لشخصه.

ترى هل كان المذهب يعنيهم بقدر ما تعنيهم أنفسهم؟ إنهم يشعرون بالخطر يداهم نفوذهم من أدنى الأرض إلى أدناها فما بالهم لا يتواثبون!

أيُقال بعد هذا إنهما يتخاصمان على المبادئ؟.. لقد عاشت المبادئ مظلومة في كل أدوار التاريخ.. وعاش البشر يتنازعون تحت رايتها بهتاناً وإفكاً وهم في واقعهم لا يتنازعون إلاّ لأنفسهم في غوغائية كاذبة.. وسيظلون على أمرهم ما عاش الإفك والبهتان حتى يرموا بثقلهم على مركز الأرض فتخسف بكل ما على سطحها من بشر.

من أساليبنا في المناقصات

في حديث عن العمران قال أحدهم: إن عمارة (كذا) أطبقت سقوفها عليها فهدمتها بعد أن انتهى العمل منها وقبل أن تتسلمها الوزارة من مقاولها. وقد ذكر أن أساسها كان أضعف من أن يتحمل ما بُني عليه من طبقات.

وفي رأيي أن العبرة في الأمر ليست موضوع العمارة بذاتها، فتلك مسألة ستتناولها الرسميات بالتحقيق، وسيفصل في شأن مقاولها بما يقتضيه الحال..

ولكنَّ في الأمر شيئاً أبعد من هذا يصح أن يعطينا فكرة خاصة عمّا تعانيه منشآت الحكومة ومقاولاتها ومناقصاتها.

إن كثيراً من المقاولين والمناقصين يتميّزون بجرأة بالغة لا تقدر خطر المسؤولية..

مثل هؤلاء ربما تقدموا إلى العمل الحكومي بعطاءات لا تغطي سعر التكلفة، إمّا لجهل بدقائق التقدير، أو اعتماد على الثقة ببراعتهم في فن الاحتيال حتى إذا تجلّت لهم الدقائق بعد لأي أو خانتهم براعة الاحتيال، أسقط في أيديهم وانحدروا إلى مهاوي ربما قضت عليهم قضاءً نهائياً.

ولو اقتصر الأمر على ما ينالون لقِيل إنه بما كسبت أيديهم، ولكن النتائج السيئة كثيراً ما تتجاوزهم إلى غيرهم فتمنعهم البلوى.

إن عطاءاتهم التي لا تغطي سعر التكلفة لجهلهم أو لاعتمادهم على فن الحيلة.. هذه العطاءات ظلت عاملاً قوياً من عوامل سد الأبواب في وجه كثير من أصحاب الأعمال.. فشلت سواعدهم وعطلت طاقاتهم، بل وقضت على الأيدي العاملة عندهم.

ونحن نلاحظ أن من شروط المناقصات الحكومية رفض العطاء الذي يراه المختصون دون إبداء الأسباب، ونعرف أن المشرِّع أراد بذلك أن يقضي على العطاءات غير المعقولة، إذا تقدم بها أشخاص غير معقولين ولكننا رغم هذا لا نزال نعاني من تفنن

المناقصين عن جهل أو حيلة ما قضى على كثير من جهود العاملين في ميادين المناقصات حتى باتت عامة المناقصات تكاد أن تكون وقفاً على أناس دون آخرين.

إن الأمر في رأيي لا يصلح لأن تكون تفاصيله مدار بحث في الصحف.. إن أساليبنا في المناقصات تحتاج إلى إعادة نظر. ولو تهيأ للمختصين أن يتعقبوا المترددين في مجالي المناقصات من أصحاب الأعمال في كل ميدان على حدة، فلربما استطاعوا أن يسمعوا الكثير من حيل المناقصين وهم لا يجهرون بها لأنهم يعجزون عن إثباتها لفرط ما تبلغ من دقائقها من أحكام.

وربما ظهر للمختصين في أعقاب ما يسمعون أن في استطاعتهم أن يعالجوا ما يمكن علاجه تأميناً للأعمال الرسمية في ميادين المناقصة ومحاولة لإشاعة الفائدة بين طبقات العاملين وتشغيل الأيدي في سائر الحقول وإسالة الأموال بشكل واسع بدلاً من ركودها في بعض الأحايين.

خدم الزرانيق

لقد قلتُ مرة إن وزارة الشؤون الاجتماعية بلغت من النجاح حداً لا بأس به عندما حاربت التسوّل في موسم هذا العام، وساقت جميع محترفيه وأكثرهم من الحجاج إلى دار الرعاية، رغم أنها بذلك كلّفت خزينتنا إنفاقاً طائلاً في سبيل طعامهم وشرابهم وأكثرهم غير مواطنين.

وأريد أن أقول اليوم إن مقدري هذا النشاط لا يلبثون أن ينسوه عندما تطأ أقدامهم أرض عرفات أو منى.

فقد وجد المتسوّلون من عرفات ومنى مرتعاً خصباً أميناً من عيون الرقباء، فتسللوا إلى خيام الحجاج وبين الأسواق في صور مزرية تعطي أسوأ الآراء عن حقيقة هذا البلد.

ولا يستطيع الحاج أن يتخيل أن 90% من المتسوّلين الذين يشهدهم ليسوا إلاّ حجاجاً يتحمّلون مشاق الطريق لا في طلب الغفران بل في سبيل أن يملأوا جيوبهم من صدقات الحجاج.

والصورة التي لا يبلغ مداها فظيع هي صورة أخواتنا نساء خدم الزرانيق، فقد أصبحن بارعات في فن التسول.. وأعمالهن لا تقتصر على موسم الحج، بل نحن نعاني من سوئها طوال أشهر السنة.. وأقول بارعات لأن نشاط الشؤون الاجتماعية لا يكاد ينجح معهن، فقد تعوّدن الإحساس بنشاط المراقبين عند أول حركة تبدو في الأسواق فيهرعن إلى جحورهن دون أن يتركن وراءهن أي أثر.

وهن لبراعتهن يعرفن أن نشاط الرقابة لا يمتد إلى زحام الموسم كثيراً وإذا امتد فسوف يقصر عن عرفات ومنى.

لهذا شوهدن في عرفات ومنى أفواجاً نعجز عن إحصائها، يتخللن خيام الحجاج ويتجمعن في طريقهن إلى جبل الرحمة في عرفات أو إلى رمي الجمار في منى.

هن يجلسن في أشكال وصور لا يبلغ مداها من الفظاعة شيء.. وربما هزجن بأناشيد تؤذي الآذان ويقذي منظرها العيون.

والغريب أنهن يهبطن إلينا بصحبة رجالهن، وهم من أفضل الناس نشاطاً وصحة يزاولون أعمال الحمل وسياقة العربات، ويتركون نساءهم وفتياتهم ليملأن الأسواق متسوّلات.

يشاهدهن الحاج فيعجب لثراء هذا البلد الذي يترك نساءه يتسوّلن في هذه الصور الفظيعة وهو لا يعلم مبلغ ما أنفقته الحكومة في بناء دار خاصة لرعاية أمثالهن، ومبلغ ما تتكلّفه في سبيل جمعهم والإنفاق على مأكلهم ومشربهم، لا يعلم أنهن حاجات وأننا في سبيل أداء الواجب نحو بلادنا لا نضن عليهن، ونحن نعلم أنهن جئن للتسوّل لا لقصد الحج، وأننا نعاني الكثير من أجل جمعهن في دار الرعاية والإنفاق على ما يحتجن من مأكل ومشرب أسوة بأمثالهن من فقراء البلاد.

إنها أمور تسيء إلى سمعتنا من حيث لا يعلم الحاج مبلغ ما نبذله في سبيلها.. فليتنا نعيد النظر في مضاعفة الجهد، فلا مستحيل مع الجهد.. ولا ينجينا من عبثهن –في رأيي– إلاّ أن نلزم رجالهن بتعهدات صارمة قاطعة بأن لا يتركوهن يختلسن الفرص فيتسللن إلى الأسواق متسوّلات.

إلى معالي وزير الصحة

لقد بذلت الحكومة في سبيل الاستشفاء عشرات الملايين، وعنيت وزارة الصحة باستقدام الأطباء أفواجاً وأفواجاً، وندبت من شبابنا عشرات وعشرات عاد إلينا أكثرهم يحملون شهاداتهم العالية، ويحتسبون العمل لبلادهم في مجال الصحة العامة.

كل هذه الأفضال لا ننساها للحكومة، ولا ننكره على وزارة الصحة، ولا نغمطه لشبابنا العامل وعلى رأسهم وزيرهم الكبير، ولا نجحد للمستقدمين ما يبذلونه في سبيل المجال الصحي.

ولكن المشاهد أن كل هذه الجهود تحتاج إلى كثير من التوسع.. ذلك أن الوعي الصحي الذي تفتق في البلاد على أثر نهضتنا بات أوسع من أن يغطيه ما بذلنا إلى اليوم من جهود.. فلم يعد للوصفات البلدية شأن بين طبقاتنا، ولم يعد لدجالة الطب ومجربي الحكمة في البادية والحاضرة أية قيمة بين ظهرانينا بعد أن تفتق وعينا.

فأنت تزور المستشفى، أي مستشفى، وليكن مستشفانا.. في أجياد فتلاحظ أن الزحام يبلغ مستواه العالي في غرف الأطباء.. في صورة لا أعتقد أن الطبيب مهما بلغ شأوه أو إخلاصه يستطيع أن يحقق أمراض المراجعين أو يتثبت من سير عللهم.

والغريب في الأمر أن المراجعين لا يلبثون لفرط الزحام أن يقتحموا غرف الإدارة فيتزاحمون أمام مكتب مدير المستشفى، وفي غرفة مندوب الوزارة فيشتغلان بأمراضهم تحت عامل الاضطرار رغم ما يتركه ذلك من أثر في مجرى أعمالهم.

وأنا عندما يسوقني الحديث إلى مستشفى أجياد لا أريد أن أعنيه وحده بما مُني به من زحام، فالمعروف أن جميع مستشفياتنا حكومية كانت أو أهلية تعاني في سائر أنحاء المملكة مثل الزحام الذي يعانيه مستشفى أجياد لا لقصور في استعداداتنا ولكنه كنتيجة لتفتق الوعي الصحي بين حواضرنا وبوادينا –ومع هذا فالأمر في مستشفى أجياد ربما اختلف بمناسبة أيام الموسم كثير الاختلاف عن جل مستشفياتنا في أنحاء المملكة.

ذكر لي أحد المترددين على مستشفى أجياد لعلاج مستمر أن مراجعي المستشفى لا يقل عددهم اليومي عن ألفي مراجع رغم أننا لا نزال على أبواب الموسم. وقال: أرجو أن لا تنسى أن طرق الحج البري والبحري والجوي لا تزال تستقبل الآلاف يومياً.. كما لا تنسى أن حجاج

البر وأكثرهم من إخواننا الحجاج اليمنيين يصلون إلينا مرهقين ممّا نالهم من الضعف، وأن حجاج الهند والباكستان يقاسون الإرهاق نفسه لأن جلّهم من الشيوخ المسنين.. كل هؤلاء يجب أن تستقبلهم مستشفيات مكة وفي مقدمتهم مستشفى أجياد لقربه من مواقع سكناهم بجوار المسجد.

وقال: إذا علمت هذا، وعلمت أن أطباء مستشفى أجياد لا يزيد عددهم عن قدر محدود، عرفت معنى الزحام الذي أصف لك شدته على أبواب الأطباء.

واستند صاحبي على جناح سيارته كمن يستريح من وجيف قلبه ثم استأنف: لقد قرأت في الصحف من أيام أن معالي وزير الصحة يستعد للسفر إلى مكة ليشرف عن كثب على صحة الحجاج يصحبه نحو 80 موظفاً، وأن سعادة وكيل الوزارة سيعقبه بعد أيام في صحبة 30 طبيباً، وأصارحه القول إني بعد أن قدرت لمعالي الوزير ووكيله هذه العناية تمنيت لو صحب الوزير أطباءه معه قبل موظفيه، كما تمنيت لو كان عدد الأطباء بلغ الثمانين بدلاً من عدد الموظفين.

ثم قال: إن الزحام يزحف إلى مكة في هذه الأيام بشكل هائل، فلو تعجل الأطباء سفرهم قبل منتصف ذي القعدة لاستطاعوا مواجهة هذه الألوف المؤلفة بما يكفيهم.. وثمة شيء لا يجب أن تنساه فقد تعوّدنا في بعض السنين أن نستفيد من تجميع الأطباء في مكة قبل عرفات وفي أيام عرفات ومنى ثم يبدأ ترحيلهم إلى حيث أتوا. ولما كان المفهوم أن أيام الحج لا تنتهي بانتهاء أيام عرفات ومنى فإننا نتمنى إلى معالي الوزير أن لا يعجل في ترحيلهم قبل أن يخف الزحام في مكة والمدينة وجدة سيما وأن وعثاء التنقل بين عرفات ومنى كثيراً ما تترك عقابيل في أجسام الحجاج ومستواهم الصحي.

قال هذا ثم ودّعني ليدلف إلى مكانه من السيارة وهو مهيب بي أن أكتب هذا لعلّ فيه ما يستحق عناية معالي الوزير ولفت نظره.

عوداً إلى أرض القبان

سبق أن كتبتُ مقترحاً الاستفادة من دار أبي سفيان بعد هدمها، فأرضها الواسعة بما يتبعها من عشرات الدكاكين التي شملها الهدم بالتبعية ستكون صالحة لإقامة عدة شوارع يفرغ بعضـــها في بعض، يتخللها أكثر من مئتي دكان تقوم عليها دار مكتبة الحرم التي تقرر إنشـاؤها في هذه المنطقة. وفي اسـتطاعتنا أن نهيئ تحت الشـوارع ممرات نجهزها بمتوضآت تتسع باتساع المنطقة، فالمنطقة بما يتصل بها من أحياء كثيرة في أشد الحاجة إلى متوضآت واسعة تستوعب الزحام الذي تزخر به تلك الأحياء.

قلت هذا وأنا أؤمل أن يجد الموضـوع صـدى يستحق دراسـة المختصـين سـيما وأن المكتبة سـتنتفع غداً بواردات الدكاكين إذا وقفنا غلاتها على شـراء الكتب للمكتبة، وهي غلال لا أشك مطلقاً في أنها ستتيح للمكتبة توسعاً قليل النظير بالنسبة للواردات الكبيرة التي ستتكرر سنوياً.

قلت هذا وكنت أظنني أوفيت الموضوع، ولكنني تلقيتُ من أسبوع خطاباً من صديق يشغل منصباً هاماً في وزارة الصحة يسألني فيه هل أعلم أن مقرر التعويض قدّر للقبان وحده بمبلغ 4 ملايين ريال، وأن المبلغ سـيدفع إلى وزارة الصـحة؟ ثم يقول: ومن رأيي أن نقترح على وزارة الصـحة إنفاق المبلغ في إنشـاء مسـتوصـف واسـع بجوار المكتبة يسـتطيع أن يسـتقبل المرضـى في الأحياء المحيطة، وهي أحياء كثيرة تتصـل بهذه المنطقة وتخفف الضغط عن مستشفى أجياد.

والواقع أنني ما كنتُ أعرف أن المبلغ الخاص ببناء القبان سـيدفع إلى وزارة الصـحة وأنه يبلغ 4 ملايين ريال.

وفي رأيي إذا صح هذا فإن وزارة الصحة تستطيع أن تستفيد من هذا المبلغ الكبير لمنفعة المنطقة، فإن القبان بعد هدمه سـتحرم المنطقة من مسـتوصـفه فإذا طالبت بحقها في بناء مستوصف جديد على جزء من القطعة فسيكون طلبها محلاً للتقدير.

وأرض المنطقة أوسع من أن تضيق بذلك فمساحتها كبيرة تتسع لعدة بنايات شاهقة.

ولا يمنعنا هذا من بناء الشوارع التي اقترحتها، والممرات من تحتها لتجهز بالمتوضآت التي ذكرتها، ثم نشيد فوقها المكتبة وإلى جانبها مستوصف وسيكون ثمة متسع بعد ذلك لبناء ما نشاء من مكاتب وشقق سكنية وغيرها ممّا يتسع له عرض المساحة وارتفاع طبقاتها إلى البعيد من أجواز الفضاء.

إن المنطقة لا يمكنها أن تستغني بحال عن مستوصف يستقبل سكان الأحياء المجاورة، أمّا التعويض فقد بات مضموناً ومساحة الأرض تتسع لأوسع ممّا ذكرنا فمن الخير أن لا نفوّت الفرصة.

إني أرجو للمرة الثانية إلى المعنيين أن يدرسوا الفكرة دراسة وافية لعلّهم بذلك أن يصيبوا بسهم واحد أكثر من هدف.

إننا بهذا نساعد على حل أزمة الدكاكين، ونتيح للمكتبة أرباحاً تتوسع في شراء الكتب سنوياً، ونفيد المنطقة بما نجهز لها من متوضآت وما نهيئ لها ببناء المستوصف كما نساعد على حل أزمة المساكن والمكاتب.

مسجدٌ هذا

أم ((مسافرة خانة))!؟؟

قال لي: إذا اجتزت باب الملك عبد العزيز مصعِّداً في الشارِع أمامك هل تستطيع أن تمد رجليك إلى الباب الذي يسامت الطبقة العليا من المسجد لترى في أروقته الطويلة أعجب الخانات المكتظة بسكانها؟

قلت: ولكني لاحظتُ في مروري من يومين أن البواب يمنع أي داخل يحمل أثاثاً إلى الباب الذي ذكرت.

قال: ما عليك إلاّ أن تمد رجليك إذا كان هذا لا يعجزك.. وسترى بعينيك مبلغ الصدق فيما أدّعي.

وهكذا دلجت حتى وقفت بالباب، وأشهد أني شهدت البواب يمنع طائفة كبيرة من دخول الباب؛ لأنهم مثقلون بأحمالهم من المتاع والأثاث حتى كدت أرتاب في صديقي الراوي.

ولكني ما كدت أخطو إلى الرواق حتى فاجأني ما أذهلني!!

كانت أرض الرواق مكتظة بالمئات من الحجاج احتلت كل جماعة منهم قطعة واسعة، فرشوا فيها وسائلهم وتجمعوا حول قدورهم و "دوافيرهم."

رأيت بعضهم يجهّز قِدر اللَّحم و (دافوره) مشتعل إلى جانب هياكل من الخشب تركها النجارون. فقلت ألا تخشى أن يلتهب الخشب؟ فلم يعرني لفتة. ومضيت إلى غيره.. فإذا (الدافور) يشتعل تحت إبريق الشاي، وإذا جماعة إلى جانبه يحتسون الشاي، وآخرون مدّوا سماطهم وشرعوا يأكلون وإلى جانبهم رجل يدخن لفافته في لذاذة واطمئنان.

كان منظر الرواق على مد البصـــر يزدحم بالمتكتلين حول أمتعتهم وأثاثهم وأواني طبخهم في صـــورة تعيد إليك ذكرى (خانات) المســـافرين التي كان الرحالون القدامى يذكرونها في كتبهم.

وعجبتُ للأمر كيف تهيأ لكل هؤلاء أن يقتحموا المســـجد بكل هذه الأمتعة، ويتوسدوا أرضه بهذا الشكل رغم صرامة البواب التي شهدتها.

ولم يطل عجبي كثيراً لأني ما كدت أتقدم خطوات في الرواق حتى واجهني فوج يتســـلل من أحد أطراف الرواق يئن تحت أحماله من المتاع ونظرت فإذا ممر يصـــعد من باب الصفا، وإذا الممر آمن (لا يراقبه حارس ولا بوّاب).

وهكذا امتلأت الأروقة في أعلى المســـجد بفضـــل الأبواب الخلفية، وربما اعتقد المســـؤولون في قرارة نفوســـهم أنهم لم يهملوا ما داموا قد شـــددوا الرقابة على أبواب الواجهة ودعموها بحراس صارمين.

وبعد فما قيمة هذه الملايين التي أنفقناها لحساب الطبقة العليا من المسجد.

لا أعتقد أنه كان يدور بخلدنا أننا نعد بما ننفق (مســـافر خانة)!! يتخذها فقراء الحجاج سكناً ومأوى لأثاثهم وأمتعتهم وأوساخهم حتى إذا ضاق المسجد، وعنّ لبعض المصلين أن يتوسعوا فسوف لا يجدون مصلى نظيفاً يؤدون فيه فريضتهم.

لا أريد أن أقول أكثر من هذا.. وعيون المسؤولين عنه كلها نظر!!

لِنبنِ من جديد

قلت في كلمة سابقة إن بلادنا بدأت تتفتق عن مجالات صالحة للعمل وإننا بما نهيئ في المدارس الصناعية وعشرات غيرها من مرافق العمل سنكفل على مدى الأيام للمواطنين مجالات تستوعب أيدينا العاملة وشبابنا المثقف بشكل واسع لا تحلم به. أريد أن أقول هذا ليستيقن الذين ضاقت مواردهم عمّا ألِفوه في مواسم الحج قبل سنوات طويلة فهيأوا أنفسهم وجيلهم الجديد للعمل الجاد في المجالات التي لا يتوقف عملها على المواسم..

لقد عشنا مئات السنين لا نكاد نجد مرتزقاً –والعبرة بالأعم– إلاّ في مواسم الحج وكانت مواردها يومذاك تفيض حتى تغطي نفقات الأهلين من الموسم إلى الموسم.. وذلك لأن الحاج كان يلذ له أكثر ما يلذ أن ينفق عن سعة، وأن يسخو بأكثر ممّا يتعين عليه دفعه.. وكان يشعر أن جيبه لا يضيق عن البذل الواسع..

أمّا اليوم وقد تبدلت، لا أقول أحوال الحاج فقط، بل أحوال العالم بأسره، فإن الوافدين إلينا أصبحوا يألمون من قلة ما في جيوبهم.. فهم إما أصحاب نقد خفضت أسعاره في أسواق العالم، أو محكومون لنظام لا يبيحهم إلاّ كماً محدوداً أو فقراء بطبعهم جهلوا مشروعية الحج فتسابقوا إليه ليتسولوا أو يعرضوا عزة المؤمن لذل الحاجة فلا تؤويهم غير الشوارع والطرقات.. وتهالك الفقراء والمحتاجين وغير المكلفين شرعاً بالحج ليست إلاّ بدعة كانت بلادنا لا تعرفها إلاّ في النذر القليل.

فإذا شعر مواطنونا اليوم بضآلة المواسم رغم تدفق الألوف بهذه الكثرة الكاثرة، وأدركوا أن مواردهم منها باتت لا تتكافأ مع ما ألفوه في حياتهم فذلك أرعى لأن يختطوا لمعاشهم سبيلاً جديداً في ضوء ما جد في بلادهم.

أرى أن ينسوا أهم علاقاتهم بمكاسب المواسم، ويتركوها للعاجز والمحتاج ومَن جاء على غرارهم، ويتهيأوا من جديد لما بدأت تتفتق به بلادهم في شتى المجالات.

لقد اتسع التعليم في أيامنا بشكل غريب، وكثرت المعاهد وتعددت فصول المهن، وتقاطر المبعوثون إلى الخارج للتخصص في شتى الصناعات الكيميائية والهندسية والميكانيكية والجيولوجية وعشرات غيرها من أعمال التوظيف في دوائر الحكومة والشركات والبنوك، وبدأت البيوت الصناعية تبني لمستقبلها في كثير من المدن فمن الحرج أن نجمّد على ما ألِفنا من أعمال المواسم ونألم إذا تقلصت مكاسبها عمّا ألفِناه فيها..

ربما قيل إن نهضتنا العملية في خطواتها الأولى سوف لا تستوعب أيدينا العاملة على كثرتها.. وأنا لا أماري في هذا ولكني أرى أن نتهيأ لما تتمخض عنه الأيام، فندفع شبابنا إلى المجالات الجديدة لينشأ عليها ويصرف نظره عن أهم علاقاته بالمواسم.. تلك التي ورثها فيما ورث عن آبائه..

إنني أتخيّل بلادنا غداً وقد أحيت الزراعة مواتها، وروّجت شبكة الطرق المعبّدة سائر إنتاجها وقامت في أكنافها المصانع وتعددت الشركات العاملة فاتسعت المجالات للأيدي العاملة، فما يمنعنا أن نتهيأ؟؟ ما يمنعنا أن نبني من جديد؟؟

المقدمة

إن للخطوة الأولى في أي حركة من حركات الإنسان الحياتية معنىً كبيراً بالنسبة له، إذ إنها تعبر عن الوضع المتغير الذي بدأ الإنسان يتخذه فيما بعد نقطة الانطلاق.. وبداية التحوّل والأخذ باتجاه جديد.

ولذلك فإن هذه الخطوة تبقى دائماً في الذاكرة كحدث جميل لا يُنسى وهي أيضاً دافع من دوافع الاستمرار.. والوقود الذي يزوّد الإنسان بفاعلية البقاء في وضع متحرك.

والأستاذ الكبير أحمد السباعي كأحد الروّاد الأوائل للحركة الأدبية في هذه البلاد، فهو يمثل بالنسبة لهذه الحركة الأدبية الخطوة الأولى بل وخطوة شديدة الاتساع.

هذا ما يعنيه أحمد السباعي بالنسبة لأدبنا المعاصر، أمّا ما يعنيه أحمد السباعي بالنسبة للأدب على وجه العموم فهو من أصحاب الأقلام الرشيقة.. والذي يتميّز به أصحاب هذا النوع النادر من الأقلام.. هو أن أحدهم لا يقف بقلمه في مجال من المجالات الأدبية.. أو يقتصر على نوع معين من الدراسة والبحث، بل إنك تجده هنا وهناك. فهو تارة يكتب لك قصة.. أو يقدم لك بحثاً، أو يناقش مشكلة من المشكلات الاجتماعية.. أو يتابع ظاهرة من الظواهر أو يصوغ لك انفعالاً من الانفعالات في قالب من الشعر والنثر، ولذلك كانت أقلامهم تتميز بالرشاقة التي تساعدهم على سهولة الانتقال.

وإنه يشرفني أن أقدّم إلى القارئ الكريم مقتطفات من قلم أحمد السباعي الرشيقة في كتابه "سباعيات" والذي قمت بتجميعه من بين الأوراق القديمة والقصاصات المتناثرة في أركان وزوايا مكتبة أستاذنا الكبير.. وبعضها وجدته في مجلدات مجلة "قريش" والتي كان يصدرها شيخنا الكبير.

وأخيراً فإنني أشكر الله عزّ وجلّ الذي وفقني لكي أنجز الجزء الثاني من كتاب "سِباعيات".

والله وليّ التوفيق..

عدنان بن محمد الحارثي

هيَّا . . نمضِ..

-سنمضي.

-محمَّد الرسول والزعيم.

-في هذا الزقاق أنجبت سيدة من قريش رجلاً صنع التاريخ.

-مقام إبراهيم عليه السَّلام هل تركه النبي صلى الله عليه وسلم في مكانه هذا؟

-الرجولة بين خيام العرب.

-من هضاب أبي قبيس أرسلها صيحة تدوي في أركان المعمورة.

-مكة القديمة في رمضان.

-عاصمة الإسلام متى تحتل مكانها من القيادة؟.

-الحج في الجاهلية وصدر الإسلام.

-أهذه فكرة الحج الصحيحة؟

-هل يسمع هذا حجاجنا؟

-منازل القبائل والأفخاذ في مكة.. هل تصلح لتسمية بعض شوارعنا؟

-ألم يأتك نبأ ما بنينا للحضارة؟

-الأمل كبير.. في الخطوة الجديدة الموفقة.

-نحن كسالى في أفكارنا وأعمالنا.

-إلى متى التواكل؟

-لنحارب الفقر.

-لنقارب بين أسفارنا.

-في سبيل الدعاية لبلادنا.

-أمام الحواجز.

-مصَانع الكاكولا والبيبسي كولا.

-هل يلام المؤلفون إذا دفنوا مؤلفاتهم في الكوابر؟

-في ركني.

-تهانينا لشعب الجزائر المكافح.

-يا رب (قصة قصيرة).

سنمضي..

سوف نمضي!!

لا تسألني إلى أين؟

لا تسألني فالدرب أوضح من أن نناقش مسالكه.

إنه واضح المعالم، ظاهر السمات.

وإنه ليس بيننا وبين العدوة القصوى من مشارفه إلاّ أن نؤكد العزم في دأب بالغ وإصرار واكد.

أتسألني بعد هذا علام نمضي؟

وهل تسألني إلى أين؟

لا أحسبك ستستمرئ تجاهل العارفين وأنت سيّد مَن يعلم أن بلادنا عاشت مئات السنين قائمة تلقائياً محكوماً عليها بالاسترخاء المغناطيسي إذا صح مثل هذا التعبير.

ألم تكن سوريا أريكة أجدادنا في عهد الأمويين؟

ألم يكن العراق عاصمة لنفوذ قومنا في عهد العباسيين؟

ألم تكن الأندلس تختاً لبني أبينا في عهد الفاطميين؟

هوّن عليك فلست أنوي فيما أدّعي أن أنابزك أو أباهلك ولكنها فكرة!!

إنها فكرة أتمنى إليك أن نناقشها في هدوء.. فهل تسمعني؟

وإذا سمعتني فهل تفهمني؟

لقد اتفق لسوريا في عصور الإسلام حضارة ربما ظلت آثارها إلى يومك هذا ناطقة في وعيها العام اليقظ وسماتها الحية التي نشهدها.

كذلك كان شأن العراق!!

ومثله كان دأب الأندلس!!

وعلى غراره كان حظ مصر، ألا ترى أن بني جلدتنا –ودعني أقولها واضحة– بذلوا أنفسهم في سبيل كل هذه الحضارات التي بات الإسلام يفاخر بها، ونسوا علاقتهم ببلاد الحرمين رغم أنهم من طينتها.

لا.. لا أريد أن أنابزك.. ولا أريد أن أباهلك.. ولكنها فكرة تأبى إلاّ أن تلحَّ، وأن ترسم عشرات العلامات في سبيل الاستفهام.

لا.. ليست هي دعوة للعصبية.. أو بعثاً لشيء لا تقره سواسية الإسلام، ولكنها مفارقة تأبى إلاّ أن تدلك على وجودها.

أتسمعها صارخة؟

إنها تريد أن تستبين الدوافع التي بررت لهم نسيان البلاد التي أنبتت أصولهم، بينما عاشوا يحفلون في عناية فائقة بعواصمهم الجديدة، بل وبأكثر ممالكهم في أكثر أطراف الأرض.

لا أريد أن ألحاهم ولكني!!..

يا صاحبي: لكأني ببعضهم ينغصون إليَّ.. رؤوسهم ويقولون متى كان لهذا أن يتطاول ليناقش خلفاءنا حسابهم.

لا.. أنا لا أتطاول.. ولكني أعاتب.. والعتاب (صابون) القلوب.. وهو قبل هذا شرعة سنَّها القرآن في نقاش أفضل الخلق وسيدهم: عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَآءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (عبس: 1-3).

ترى لِمَ تركوا أمهاد آبائهم ومصـــدر قبلتهم لا تعتمد غير الصـــدقات ولا تعيش إلاّ على الأعطيات.

لِمَ هيأوا أهليها ليقتصـــروا في معاشـــهم على التطويف، والزمزمة، وحراســـة القبور، ودعاء المنابر لتأييد السلاطين بعد السلاطين؟

أيُقال إن ملابســـاتنا من الجدب والجفاف فرضـــت عليهم أن يســـلموننا لظروفنا القاسية؟

إذن فأين فضول الأموال التي كانت تتلألأ بها قصورهم؟

وأين خزائن بيوت المسلمين التي كانت تشكو الامتلاء والتخمة؟

لقد كان في اسـتطاعتهم أن يحفروا في كل متر بئراً، ويدفعوا لكل بئر دلواً، ويفرضـوا على العاطلين والمتبطلين أن يغادروا تكاياهم إلى ميادين العمل الناصـــب في مختلف المهن.

إذن لنشأنا نشأة جيراننا من أقاصي الشرق العربي إلى أقاصيه، وتهيأ لنا وعي يجاري الحياة في أدق معانيها وأحدث أساليبها.

يا صاحبي: أترى في هذا ما ينابزك أو يباهلك؟

لا.. فهي ليسـت دعوة للعصـبية، أو بعثاً لشـيء لا تقرّه سـواسـية الإسـلام، ولكنها فكرة تأبى إلاّ أن تدلك على وجودها.

أو فقل إن شئت مفارقة تأبى عليك.. إلاّ أن تسمعها صارخة.. فهل فهمتني.

وبعد..

أترى من حقنا بعد كل هذا أن نقف أكثر ممّا فعلنا؟

وترى كأنني أسمعك تهيب بي أن نمضي وحسبنا ما كان!!

سوف نمضي..

لنمضِ يا أخي.. فالوقت لا يتسع لغير المضاء.

دونك الدرب واضح المعالم، ظاهر السمات لا مكان فيه لجدل الرواقيين، ولا عنعنة المترددين.

لنمضِ يا أخي.. فلا متسع لإقناع خصوم الحياة بعد أن اندس في دمائهم ما أطفأ وعيهم، وحدد أفهامهم.

لنمضِ يا أخي: فليس بيننا وبين العدوة التي بات يتربع فوقها أسياد الأرض إلاّ أن نؤكد العزم في دأب بالغ وإصرار واكد.

محمَّد الرسُولِ وَالزعيم

ليلة حاسمة فيها الفصـــــل، وفيها كلمة التاريخ. إمّا حياة يملي من بعدها إرادته على أشـرافهم، أو موت تنتهي عنده هذه الدعوة، وتعود الدعة والطمأنينة إلى أصـنام الكفر وآلهة الضلال.

هذه حقائق اتفقت عليها قريش، وقررت في نهايتها أن تبيت لمحمد صـــــلى الله عليه وسلم وأن تضع الحد الأخير لخطره الداهم.

وما جهل محمد شيئاً ممّا يبيِّتون ولكنه القوي لا يثنيه شيء.

ســيفصــل الليلة، ويفصــل حتى لو تواطأت مع قريش أحجار مكة وجبالها وأخذت جميع المسـالك عليه "تسـجَّ عليك بردي الحضـرمي الأخضـر يا عليّ، وتنم في فراشـي تمويهاً على العميان، وتخلفاً لودائع الناس عندي تسـلمها لأصـحابها، ولنمضِ معاً يا أبا بكر.. ولكن إلى أين؟ لتكن وجهتنا طريق اليمن."

هذا طود شـــــاهق ما يمنعه أن يواريَ بنا ريثما يُقطع الأمل في تعقبنا: "أيروعك يا أبا بكر هذه الأسياف تلمع في سواعد قريش؟ إن أحدهم لو نظر تحت أقدامه لرآنا ولكنه لا يبصرنا."

"ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟، ألا تزال ترهف أذنيك لكل قدم. ألا تثق بربك ولا تحزن أنه معنا"؟. وكـانـت ثلاثاً.. ركبا بعدها الطريق الجنوبي من مكـة، ثم استأنفاه إلى الشمال محاذيين الشاطئ في دعة المطمئن لا يخشى شيئاً ولا يبالي إلاّ الله.

محمد الدبلوماسي:

ما انتهت مشـــــاق محمد صـــــلى الله عليه وســـــلم بانتهائه إلى يثرب بعد المغامرة التي علمنا وأنّى لها أن تنتهي وفي يثرب موقف تتلاقى فيه نزعات مختلفة وعصبات جائحة.

في يثرب يهود جاوروا الأوس والخزرج، وهيمنوا بعلومهم وأموالهم على مقدرات المدينة، وفيها من القبليين من الأوس والخزرج سبعة مردوا على هذه الهيمنة وانبعثت في صفوفهم روح العصيان.

وفي يثرب من ناحيتها الأخرى خلاف بين كبار الأوس وشيوخ الخزرج توترت فيه النفوس، وجمحت به العصبية، ولعبت السيوف فيه دورها يوم بعاث.

وفي يثرب إلى هذا طارئون من المهاجرين بدأ سيلهم يتلاحق، فتغص به أسواق المدينة وتضيق به محالها التجارية.. كانت الحياة همّ المدينة تتنازعها أهواء عدة، وتتجاذبها أنواء شديدة مختلفة.. وكان السلطان فيها مضطرباً يتقاذفه ما يتقاذف السفينة في يوم صر عاصف.

أنَّى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يستقر، وأنَّى له أن تتصل أسبابه بدفة السفينة ليحكم إدارتها ويلوي بها إلى طريق الأمان والسلام، إنّها عزيمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنها طويته الخالصة، وإنها بعد ذلك أو قبله دبلوماسيته وحسن سياسته. تقول كتب السيرة إنه بدأ أعماله بآصرة الإخاء الذي عقده بين المهاجرين كيما يكفي قويهم ضعيفهم، ويحنو نشيطهم على عاجزهم، وإن أثر ذلك بدا واضحاً في هبوط أموالهم إلى السوق متساندة، وخروج فتيانهم وفتياتهم إلى بساتين الأنصار عاملين.. وإن خطوته التالية كانت في تنظيم بروتوكول سياسي يكفل العلاقة الطيبة وحسن الجوار بين المهاجرين والأنصار كفريق أول وبين اليهود كفريق ثانٍ.

في هذا البروتوكول إن المؤمنين على مَن بغى منهم وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

لا يقبل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، مَن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم إلاّ مَن ظلم، وأنه لا يلتئم جرح على ثأر، وأن بين الجميع

النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن النصر على مَن دهم يثرب، وإن من خرج آمن ومَن قصد آمن بالمدينة إلاّ من ظلم وإثم.

أعط هذا البروتوكول أعداداً متسلسلة ينتظم أمامك في مواد أدق وأشمل ما تكون عليه الاتفاقيات والمعاهدات التي ينظمها اليوم أقدر علماء الدبلوماسية..

والحق هذا البروتوكول الدقيق بملاحق عدّة رُوعيت فيها نفس هذه الدقة والشمول. كان محمد بها وبأمثالها دبلوماسياً من الطراز الأول حكيماً في إدارة الأمور.

وسارت الأمور بهذا النحو في سير طبيعي، واتصلت أسباب النبي بدفة السفينة وأحكم إدارة دفتها، وظل الحال كذلك حتى وسوس الخناس في صدور اليهود فكانت أيدي المؤمنين عليهم حتى دارت الدائرة واستوفى الظالمون حسابهم ممّا تجده مفصلاً في مكانه من كتب السير. ولسنا اليوم في سبيله.

تقول كتب السير إن مكة كانت لا تقل في جاهليتها عن أي مدينة عامرة بصنوف الحياة وزخرفها، وإن شباب مكة لذلك العهد كان لا يقل مرحاً عن كل شباب طروب، كانت لياليها زاهرة بمختلف أنواع السمر واللهو تنتجعها القبائل من أطراف الجبال ومساقط الشعاب تقضي لبانتها من الأنس شطراً من الليل ثم تولي عائدة قبل منبثق الفجر.

في هذا الوسط اللعوب يبدو أمامنا جانب من زهد محمد صلى الله عليه وسلم. ففي كتب السيرة أنه أفضى ذات مساء إلى زميل له يرعى معه الغنم ظاهر مكة أنه يود هبوط مكة هذه الليلة يستجم في مرحها كما يستجم الشباب، وإنه لذلك يوده أن يقوم على حراسة غنمه، وأن الزميل قد قام بما تعهد لكن محمداً ما إن بلغ أعلى مكة حتى استرعى انتباهه فرح عرس، فرح عرس فقط وقف عنده قليلاً ثم ما لبث أن نام.

ونزل مكة ليلة أخرى فاجتذبته أصـــوات موســـيقية، فلمّا انتهى إلى حيث يمكنه الإنصات ما عتم أن غلبه النعاس ونام!! ما شأن الأفذاذ بهذا؟ وما قيمة اللهو في نظر مثل هذا العظيم إذا قيست بساعة استغراق واحدة يتذوّق فيها الهدوء والتأمل؟

هاتوا.. هاتوا محمداً صـــلى الله عليه وســـلم في إبان مجده لتلمس زهده إلى أي حد ينتهي.

وقال ابن هشام كان فراشه الذي ينام عليه أدما حشوه ليف، وأنه لم يشبع قط، ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين، وكان السويق طعام أكلته الكبرى، وكان التمر طعام سائر يومه، وكان الثريد مما لا يكثر له ولا لأهله تناوله، وأنه كان على ما أعطاه الله من أطايب الرزق يتحرق شوقاً إلى زند الخروف والقرع والعسل والحلوى.

وقال الواقدي في طبقاته كان معروف ثيابه القميص والكســاء وكانا من صــوف أو قطن أو تيل، وكان يحتذي حذاء بســيطاً ولم يلبس خفاً إلاّ حين أهدى إليه النجاشــي خفين وسراويل.

وفي خلاصـة السـيرة أنه كان متقشـفاً في مسـكنه ومأكله ومشـربه، وكان يرقع ثوبه، ويحلب شاته.. على أنه قد جاءته هدايا أهل التيجان، وسيقت إليه الدنيا بمناعمها فما استأثر منها بدرهم ولا دينار بل أنفق كل ما وصل إليه في الخير، ورد به فاقة من مسهم الضر وفرقة مصالح المسلمين، وكف به أكف المشركين.

وجاء رجل إليه صلى الله عليه وسلم يسأله فلم يجد ما يعطيه فقال: اجلس سيرزقك الله ثم جاء آخران فقال لهما: اجلســـا فجاء رجل بأربع أوراق فأعطاها إياه وقال: يا رســول الله إن هذه صــدقة، فدعا الأول فأعطاه أوقية، ثم دعا الثاني فأعطاه أوقية، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية، وبقيت معه أوقية واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد فلمّا كان الليل وضـعها تحت رأسـه وفراشـه عباءة فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصـلي.. فقالت له عائشــة رضـوان الله عليها: يا رســول الله هل بك شــيء؟ قال: لا، فقالت:

أفجاءك أمر من الله؟ قال: لا، قالت: إنك صـــنعت منذ الليلة شـــيئاً لم تكن تفعله، فأخرجها وقال: هذه التي فعلت بي ما تريد.. إني خشـــيت أن يحدث أمر من أمور الله ولم أمضها.

إنه الضـمير الحي وإنه الوجدان اليقظ يقصـي أصـحابه عن متع الحياة ولذاتها، وإلاّ فما معنى هذه الخشية من أوقية واحدة تنام تحت عباءته؟

ترى ما هو صــانع لو نام على مال القاصــر، وإرث اليتيم، وحقوق الفقير يمتصــها يلتهمها فتكتظ بها خزائنه، ويمشـي شـبعان ريان وحوله سـواد الناس وعامتهم يئنون من الفاقة ويتضورون من الحاجة.

هي ذي ســبيلنا في الحياة تمنعنا المجد المحق، وتقصـــي القلوب منها، وتعطي وجاهتنا زيفاً، لا يلبث أن يتختر كما تتختر ألوان الأواني المموهة لأول عرضها على النار.

أمّا صــانع التاريخ، أمّا هذا السـيد الفذ، فحسـبك أن تعرف أنه أخذ على القلوب مشاعرها وعواطفها واستهوى أفئدة العصاة العابثين.

أعطوني إنســاناً واحداً في هذا الوجود تســخو النفوس للتعذيب في ســبيله، وتحتمل الفقر والجوع والنفي، وجلد السياط والكي بالصخر المحمى من أجله.

أعطوني في هذا أعطكم الحق في ضمه إلى جانب محمد عليه صلوات الله.

ونحن الآن قادمون على محمد المحجوب فلنسمع ولنتخذ أفذاذ التاريخ في ذلك.

في هذا الزقاق أنجبت سَيِدة من قريش رجلاً صنع التاريخ

قادت بلادنا في أحد الأيام نهضـــة ارتج لها المعمور.. اندلع لهيبها من أتون البطحاء في بطن مكة، ومضــى يســيل إلى مراقد الجبناء ومضــاجع المتخاذلين في جدد الأرض، فأشعلها عليهم حماساً توقدت جذوته، واصطرع أواره فاندفعوا في سيول هادرة يبنون لأمجادهم ما خلَّد ذكره ويشيدون لعزتهم ما برهن على كفاءتهم لها.

في هذا الزقاق أنجبت سيدة من قريش رجلاً صنع تاريخ الإسلام.

ومن هذا الشِـــعب بين بيوت آل هاشـــم إلى العدوة الأخرى بين دروب بني عامر وكلهم من قريش انتفض وزراء النبي انتفاضـــتهم الكبرى تحت قيادة لوائه الظافر. من مخارف هذه الجبال الصامدة.. جبال قريش.

من معارج هذه الكثبان الرملية كثبان قريش.

من شطآن هذا الوادي العتيد. وادي قريش.

خرج الرعيل الأول يتقدم صفوف الإسلام.

من بيوت الشعر في مصاعد المعابدة.

من مزارع النخيل في مهابط المسفلة.

من حلقات اللاعبين في قرارة المدحي.

من مجمع السوق تحت سقائف المدعى، من مفرق المسالك بين المروة والصفا.

من منابت الشيخ بين الحجون وذي طوى.

خرجت الصفوة المختارة تنادي إلى الأمام.

لسـنا عظاميين! نفخر بالأحداث والعظام! ولكنها عظة الذكرى تتمنى أن تسـتنهض همم الخامدين وفتور الخاملين.

نتمنى أن نسأل موطن قريش، مهبط الوحي، مجمع العرب، عاصمة الإسلام عن كل هذه الأمجاد كيف ذوت وإلى أي مصير انتهت؟!

نحن لا نشـــك أنه كان مصـــيراً مدبراً رسمت خطوطه قبل ألف ســـنة يوم تراءى للحاكمين أن هذا المعقل مبعث خطر على عواصـمهم، فغمروه بالعطايا، وعلموه كيف يستكين للترف الضال، ويستنيم للغنى العابث.

زاولوا في أقاليمهم مختلف المهن، وتركوه يطوِّف الحجاج. خالطوا ســـائر العلوم، ومارسـوا شـتى الفنون، واحتكوا بآفاق الحياة من جميع جوانبها، وأسـلموه للصـدقات تطفئ شـــعلته وتخمد رجولته، وتهيئه لخدمة القبور والتمســـح بالأعتاب، والتوافر على الدعاء لسلطانهم بدوام البقاء.

تلك مأســاتنا في هذا البلد.. لا يقضـــي عليها إلاّ أن ننســـى الطوافة، ونترفع عن الصـدقة، ونكبر على التمسح، ونمضي في مدارج الحياة نخالط أوصابها ونناطح آفاقها تحت أطباق الأرض وبين مطالع النجوم.

إننا في حاجة إلى مثل نهضة رعيلنا الأول يوم ارتج لها المعمور.

فهل يندلع الأتون من بطحاء مكة؟ وهل تتوقد جذوة الحماس فتقض مراقد الجبناء ومضـــاجع المتخاذلين وتعيدها جذعة ترفع لواء الإســـلام في جميع مواطنه وتعيد عز العروبة من الحدود إلى الحدود.

إن ذلك وقف على يقظة الوعي واستثارة الشعور.

إننا نتمنى أن نجمع إلى طاقتنا المحدودة أكبر مدى يمكننا جمعه من طاقة كل مفكر لنبث الإحساس في شعور كل مواطن.. فقد حمت الحاجات والليل مقمر.

مقام إبراهيم عليه السّلام

هل تركه النبي صلى الله عليه وسلم في مكانه هذا؟

إذ أذكر أني تقدمت من سنوات إلى الحكومة باقتراح أطلب فيه بمناسبة شروعها في توسعة المطاف نقل مقام إبراهيم من مكانه، فإن أية توسعة لا تشمل نقله سوف لا تُعفي المكان من الزحام! ولكن اقتراحي بعد أن صادف قبولاً من بعض كبار علمائنا وجد اعتراضاً من البعض الآخر بحجة الخوف أن يحدثوا شيئاً لم يفعله المسلمون قبلهم من 14 قرناً.

ثم ما لبثت أن قرأت أن الرابطة الإسلامية هالها أخيراً ما يقاسيه الطائفون من زحام في منطقة مقام إبراهيم، فعادت تدرس الفكرة وتستعين بآراء المختصين في مثلها.

ولستُ من المختصين أو المعروفين بين رجال العلم، ولكن الدِّين لا يمنع مثلي من إبداء رأيه في حدود القليل الذي أعرف ليعيد المختصون النظر فيما أراه.

إن مبلغ معرفتي أن كتب التفسير اختلفت رواياتها في تفسير قوله تعالى وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (البقرة: 125) فذهب بعضهم إلى أن المقام هو قطعة الحجر الذي كان يقف فوقه إبراهيم عليه السلام كما ذهب آخرون إلى أنه المكان الذي بُني فوقه المقام، كما ذهب آخرون إلى أنه المسجد، أو مكة، والمشاعر الحرام على تعددها، أو الحرم على سعة حدوده إلى الأعلام المعروفة.

وفي هذا مندوحة لنا فيما أفهم لنتخذ لمصلانا ما بلغ إليه اجتهادنا من تفسير لمقام إبراهيم.

واختلف المحدثون في تعيين المكان الذي كان يستقر فيه مقام إبراهيم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقيل إنه كان بعيداً عن الكعبة في عهد قريش وجعله النبي صلى الله عليه وسلم لاصقاً بها في عهد قريش إلى عهد النبي وخليفته أبي بكر، ثم أبعده

عمر. وقيل إن الذي أبعده محمد صـلى الله عليه وسـلم. وقيل غير هذا وأكثر منه مما يتضح لكل متتبع ما ورد في الأحاديث عن ذلك.

وفي هذا مندوحة –فيما أفهم– لنعتمد من الصـحيح ما يتفق اليوم مع مصـالح المسلمين.

إذا أضيف هذا إلى ما يرويه تقاة المؤرخين أن الحَجَر –بفتح الحاء والجيم– كان ينقل في عهد أمية إلى داخل الكعبة إذا اشـتد زحام المواسـم، أو إلى بعض أركان المسـجد بعيداً عن المطاف، وأن قبته لم تكن ثابتة تيسـيراً لنقله، وأنهم في بعض عهد الأمويين والعباسيين كانوا يجعلون له قبتين إحداهما من الحديد لتصونه من الزحام إذا عزموا على بقائه في مكانه، والأخرى من الخشـب لتغطيه إذا خف الزحام.. إذا أضـيف هذا باتت المندوحة –فيما أفهم– أقرب إلى المعقول، فقد كان التابعون يعيشـون في عهد بني أمية ولم يسمع أنهم عارضوا في نقله إلى الكعبة أو أحد أطراف المسجد.

ويذكر تقي الدين الفارسـي مؤرخ مكة الشـهير حديث قبة إبراهيم فيقول: "لا أدري مَن جعل قبة إبراهيم ثابتة –كما نشاهده– ولعلّه الصليحي ملك اليمن.. أ. هـ."

وحج ابن بطوطة في عهد العباسيين فذكر في كتاب رحلته أنه شهد مقام إبراهيم فوق باب الكعبة، أخرجوه من الكعبة أمام الناس لمناسـبة خاصـة ذكرها، وفيه ما يدل على أنهم كانوا ينقلونه إلى الكعبة إذا اشتد الزحام.

فما يمنعنا ونحن اليوم نشـهد ما يعانيه الحجاج من الزحام في المنطقة التي يفترضـها مقام إبراهيم أن نتابع ما فعله أسـلافنا في عهد الأمويين والعباسـيين، وأن يسـعنا ما وسـعهم فننقل الحَجَر (بفتح الحاء والجيم) إلى داخل الكعبة، أو نبني له في أحد أطراف المسجد؟

الرجولة بين خيَام العرب

عاش العربي في خيمته أول ما عاش قبل أن ينطلق تحت راية محمد صـــلى الله عليه وسـلم لا يُضـام، فيجلس وكان يرى العار أن يحني رأسـه للشـدائد، بل عليه أن يقتحم غمراتها.

عاش العربي فتوة في خيمته، رياضـياً يباهي بقوته، يباهي بمضـائه وعزه، وقد يتخطى دور الشـباب ولكنه مع هذا تأبى أفعاله إلاّ أن تدرجه مدارج الشـباب الرياضـي. يقول شاعرهم:

يا عز هل لك في شيخ فتى أبدا
وقد يكون شباب غير فتيان

عاش العربي فتوة في خيمته بين متاهات الصـحراء، فتركت الصـحراء أثرها في جبلته، عاش لا يمتد بصره إلاّ إلى جبال جرداء، ورمال تموج بشواظ تتلظى، ورياح تعصف فلا تبقي ولا تذر، فانطبع بهذه القسوة وألِف خشونتها. عاش لا تضعضعه الكوارث مهما بلغت شدتها ولا تخيفه الأهوال مهما اشتدت رهبتها وهذه أخلاق الرياضي والكشاف.

يقول سويد اليشكري:

كم قطعنا دون سلمى مهمهاً
نازح الغور إذا الآل لمع
في حرور ينضج اللحم بها
يأخذ السائر فيها كالصقع

عاش العربي في خيمته حســبه من الطعام كســرة.. عاش لا يعرف الإســراف، ولا يعرف البشـــم الذي نعرفه اليوم. عاش يطحن ما تهيأ له من حبوب الذرة والشـــعير والقمح، ويعتمد إلى جانبه اللبن أو مشـــتقات اللبن أو تميرات تقمن صـــلبه، فلا يفرط

ولا يتفنن، ولا يطمع في تلوين كما يفعل المتخمون أمثالنا ممّن ترهلت أجسـامهم، وتعددت أمراضهم يقول شاعرهم:

فتى قُدَّقدَّ السيف لا متضائل
ولا رهل لباته وأباجله
إذا جدّ عند الجد أرضاك جده
وذو باطل إن شئت أرضاك باطله
يسرك مظلوماً ويرضاك ظالماً
وكل الذي حملته فهو فاعله

عاش العربي في خيمته لا يرضى أن يضمه قصر يحد من رحابة صدره، فهو معتز بكفاءته، جد في الذود عن حياضه وما يملك من إبل وماشية.

عاش بشرف في خيمته على سهول مترامية أو صحراء شاسعة يرهف سمعه لكل نأمة ويرسـل بصـره لكل حركة، فتعلم يقظة الحس وتمرّس على مراقبة الخطر وليس كنماء الحس ما يعد الرجل لأهوال الحياة يقول شاعرهم:

لا مترفاً إن رخى العيش ساعده
ولا إذا حل مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلاّ ريث يبعثه
هم يكاد حشاه يقطع الضلعا

عاش العربي في خيمته يهدده الجوع فلا يبالي الطوى، ويشتد به العطش فلا يبالي ألم العطش، وتصهره السموم فلا يبالي لظى السموم، وتحدق به الأخطار فلا يبالي ما تحدق الأخطار ومع هذا:

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه
برقت كبرق العارض المتهلل

صعب الكريهة لا تنال جنابه **ماضي العزيمة كالحسام الفيصل**
يحمي الصعاب إذا تكون كريهة **وإذا همو نزلوا فمأوى القيل**

كان العربي إلى جانب ثقته بنفســـه وصـــبره في الملاقاة يهمه أن يعني بعدته ليملك ناصية الظفر، ومن أهم عدته إذا جد الجد فرسه الأصيل. ففي رأيه:

الخير ما طلعت شمس ولا غربت **معلق بنواصي الخيل معقود**

بلغ من عنايتهم بالفرس الأصـــيل أن يحتاطوا لنتاجه لئلا يتدنى نتاجه، وأن يحفظوا نســبه كما يحفظ الرجل المذكور ســلالته التي ينحدر منها وهنا نســمع العامري يهيب بقومه:

بني عامر ماذا أرى؟ الخيل أصبحت **بطاناً وبعض الضر للخيل أمثل**
بني عامر إن الخيول وقاية **لأنفسكم والموت وقت مؤجل**
متى تكرموها يكرم المرء نفسه **وكل امرئ من قومه حيث ينزل**

من هِضاب أبي قبيس أرسَلها صيحة تدوي في أركان المعمورة

فرق بين أن تبز أقرانك وتبدو كبيراً ممتازاً في أمتك.. وبين أن تطبع هؤلاء الأقران وتصنع أمتك من جديد!! فأنت في الأولى عظيم في التاريخ.. وأنت في الثانية صانع للتاريخ. وعظماء التاريخ حفل التاريخ بهم وازدحمت صفحاته وفصوله بسيرهم. أمّا صانعو التاريخ فهم الندرة التي لا يجود بها الدهر في مئات الأجيال.. ولا تصادفك حوادثهم بعد ملايين الفصول إلاّ مرة واحدة.

وسيدنا العظيم الذي نتحدث اليوم عنه كان صانعاً للتاريخ إذا شئت. وأكثر من صانع إذا شئت.

إنه لم يطبع جيلاً واحداً، ولم ينشئ أمة واحدة، ولم يصبغ قلمه قارة واحدة في خارطة العالم.

إنه طبع دهراً بكامله.. دهراً انطوت فيه أجيال، وستنطوي فيه أجيال وأجيال، ولا يزال لطابعه جدته كما لو لم تمضِ عليه ساعة.

إنه أنشأ أمماً لا تُحصى ألوانها ولا تُعد لغاتها، إنشاء أفنى فيه كل ما ورثوا من أديان وما عرفوا من عادات وأخلاق.

وإن قلمه مضى على ثلاثة أرباع خارطة العالم في أقل من مئة عام مضت، استحالت بعده آلاف الكنائس، ومئات البِيع، ومئات الألوف من الهياكل الباطلة إلى مساجد يذكر فيها اسم الله وحده لا شريك له، يسبّح له فيها بالغدو والآصال.. كأنه صلى الله عليه وسلم أمام عيني الآن بين هضاب أبي قبيس يرسل الصيحة يهتز لها أبو قبيس وتدوي لها شعاب الهواشم.

كأنه بين عيني الآن يرسل الصيحة في هذه القفار القاحلة بين المروتين، فتسمع صداها يدوّي في الهند والتركستان إلى روسيا وبولونيا، وبلاد البلقان والترك وفي برقة والجزائر ومراكش إلى أدغال إفريقيا جنوباً وأطراف أوروبا شمالاً.. دوياً يهيب بالأديان

فتخر طائعة بين يديه، والعقائد الموروثة فتستحيل أمامه هباء، والعصبيات الجنسية واللغوية واللونية فتأتي إليه صاغرة يصوغها كما يشاء ويوجهها أينما شاء.

هو الآن على درج الصفا: "يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تميم، يا بني مخزوم، يا بني أسد، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإنني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلاّ أن تقولوا: لا إله إلاّ الله."

فينهض أبو لهب في غضب صائحاً: تباً لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فتكون الصدمة ويتفرق الناس تحت صيحة أبي لهب في شعاب مكة ساخرين مستهزئين.

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (المسد: 1-3).

كانت صدمة قد يصح أن يكون لها مفعول الصدمة الأولى في غير نفس محمد صلى الله عليه وسلم. أمّا هذه النفس العالية، أمّا هذا المبدأ الثابت، فتستحيل أمامه جميع الصعاب طرقاً سهلة يعبرها في عزم إلى غايته في الحياة.

وقد مضى صلى الله عليه وسلم.. مضى في قوة، مضى وحده وعشرات القبائل في مكة تتألب ضده.. مضى يتحدّاهم ويتحدّى آلهتهم، وتغص دار الندوة بأشراف قريش يبحثون هذا الجلل ويتبادلون الرأي فيه كخطر داهم.

ويمشي عظيم مكة أبو سفيان في جمهرة من كبرائها إلى دار عمه أبي طالب: "يا أبا طالب إن ابن أخيك سب آلهتنا ..فإمّا أن تكفه عنا أو تخلي بيننا وبينه" فيردهم رداً جميلاً ويظنونها كافية لأن تفت في هذا العضد ناسين سمو الأفذاذ عن أمثال هذا النقيق.

ويستأنف أبو سفيان مشيته في أهول رهط إلى عمه مرة أخرى: "يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا.. لتكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين."

وينتهي أبو طالب إلى ابن أخيه بما ندب.. "يا ابن أخي أبقِ عليَّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق."

كلمة جادة وتنصل رزين كانا يكفيان للتأثير في أقوى النفوس وأشدها شكيمة.

لكنه محمد، لكنه صانع التاريخ.. لم يتحيّر، ولم يتلكأ، ولم يستنظر بل أرسلها قوية صارخة. "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه لما تركته!؟."

لغة واضحة، وأسلوب صريح، لا محل فيه للمواربة. جمع العم الشيخ في أثرها أطراف عباءته وهو يشد على يده: "اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه."

وتمضي الأيام آخذة برقاب بعضها.. ويمضي سيدنا دائباً في دعوته كما تمضي قريش ممعنة في عدائها وإيذائها، حتى يقف عتبة بن ربيعة مندوباً من قريش فيهيب بهذا الطود: "إنك منا يا ابن أخي حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلّك تقبل بعضها.. إن كنتَ إنّما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريد تشريفاً سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنتَ تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ."

عرض هادىء، وإغراء جميل مشوق.

المال!! المال كل زينة الحياة ونهاية الرغبة فيها.

المال طالما بيعت به همم!! وخفرت من أجله ذمم!! ونسيت في سبيله مبادىء! ومذاهب وأديان!!

والسـيادة.. السـيادة نشـوة تغري أكثر أصـحاب المبادىء فتنسـيهم أهم واجباتهم دينية واجتماعية ووطنية.

لكنه صـانع التاريخ.. لكنه محمد وكفى: "دونك يا عتبة آيات من التنزيل تحضـرني الآن.. ثم يتلو عليه سورة السجدة حتى آخرها ولا يتكلم، وينصرف عتبة وقد ترك فيه الإعجاز أثراً بالغاً إلى مجالس قريش بغير ما توجه: "أرى أن تتركوا محمداً للعرب فإن تغلبوا عليه استرحتم وإن اتبعوه افتخرتم."

وبعد.. فقد تركوا محمداً للعرب.. تركوه يمضـي.. وقد انتهى مضـيه إلى نجاح ارتجت له أركان المعمورة.. ودانت له الحياة طائعة!!

فهل أغراه النجاح؟ وهل طوح به كل مطوح!!؟

يقول ابن هشام يصفه بعد أن بلغ في نجاحه الذروة.

إنه لم يشبع قط!!

ولم يطعم خبز الشعير يومين متواليين!!

كان التسويق طعام أكلته الكبرى!!

وكان التمر سائر طعام يومه!!

وكان الثريد ممّا لا يكثر له ولا لأهله تناوله.

وكان على ما أعطاه الله من أطايب الرزق يتحرق شوقاً إلى زند الخروف!!

والقرع!! والعسل!! والحلوى!!

ويقول الواقدي في طبقاته:

كان معروف ثيابه القميص والكسـاء.. وكانا من صـوف أو قطن أو تيل، وكان يحتذي حذاءً بسيطاً.. ولم يلبس خفاً إلاّ حين أهدى إليه النجاشي خفين وسراويل.. أمّا فراشه الذي كان ينام عليه فكان أدماً حشوه ليف.

وكان إلى هذا يعتز بما نستنكف فيقول: أنا ابن أمة كانت تأكل القديد بمكة!!

ونقل عن أصحابه أنه: "كان يرقع ثوبه، ويحلب شاته، ويتقشف في مسكنه، وأنه عندما سيقت إليه الدنيا لم يستأثر بدينار ولا درهم، بل دأب على توزيعها في مصالح المسلمين، وبحسبه طعام الشعير في أكلته الكبرى!!

وأرقته أوقية من فضة بقيت في فراشه بعد التوزيع، فلم يذق حلاوة النوم ليلتها.

فكيف به ونحن اليوم ننام على مال القاصر، وإرث اليتيم، ورشوة العاجز.. ثم نصبح لنلوك آيات الله ونروي ما قال رسول الله دون أن تأخذنا خشية أو يعذبنا ضمير.

رحمتك اللَّهم وغفرانك.. فلا تؤاخذنا بما كسبت أيدينا.

مكة القديمة في رمضان

عندما صامت مكة رمضان في نحو منتصف القرن الأول للهجرة، شعرت لأول مرة أن المسجد الحرام يضيق بالمصلين في قيام التراويح، فالتمست الرأي عند أميرها "خالد بن عبد الله القسري". وكان خالد جريئاً لا يطيل التردد فيما يعتقد صوابه، فما يمنعه أن يأمر في أسلوب حاسم أن يدير جماعة المصلين صفوفهم حول الكعبة من جهاتها الأربع.

لقد كان جديداً على المؤتمين أن تدور صفوف جماعتهم حول الكعبة، وهم لم يتعودوا الصلاة قبل ذلك اليوم في جماعة إلاّ في جهة واحدة يقابلون فيها باب الكعبة.. ولكنَّ خالداً لم يجد عند علماء الدِّين ما يعارض إدارة الصفوف الجماعة حول الكعبة لأول مرة في مثل هذه الأيام من مثل هذا الشهر.

وأضاف القسري إلى أولياته في رمضان "منادي السحر"، فقد خصص مَن يتحرى وقت الإمساك فوق جبل أبي قبيس، ليعلن في الناس بصوت جهير: "أمسكوا رحمكم الله". وظل منادي السحر فوق أبي قبيس مناطاً لإمساك الصائمين إلى عهد الرشيد، قبيل نهاية القرن الثاني من الهجرة.. فقد رأى الرشيد أن تتسع آفاق هذا النداء، فأمر بأن تبنى المنائر على رؤوس الجبال المشرفة على فجاج مكة، من أدناها إلى أقصاها، وأن يعهد بتحري وقت الإمساك إلى مختصين يعلنونه للمنائر، لتنادي به في سلسلة متصلة الحلقات، منارة بعد أخرى.. تبدأ بأعلى مكة، وتنتهي بأسفلها، وتتخلل جميع شعابها.

وعندما أهملت المنائر وتطرق الخراب إليها بتوالي الأجيال، استعاض الناس في مكة عنها بأخشاب طويلة كانوا يضعونها في رأس إحدى المنائر، ثم ينيطون بها قنديلين متعارضين، يُطفآن إذا حان الإمساك. فكان أهل مكة يتحرّون إطفاء القناديل من فوق سطوحهم المرتفعة البعيدة من المسجد.

وقد ظل الأمر على هذا إلى أوائل العهد العثماني، حيث عرفت مكة إطلاق المدافع، ولم تقتصر حفاوة مكة القديمة برمضان على موضوع النداء للإمساك، فقد أُضيفت إليه أصوات الدبادب التي كانت تعلن حلول رمضان، قبل اختراع المدفع.

وفي هذا يحدثنا ابن جبير، الرحّالة المسلم الذي زار مكة بعد منتصف القرن الخامس الهجري، فيقول: "إن دبادب الأمير أخذت تضرب في مكة ليلة الشك إيذاناً بصيام يوم الشك". ثم يقول: "وللمسجد فرقعة [3] يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء."

ويلذ لي أن أستطرد وإيّاكم في طرائف ما يرويه لنا ابن جبير عن شهر الصيام في مكة القديمة، فقد شهد رمضان في هذا البلد، واختلط بأهله، وعاشرهم أشهراً طويلة، وكتب عن ذلك يقول: "ما أذنت ليلة الشك بحلول رمضان في مكة، حتى بدأ مسجدها يتلألأ نوراً، وتفرق الأئمة فرقاً لإقامة التراويح، فلا تجد في المسجد زاوية إلاّ وفيها قارىء يصلي بجماعة خلفه، وقد صفت الشموع على اختلاف أنواعها في جهة من محاربهم.. ورُؤي المصلون يطوفون بين كل تسليمتين سبعاً". ثم يقول: "ويتولى التسحير في مئذنة

---

[3] - الفرقعة نوع من الكرابيج يضرب بها في الجو فتحدث صوتاً مدوياً .

باب على المؤذن الزمزمي، لقرب المئذنة من دار الأمير، ومعه أخوان صغيران يقاولانه ويجاوبانه في أصوات رقيقة."

ولسنا نعجب لما ذكره ابن جبير من تفرق الأئمة لصلاة التراويح في المسجد في جماعات متعددة، فقد كان تعدد الجماعات في المسجد، حتى في الصلاة المكتوبة، طريقة سائدة لعدة قرون طويلة من تاريخ مكة. ولا يزال كهولنا يذكرون أن الأئمة الأربعة كانوا يتناوبون الصلاة إماماً بعد آخر، حتى ألغيت هذه الطريقة في عهد حكومتنا الحاضرة، واكتفى المسجد بتوحيد المصلّين في جماعة واحدة. ولم يكن تعدد الجماعات وسيلة التناوب بين الأئمة في جميع العهود، بل إن بعض هذه العهود كانت تبيح للأئمة أن يؤموا أتباعهم في وقت مشترك.. فيركع الشافعي، بينما يسجد الحنفي، ويعتدل الحنبلي، بينما يتشهد المالكي، وبذلك كان التشويش يعم جميع المصلين في المسجد.

وفي العهد الذي شهده ابن جبير كان يصلّي أمام الزيدية في محراب خاص به، كما يصلي أئمة المذاهب الأربعة.

ونستأنف استطرادنا عن وصف رمضان في مكة القديمة، فنستمع إلى رحالة من أنداد ابن جبير شهد رمضان في مكة في أوائل القرن الثامن الهجري. ذلك هو العلامة ابن بطوطة، الذي كتب عن مشاهداته في مكة، فوصف أحوال رمضان بنحو ما وصفها به ابن جبير.. فهو يذكر الطبول والدبادب، ويذكر المؤذن الزمزمي، وقناديل المئذنة التي كانوا يطفئونها إشارة إلى الإمساك. كما يذكر حفاوتهم بالشموع والمشاعل في ليالي رمضان، ويضيف عنايتهم بحصر المسجد التي شهدهم يجددونها ويزيدون عليها مثلها. ويبدو أن أفواج المعتمرين، الذين نشاهدهم اليوم يحيون أكثر ليالي رمضان بين

مسجد التنعيم والمطاف والمسعى، كان لهم شبيه في عهد ابن بطوطة، إلاّ أن حفاوتهم كانت تبلغ غايتها في شهر رجب أكثر ممّا تبلغه في شهر رمضان.. فقد رأى ابن بطوطة مواكب الأهليين تتزاحم في شهر رجب في طريقها إلى العمرة، يمتطون الخيل والنوق، ويتجمهرون فوق صهواتها، وهم يلعبون بالأسلحة، ويقذفون حرابهم في الهواء، ثم يلقفونها. كما رأى الهوادج تغص بها شوارع مكة، عليها أكسية الحرير والكتان.

وكما نشاهد اليوم زحام القادمين من جدة، وما يليها من القبائل والقرى، لقصد الاعتمار في ليالي رمضان، شهد ابن بطوطة زحام القبائل وهي تسيل من بطحاء مكة في طريقها إلى التنعيم، وهو في هذا يقول: "ورأيت أهل الجهات الموالية لمكة، مثل بجيلة، وزهران، وغامد، يعنون بزيارة مكة، ويشاركون أهلها حفاوتهم بالعمرة، ويجلبون معهم إلى مكة كثيراً من منتجات بلادهم، فيعمّ الرخاء.." إلى أن يقول: "وهم يعتقدون أن بلادهم لا تخصب حتى يبروا مكة بما ينتجون."

والذي أقوله إن هذا الاعتقاد ما زال سائداً في أكثر القبائل الزراعية حول مكة إلى اليوم، ولا يزال يعيش بيننا مَن يؤمن بأن باكورة إنتاجه لا يجوز بيعها خارج أسواق مكة، مهما كلفه ذلك.

ويمضي ابن بطوطة حتى يصف القبائل من غامد وزهران في عهده، فيقول: "إنهم فصحاء الألسن، صادقوا النية، يتطارحون على الكعبة داعين بأدعية تتصعد لرقتها القلوب، ويتزاحمون عليها حتى يعجز غيرهم عن الطواف معهم. وهم شجعان أنجاد.. ولباسهم الجلود.. وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم."

عَاصِمة الإسلام متى تحتل مكانها من القيادة؟

قضى الحج..

قضى المسلمون –والحمد لله– حجهم في خير ما قضت سنوات الحج قبله، بالرغم من الهنات التي صادفت الحجيج في لحظات الزحام والتجمع بين المشاعر والمشاعر.

ربما استكثر بعضهم هذه الهنات، ولكنه إذا استطاع أن يقابلها بما كان يصادف الحجاج من نصب طوال قرون عفا عليها الزمان تجلّى له الفرق واضحاً بين حاضر الحج وماضيه..

لقد مضت قرون كانت إمارة مكة تتجاذبها دول الإسلام ودويلاته كل يدعيها لنفسه، ويحاول أن يستصيغها لحسابه ويذيع فوق منبرها أصول مذهبه وفضائل دعوته، وكانوا لا يجدون لميدانهم متسعاً إلاّ في أيام الحج وبين مواقفه المقدسة.

كان الحجاج يفاجأون في عرفة أو في أيام التشريق من منى أو قبل نهاية مناسكهم في مكة بالسيوف تلمع، والرؤوس تتطاير فتركب القوافل بعضها من هول الفاجعة، ويتشتت شمل أصحابها فيعتصمون بالجبال أو يلوذون بالوهاد المعطشة فيموت الألوف من ضربة الشمس أو وطأة الجوع وحر العطش.

ويغتنم اللصوص فرصهم في معمعة الاضطراب ليصيبوا مَن نجا من ويلات السيوف ويتركوه مجرداً ممّا يقيم الأود أو يبرد الظمأ.

قد يُقال إنها كانت عهود الفوضى في عامة بلاد الشرق، وإن الزمان قد نفض اليوم غباره وبدأ يواجه الحياة على غير الأسلوب الذي كان يعيشه.

ونحن نعرف هذا ونعترف به، ولكننا نود ألاّ يغيب عن البال أن بلادنا مثقلة بما ورثت من عصور التأخر في عامة مرافقها، وإننا لم نقف على أرجلنا إلاّ من سنوات معدودة، وإننا حتى في سنواتنا المعدودة كنا لا ندرك حاجة الحياة إلى كل قرش نربحه

ليكون وقفاً على العمل الجاد الصالح، فأفرطنا في البذل وأسرفنا في اللعب كما لو كنا نثأر لعهود الحرمان ولم نستفق من غفلتنا إلاّ مؤخراً..

وعندما استفقنا كان علينا أن نعالج تركة مثقلة من مئات السنين، فمرافق البلاد عاشت متأخرة في جميع معانيها وليس في هذا ما يستغرب، فإن كافة الدول الإسلامية التي كانت تنافس على جعل هذه البلاد منطقة نفوذ لها كان يهمها أن يعيش مَن فيها على برهم وصدقاتهم كما يعيش خدام الأضرحة على حسنات المحسنين حتى لا تقوم باسم البلاد المقدسة أية قائمة يهوي إليها المسلمون أو يقتدون بالبارزين فيها.

هذه الأفكار المغرضة هيأت عاصمة الإسلام في جميع أدوار التاريخ الإسلامي بعد الخلافة الراشدة للتأخر العلمي والأدبي والاجتماعي وتركتها في مؤخرة الصفوف دون سائر بلاد الإسلام ليسلم الحاكمون في بلاد الإسلام من عواقب تثقيفها ويقظة الوعي فيها.

واليوم وبعد هذه الآماد الطويلة فإننا لا ندري بأي خرق نبدأ ومن أي طرف نرقع، فإذا استطعنا في هذه السنوات المعدودة أن نقيم بعض الأود وأن نمضي قدماً فيما رسمنا، فإن الآمال معقودة على الوعي الجديد الذي شرع يتفتق ويدرك مبلغ ما قصّرنا أو قصّر من أجلنا.

إلاّ أن هذا لا يكفي فبلادنا في أشد الحاجة إلى يقظة الوعي في عامة بلاد الإسلام حولنا ليدركوا حقوق هذا البلد عندهم.

لا نريد لها حقوقاً في الإحسان، ولا مربوطاً في الصدقات.. فتلك وسائل كانت علّة تأخرنا، ولكننا نريد نوعاً من التقدير يجل قبلة المسلمين ويهيئها لمركز يشرف المسلم في أي بلد قاصٍ من الأرض ويرفع رأسه عالياً.

إن كثيراً من أمم الإسلام في أطراف الأرض تدعونا إلى التكتل، وأن ننضم إلى دعوتها دون غيرها، ونحن نتمنى التكتل على أن تتوحد الدعوة وأن نحتل مركزنا كبلد مقدس في

مقدمة الصفوف. فقد عانينا من مآسي المؤخرة مئات السنين ما قضى على قداستنا وتركنا في العالمين أحدوثة لا تشرف المسلمين..

أرأيت لو كنا نحتل مركز القداسة في غير صفوف المسلمين أكنا نحيا هذه الحياة التي عشناها من مئات السنين موكولين إلى العطايا والصدقات؟!

لا أعتقد هذا فالتجلّة في الأمم الحيّة لا ترسي قواعدها على مثل هذا اللون، فهل آن الأوان لنظفر من بلاد الإسلام بالتقدير الحيّ الذي يدفع عجلتنا إلى ما تستحقه بلادنا من مقدمة الصفوف، أم أننا لا نزال مطمح أنظار الدعاة في كل صقع من أقطار الأرض؟.

والحج.. ما هو الحج؟؟

أليس هو فكرة عالية هيأها الله لتهوي أفئدة الناس لهذا البلد، فتنسج في بطحائه أوشاجهم، وتتآلف روابطهم، وتنعقد في ظل قبلتهم ألوية الزحف المقدس؟

فما بالهم ينكرون عليه مركزاً ندبه الله له ورشحه لقياده.

ألأنه ضعيف؟؟

ألأنه متأخر؟؟

ألأن إمكانياته محدودة؟؟

إنها إساءة المسلمين إليه من ألف سنة. فقد نفسوا عليه هذا المركز وزاحموه على ما ميّزه الله وهيأوه لحياة "السبهللا" وعيش (تنابلة السلطان).

تواطأت دول الإسلام عليه فحاربت زعامته.. مدت له في العيش الرخي وأعفته من الجندية، وحرمته التعليم، وأغنته عن التصنيع وأنشأته لا يعرف من الحياة إلاّ أن يأكل.. ثم يدعو للسلطان ابن السلطان ابن السلطان.. خان.

وليتهم وقد بنوا لزعامتهم على أنقاض ما هدموا فيه استطاعوا أن يحتفظوا بما تزعموا.

لقد ضاعوا مع كل أسف.. بعد أن أضاعوا.. وليتك تدري أي فتى أضاعوا..

وبعد.. فهل يقتنع المسلمون بما كان، وهل يتوبون إلى قبلتهم فيولونها عنايتهم ويعقدون آمالهم في ظلها، ويتضافرون على تجلّتها وتقدير جيرانها ويتفقون على اعتماد زعامتها الإسلامية؟

أم يتركون آمالهم بدداً للدعاة لا توحدهم كلمة، ولا يجمعهم مركز له قيمته التي تهوي إليها أفئدة الناس؟

ثم الحج؟

ما هو الحج؟

أهو هذه الحشود التي لا تجد مَن يطعمها أو يؤويها؟

أهو هذه الحشود التي تسابقت إلى القبلة لتستعطي الناس في ظلها ما يشبع جوعتها؟

إذا ظل مركز الإسلام لا يستقبل إلاّ الشحاذ والمقتر والعاجز والجاهل وسائر الألوف التي لا تعرف من معاني الحج إلاّ أنها ظفرت بلقب الحاج، فثق أنه سيظل مركزاً عاجزاً لا يربح لحضارة الإسلام خطوة ولا يستفيد لمدنيته فائدة.

نتمنى لبلادنا عمراناً يضاهي أرقى العواصم، وتنسيقاً يجاري أحدث ما عرف التنسيق ونظافة فريدة في مثالها، وتنظيماً يرقى إلى أفضل تنظيم، ولكن الدوافع تنقصنا.

فإذا عرف المسلمون أن بيت الله للمستطيع، وأن الدِّين لم يكلف العاجز والجائع أن يتسكع في سبيل أن يحج، إذا عرف المسلمون كيف ينفقون عن سعة لفائدة هذه البلاد فسيضعون لبنة قوية في عمرانها ويهيئونها للتنظيم والتنسيق، أمّا أنهم يتركون موازنة البلاد تتحمّل الملايين في سبيل استعدادها للحشود الفقيرة وأنصاف الفقيرة وعددهم وحدهم لا يقل سنوياً عن مائة ألف، فإن في ذلك ما يعثر خطاها ويجعل الطريق أمامها طويلاً وشاقاً..

إذا عرف المسلمون كيف يجلّون قبلتهم ويقدرونها كمركز للبعث الجديد، ففي استطاعتهم أن يفخروا بما يرفع رؤوسهم عالياً بين سائر الأمم.

الحج في الجاهلية وصَدر الإسلام

بُعث النبي صلى الله عليه وسلم في وسط جاهل، فلم يكن عليه أن يقاوم ما عبدوا من أوثان أو نسكوا من منسك ضال فقط، بل كان عليه أن يصمد لهذه القيم الأخلاقية، وأن يقضي عليها، ويبني على أنقاضها قيماً جديدة تسود المجتمع في مكة وتعلمه إنكار السبيل الضال الذي ألفه.

كانت لهم تقاليد نادرة المثال في غرابتها، وكانت مع هذا تحتل مكانتها من التقديس والرعاية والحرمة بالرغم من شوائب الاضطراب التي كانت تشوب قواعدها.

ولسنا في حاجة إلى التدليل على هذا بما يطول سرده من الأمثلة فحسبنا منها مثلاً واحد له علاقته بهذا الشهر الذي نجلّه بين الشهور ونحترم مواقيته بما لا يدع مجالاً للتلاعب والهزء.

لقد كانوا يجلّونه بما لا يقل عن إجلالنا، ولكنهم لا يرون مانعاً من التلاعب في مواقيته إذا تعارضت هذه المواقيت مع مصالحهم، أو حالت دون بعض أهدافهم في الحياة.

كانوا يؤجلون موعده في بعض السنوات إلى شهر المحرم، لأن بعض مصالحهم اقتضت تأجيله أو يقدمونه في شهر القعدة ليستفيدوا من تقديمه، وربما دارت مواعيده على مدار السنة فحجوا مرة في شعبان، وأخرى في رمضان وغيرها في غير ذلك!

كان أمرهم في توقيت الحج وتعيين موعده فوضى، ومن الغريب أنها كانت فوضى من لون مضحك. فقد كانوا يتفقون على قواعد الفوضى ويعلنون نتائجها بين قبائل العرب لتمسي مرعية الجانب محترمة.

كانوا يستبيحون هذه الفوضى لأنهم كانوا يحترمون شهر المحرم، فيحرمون فيه الغزو والقتال، فإذا أبت ظروفهم أن تؤجل القتال أسقطوا المحرم من حسابهم وأطلقوا عليه اسم صفر، ومضوا إلى نهاية عامهم يسمون الشهور بغير أسمائها حتّى إذا انتهوا من

ذلك العام بعد أحد عشر شهراً صادفهم الحج في شهر القعدة، فأدّوا نسكهم فيه وكأنهم لم يتكلفوا شيئاً!!

إنه نسيء الشهور الذي حرّمه الإسلام، وذكر القرآن الكريم أنه زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلون ما حرم الله.

وقد قِيل إن أول مَن ابتدع إنساء الشهور في العرب مالك بن كنانة المضري المعروف وقد ظل ذلك متداولاً بين البيوت الكبيرة في القبائل يتولاه مسؤول خاص ليعلنه بين العرب كلّما قضت الحاجة ودعت الأمور وكان آخر مَن نسأ منهم أبو ثمامة جنادة بن عوف قبل أن يلغى النسيء في العام التاسع الهجري.

كان المسؤول عن النسيء يقوم بفناء الكعبة إذا أفاض الناس من مناسكهم فيقول أيُّها الناس قد أنسأت العام فيأتمرون بما يقول، ويطرحون المحرم من حساب العام الجديد، ويطلقون عليه شهر صفر ليحلّوا فيه ما بيّتوا من غزو. أمّا إذا انتفى الداعي ولم يخرجهم باعث خاص تركوا شهر المحرم على حاله ولم يطرحوه من أشهر عامهم.

ولما أهلَّت السنة التاسعة وقع الحج في ذي الحجة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد قدم أبا بكر لإمارة المسلمين فيه، ثم ألحقه علي بن أبي طالب منتدباً من النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغ المسلمين سورة التوبة التي نزل الوحي بها على إثر فصلهم من المدينة وبها أبطل النسيء وأعلنوا إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ المُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِين * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ (التوبة: 36–37).

وفي سورة التوبة ألاَّ يحج بعد عامهم هذا مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وأن لا عهد لمشرك ولا ذمة إلاّ أحداً كان له عند رسول الله عهد فعهده إلى مدته.

وفيها أن الله أمر بجهاد المشرك ممّن نقض العهد من أهل العهد الخاص ومن كان لا عهد له فأجله أربعة أشهر يرجع فيها كل قوم إلى مأمنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها.

وفي سورة التوبة إقرار عام لأمور شتى كانت متروكة لانتظار التحديد وفيها تفنيد واسع هيأ المسلمين يومها لقيم حديثة ومعايير لا تمت بصلة إلى القيم والمعايير التي كانت تسود العرب في جاهليتهم، وتوجه أفكارهم إلى ما كانت توجههم إليه من سبل ضالة.

وأهلَّت السنة العاشرة، فأعلن النبي صلى الله عليه وسلم عزمه على الحج ليكون إمامهم فيما جد من نسك، وما طرأ من تنظيم في أعمال الحج، فابتدر الناس من كل فج ليسترشدوا بأعماله، فمضى صلى الله عليه وسلم أمامهم في موكبه العظيم إلى مواقف الحج في سائر مشاعره مبيناً لهم أعمال النسك على وجهها الصحيح.

وفي موقفه صلى الله عليه وسلم من بطن عرنة خطب الناس على راحلته خطبته العظيمة الشهيرة بخطبة الوداع وفيها قرر قواعد الإسلام، وهدم مسائل الشرك، ووضع أمور الجاهلية تحت قدميه، وأبطل الربا، وحرّم الحرمات من الذمام والأموال والأعراض، وفصَّل كثيراً من شؤون الإسلام، ووصّى أمته بالاعتصام بكتابهم فقال: وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً.

أهَذه فكرة الحج الصحيحَة؟

لو عُنِيَ المسلمون بروح دينهم عنايتهم بالطقوس لكان لهم غير هذا الشأن الذي يقاسون اليوم آلامه.

ربما غشينا المساجد في زحام، وأهاب الخطيب بنا فمصمصت شفاهنا في تبتل. ربما صام الصائمون منا في عزم واكد، ربما تكلّف المريض أو المسافر فنسي رخصة الشرع وأصر ألاّ يمسك، ربما فتح المزكي أبوابه لينهل الفقراء من صدقاته، ربما حج الحاج ولم يقنع حتى يكرر ما فعل، ربما فعلنا هذا وأكثر من هذا، ومع ذلك فالأمر لا يزيد في أكثر ما نفعل عن طقوس درجنا عليها وأعمال نشأنا حريصين على التزامها.

لكنَّ شيئاً اسمه روح الدِّين يتجلّى في خشوع المصلّي، وتقوى الصائم، وإخلاص المزكي، وإنابة الحاج لا نكاد نجد أثره في أكثر أعمالنا معاشر المسلمين.

قد يغضب الغاضب فينا لقائم يصلي بنعاله؛ لأنه يجهل جواز الصلاة بنعال، وتثور ثورة المتزمت فينا لمفطر رآه لأنه لا يعرف أن الله يحب أن تُؤتى رخصه، وينكر المنكر فينا أية غلطة لأن سماحة الدِّين لم تشذب غلظته.

قد يغضب ويثور وينكر لأن شيئاً اسمه روح الدِّين لم يلمس مواطن الإحساس في نفسه.

قد يحتدم المغتاظ فينا لأن وظيفته في الوعظ تحتم عليه الغيظ، وقد يستمرئ القسوة لأن عمله في الإرشاد يغريه بالقسوة، وقد يشتط في عقوبة جاهل لأنه يملك ما يؤدّب به الجاهل، وقد يستعدي الجماهير على خاطئ لأن الجماهير تنساق بطبعها لمن يجيد إثارة أعصابها.

قد نحتدم ونقسو.. وقد نشتط ونستعدي في غير تبصر؛ لأن شيئاً اسمه روح الدِّين لم يخالط ملكات الفهم في أذهان أكثرنا معاشر المسلمين.

لا أدري كيف مضى بي هذا السياق؟

وأنا ما جئت اليوم إلاّ لأكتب عن أعمالنا في الحج.. أعمالنا التي تقلّصت في روتين بتنا مع كل أسف نحرص عليه حرصنا على الطقوس التقليدية.. أمّا روح الفكرة، أمّا حكمتها الدقيقة، أمّا غايتها السامية فقد ضل سبيلنا إليها.

لعلّ الجامع في كل شيء هو عنايتنا بالروتين في فرائضنا ومسنوناتنا وإهمالنا شيئاً اسمه السمو الروحي.

جئت لأقول إنّا ضللنا سبيلنا إلى الحج فتقلّص الحج في حركات وأعمال بدنية تبدأ بضجة الجيران قبل سفر الحاج من داره، وتنتهي ببيت المطوِّف حيث تزاحم للتصعيد إلى عرفات والإفاضة منها، ثم نلج في طلب العودة كما يلج طالب الإفراج من حبسه.

أهذا هو الحج؟؟

أهذه حكمته الدقيقة وروحه الغالية؟

أهذه فكرته الصحيحة وغايته التي فُرض من أجلها؟

أحججنا لنظفر بلقب الحاج، وكررنا العودة إليه ليُقال إننا معيدون أو معاودون؟

ثم لماذا كان الحج مجمع الفقراء وأوساط الناس بين فلاح باع طينته، وعامل رهن قيراطه، ومأخوذ استدان نفقته، وساذج لا يعرف من معاني الحج إلاّ أشواطاً يطوفها، ومسافات يسعاها، وأبعاداً يركبها، وألواناً من الهدايا يتأبطها عائداً مع سلامة الله إلى بلاده.

أين كبراء المسلمين ولا أقول أغنياؤهم؟؟ أين أصحاب الرأي ولا أقول عبيد الجاه منهم؟؟ وما بالهم لا يذكرون الحج ولا يفكرون في استغلاله كفرصة تلم الشعث، وتعالج وجهات النظر، وتتسع للتقارب والتعارف والتفاهم؟!

قل إني لا أدري؟؟ إنها جرأة على الله. أنا أدري أن روح الإسلام العالية باتت لا تلمس مواطن الإحساس فينا، وأن تعاليمه السامية استحالت إلى طقوس تقليدية، وأن معانيه الدقيقة عز عليها أن تخالط ملكات الفهم في أذهاننا.

مررت من أيام بحجاج يزدحمون في ظل حصيرة نصبوها على حافة أحد الشوارع، فعرفت أنهم لا يملكون ما يسكنون فيه.

ومررت بآخرين تفرّقوا في مسالك بعض الأزقة ليقضوا حاجتهم فعلمت أنهم عاجزون عن ستر سوءاتهم.

ومررت بغيرهم بسطوا أيديهم للمحسنين قبل أن يخلعوا ثياب الإحرام عن أجسادهم، ففهمت أن الجوع اضطرهم.

ومررت بنفر يماكسون في شراء إبريق في إلحاح متطرف، فبدا لي أن الفاقة تعلمهم المماكسة والإلحاح.

ومررت بجماعة يجادلون المطوِّف ليقبل سكنى عشرين شخصاً في غرفة فعرفت أن الفقر ألجأهم.

ومررت، ومررت، ومررت، فانتهيت إلى نتيجة مقنعة تتلخص في أن غالبية الحجاج في بلادنا مأخوذون بروعة الحج كطقس تقليدي، وأنهم يتكلفون ما لا يستطيعون، ويقحمون أنفسهم فيما لا يرضاه الدِّين لكرامة المسلم فربما أثموا أكثر ممّا يُثابون.

سوف يتعرّض المستظلون الحصيرة في هجيرة الشمس لضربتها، فنصبح مسؤولين عما أصيبوا به.

وسوف تتعرّض الناس لأذى المتفرّقين في الأزقة لقضاء حاجتهم فنصبح ملومين لما تعرّضوا له.

سوف تتعرّض سمعتنا لما يشينها بانتشار متسوّلي الحجاج فلا يُقال إن المتسوّلين أجانب عن البلاد.

وسوف تتعرَّض لما يؤذيها بالمماكسين في شراء التوافه من أسواقنا فلا يقال إن الإلحاح بالمماكسة هيأ ما يحدث.

وسـوف تتعرّض لما يلوثها بحشـد الحجاج في علب السـردين فلا يُقال إنه خطأ الحاج الذي لا يقبل أن يدفع لسكنه شهراً وبعض الشهر أكثر من عشرين ريالاً.

أهذا هو الحج؟؟

أنتكلّف الحج لنستظل من وهج الشمس بحصيرة؟ ونعجز عن قضاء حاجتنا في غير الأزقة، ونقضي أيامنا لا نجد ما نطعمه إلاّ ما نتسوّل ولا نستطيع شراء الإبريق إلاّ بعد أن نلح في المماكسـة، وإذا سـكنا فلا تتسـع جيوبنا لغير علب السـردين، أهذه حكمة الحج الدقيقة وروحه العالية؟؟

أهذه فكرته الصحيحة وغايته التي فرض من أجلها؟؟

أيسـتطيع الإسـلام أن يسـتفيد لكيانه في هذا الصـعيد المزدحم بالضـعفاء والفقراء والمتسوّلين؟

أين كبراء المسـلمين ولا أقول أغنياؤهم، أين أصـحاب الرأي ولا أقول عبيد الجاه منهم؟ ما بالهم لا يذكرون الحج ولا يفكرون في اسـتغلاله كفرصـة تلم الشـعث، وتعالج وجهات النظر وتتسع للتقارب والتفاهم والتعارف؟!

وأخيراً أين علماؤهم وقادة الفكر منهم؟ ما يمنعهم أن يغضـبوا لسـمعة المسـلم فيتقدموا إلى أصحاب الشأن في بلادنا أن يمنعوا دخول الحاج العاجز عن صيانة كرامته، ولا يبيحوا الحج لغير المستطيع القادر تمشـياً مع نص القرآن وضـناً بسـمعة المسـلمين وتكريماً لقدسية البلد الأمين.

هل يسمع هَذا حجَاجنا ؟

قرأتُ في عدد المصوّر الأخير كلمة ذكر الكاتب فيها أن السائح في لندن يبحث عن خرم إبرة يسكن فيه فلا يجد، وأنه استطاع بعد بحث طويل طبعاً أن يجد غرفة خبيثة ملعونة قميئة في لوكاندة من غير تواليت ومن غير حمام بـ 4 جنيهات في الليلة الواحدة.

إلى أن قال: وأنت وشأنك لا خادم ولا خادمة ولا خدمة.

فهل يسمع هذا حجاجنا؟ وهل يسمعه أولئك المتنطعون الذين يستغربون من بقاء بيوتنا على أوضاعها من أجيال سبقت؟

إني أعتقد أن مأساة بلادنا تتلخّص في هذه الألوف المؤلفة التي تفرض الحج على نفسها، وهي لا تجد ما تطعمه وإذا وجدته فإنها تعجز عن دفع 4 جنيهات لسكنها لا في ليلة واحدة بل في مائة يوم كاملة.

إن الأغلبية الساحقة من حجاجنا ترى أن ما تدفعه لخدمات المطوِّف وسكناها عنده شيء بالغ القدر، فهل جاءها أن كل ما دفعته لا يوازي أجرة ليلتين في غرفة خبيثة قميئة في بلد متمدن؟

إني أعتقد أن بلادنا لو اقتصرت على استقبال الحاج القادر الذي استكمل شروط فريضة الحج الشرعية لارتفع شأنها من أجيال وأجيال.

إن 50 في المائة من حجاجنا يتكففون الناس بحثاً وراء ما يسد جوعتهم ولا يضير كرامتهم أن يتخذوا الأزقة والشوارع وسائر المنعطفات سكناً لهم.

و 40% يجدون في جيوبهم أو (إخراجهم) الثقيلة الكفاف الذي يقيم الأود ثم لا يضيرهم بعد هذا أن يساوموا على القرش الواحد سوم المقل الذي يصر الدانق فوق الدانق، وربما حاول أن يغتال مطوفه ليسكن في بيته بالمجان، أو اجتمع إلى أربعين من بلده ليسكن معهم غرفة لا تستوعب شخصين لئلا يكلّفه المأوى طيلة شهرين أكثر من جنيه واحد.

ولدينا بعد هذا 10% من حجاجنا يمكن أن نسـميهم قادرين لولا أنهم أقلية لا يكفون لإفادة البلاد أو تغطية بعض ما تخسره في خدمة المقلين والشحاذين.

إني أسـتفتي رجال الدِّين في كل قطر يدفع إلينا هذه الألوف المؤلفة من المقلين والشـحاذين وأسـألهم: هل فرض الحج على كل هؤلاء مع عجزهم عن الإنفاق الذي يصون كرامة المسلم؟

وهل يجوز لهذه الألوف المؤلفة أن تتضـافر على إرهاق هذا البلد في كل موسـم فتكلفه ما لا يطيق، وتشـل حركته التقدمية، وتسـاعد على بقائه فقيراً في مؤخرة الصـفوف بينما تتقدم بلادهم وتأبى أن تسـتقبل الوافد –أي وافد– إذا لم يسـتكمل نفقاته وافية غير منقوصة؟

منازل القبائل والأفخاذ في مكة

هل تصلح لتسمية بعض شوارعنا؟

كان أحدهم قد أخبرني أن أمانة العاصمة تنوي تسمية الشوارع في مكة بعد إصلاحها وتسويتها، فاقترحت عليه أن تسمّيها وما يتفرع منها بأسماء تاريخية في ضوء أسماء القبائل والأفخاذ التي كانت تنزلها عندما شاع السكن في مكة، ووعدته أن أهيئ لذلك جدولاً يعني على وجه تقريبي منازل الأفخاذ والعشائر، واليوم وقد بدأنا بإصلاح الشوارع وتسمية أهمها فإن لأمانة العاصمة إذا شاءت أن تعين لكافة الدروب المتفرعة أسماء تاريخية، خصوصاً الأزقة والشعاب التي لم يطلق عليها أسماء إلى اليوم، أو أطلق عليها من الأسماء ما لا يليق.

إني أتقدم إليها بالجدول الآتي لترى رأيها فيما تختاره للتسمية في ضوئه إذا عنّ لها أن تختار.

وربما لوحظ في الجدول أسماء أفخاذ أو عشائر تتكرر بتكرر المواقع، وهذا يعني أن بعض هذه العشائر كانت تنزل في مكة في أكثر من موقع، وفي استطاعتنا أن نكتفي بأحدها عن الآخرين.

وادي طوى: يصل جرول بالعتيبية إلى جرول الحلقة تقريباً.

درب الهذليين: حول أبي لهب بجرول.

كَداء: بفتح الكاف حول مقبرة الشيخ محمود.

ثنية البرمكي: الحفائر وقد شقها خالد البرمكي.

الحزورة: حول السوق الصغير.

دور أم هانئ: بين السوق الصغير ومداخل أجياد.

منازل بني عائذ: بداخل أجياد.

أجياد الكبير: هو المؤدي إلى بير بليلة.

أجياد الصغير: هو المؤدي إلى السد.

سوق البزازين: حول أجياد.

منازل السايب: حول أجياد وفيها البيت الذي كان يتاجر فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع شريكه السايب بن السايب.

منازل بني يحتم: حول أجياد الكبير.

منازل بني مخزوم: حول أجياد الكبير.

جادة الأزد: حول بناية الصحة بأجياد.

منازل بني عدي: حول أجياد.

منازل ابن جدعان: حول أجياد وفيها كان حلف الفضول.

منازل آل سلمة: حول أجياد.

آل المغيرة: حول أجياد.

شعب الخاتم: بين أجيادين.

منازل حكيم بن حزام: حول أجياد الكبير.

منازل بني مخزوم: وهي تتسع لأكبر جزء من أجياد.

منازل آل صفي: أوائل المسفلة.

آل عبد الدار: أوائل المسفلة.

المسفلة: اسم تاريخي كان يطلق على أسفل مكة جميعه.

آل المغيرة: حول المسفلة.

الحتمة: في المسفلة.

منازل بني جمح: حول المسفلة.

شعب خم: أواخر المسفلة.

الماجل: مجمع المياه في المسفلة ومنه سمّي بركة الماجل.

الليط: بين المسفلة وجرول.

الأقحوانة: حول ذلك.

منازل عدي بن كعب: حول الصفا.

القشاشية: نسبة للشيخ القشاشي.

بنو زهرة: حول القشاشية.

بنو عدي: حول القشاشية.

بنو سهم: حول القشاشية.

آل الأرقم: حول القشاشية.

دور العباس: حول القشاشية.

بنو لؤي: حول القشاشية.

بنو سهم: حول القشاشية.

بيت خديجة: خلف الشارع اليوسفي.

بنو سفيان: قبيل المدعى.

آل عتبة: حول المروة.

آل ياسر: حول المروة.

المحناطة: قبيل المدعى.

آل الحارث: المدعى.

آل نافع: حول المروة وسويقة.

جبل الديلم: يطل على المروة والقرارة.

درب الخزاعيين: يطل على المروة والقرارة.

منازل آل الزبير: حول سويقة.

منازل آل شيبة: حول سويقة.

آل زرارة: حول الشامية.

قعيقعان: جبل يشرف على الشامية إلى جرول.

الشامية: سمّيت بذلك لوقوعها شمال الكعبة.

القرارة: هي قرارة المدحا كانوا يلعبون فيها المدحا وهو مستدير مثل (البارجو) ولعلّه هو.

فلق ابن الزبير: اسم تاريخي للطريق الذي فلقه ابن الزبير.

النقا: اسم تاريخي وهو القطعة من الرمل المحدودب.

شعب ابن يوسف: هو شعب علي.

شعب عبد المطلب: حول شعب علي.

شعب أبي طالب: حول شعب علي.

سوق الليل: اسم مستحدث لسوق الفقراء بالليل.

طريق الراية: حول مسجد الراية في الجودرية.

شعب آل عامر: من شعب عامر.

شعب آل العاص: من شعب عامر.

دور بني عبد مناف: من شعب عامر.

دور بني بكر: حول شعب عامر.

شعب أبي زياد: حول شعب عامر.

دور أبي موسى الأشعري: حول شعب عامر.

شعب أبي دب: حول شعب عامر.

ثنية الحجون: وهي الحجون القديمة في الجبل الذي يقع خلف بيت الرشيدي وكانت قبور الجاهلية في ذيله.

نزاعة الشوى: بين شعب عامر والمعابدة.

شعب الصفى: حول المعابدة.

خيف بني المصطلق: حول المعابدة وشعب عامر.

شعب بني كنانة: حول المعابدة وشعب عامر.

دور آل عتبة: حول المعابدة وشعب عامر.

دور آل ربيعة: حول المعابدة وشعب عامر.

الخرمانية: حول المعابدة.

المحصب: بعد المعابدة.

الأبطح: بعد المعابدة.

ثنية المدنيين: هي التي نسميها الحجون وقد سهلها معاوية ثم الشريف الحسين منذ 40 سنة. ثم أتم إصلاحها آل سعود.

أبو دجانة: جبل يشرف على الطريق إلى العتيبية.

ألم يأتك نبأ ما بنَينا للحضَارة؟

أكبر ظني أنك تتناسى.

وأحسب أن مثلك لا يجب أن يتناسى.

أتراك تتناسى وأنت خير مَن يعلم أن الحضارة بكل آفاقها ما كانت في أحد الأيام ملكاً لأمة بذاتها.

لا.. ولا كانت وقفاً على شعب يدعي أنها صناعة يده.

ثق أنك لا تغالطني بقدر ما تغالط نفسك.. وإن مأساتي فيك.. في هذا اللون من تناسيك.. في هذا الكون من مكابرتك لا تعادلها مأساتي في كل ما عرفت من أخلاقك.

أنا أعلم أنك مفتون بالغرب.. مفتون بحضارة الغرب، ولكن تُرى هل يطغى الافتتان على كل معلوماتك الواسعة؟ وأنت من أنت غزارة في الاطلاع؟؟

لا.. لا تقل إنك لم تقرأ عن البابليين ولم تدرس تاريخ الآشوريين والفينيقيين. ولم تدرس ما السبئيون ولا المصريون.

لا.. لا تقل هذا وأنا أعرف أنك قرأت وقرأت عن كل هذا وأنك درست عشرات الحضارات قبل هؤلاء ومثلهم بعدهم.

ترى هل تحاجني إذا قلت لك إن الحضارة ليست نتاج جيل وإنها ليست إلاّ وليدة الحياة من يوم أن عرفت الحياة. وأنها إلى هذا ربيبة الحاجة من أول يوم شعر فيه الإنسان بضرورة الحاجة.

أحسبك وبعض المفتونين بالجديد الجديد تنغضون إليّ رؤوسكم وفي أيديكم ما يشير إلى صفحة تبحث في شؤون الفضاء أو كراس يفصل قصة الهبوط على القمر.. وكأنكم بهذا تريدون أن تضعوا يدي على أبدع وأروع من كل ما كان.

سوف أسلم طواعية بكل هذا الذي تقولون، وسأمضي بمضيكم في كل ما ترون فأنا لا أعلم حضارة بلغت مثل هذا الشأو الذي أشهده اليوم ولكن..

ولكن إذا ادّعيت أن مئات الأمم مرت بتاريخ الأرض كانت تتوارث الحضارات أمة بعد أخرى لتنميها.. لتغذي روافدها.. لتسلمها إلى من يليها فيرعى نماءها وإن ظل على هذا حقبة بعد أخرى حتى انتهت مسيرتها إلى ما نشهد اليوم، وإنها ستنتهي بعد اليوم إلى أغرب ممّا نشهد مما لا يقره أخصب خيال على وجه الأرض.

إذا ادّعيت هذا فهل لكم أن تسلّموا بما أدّعي؟ وهل بينكم مَن يصافحني على كلمة سواء نتفق فيها على أن الحضارة ليست نتاج جيل واحد. وإنها عاشت حياتها وليدة الحياة من يوم أن عرفت الحياة، وإن مئات الأمم اشتركت في تغذيتها ونمائها حتى انتهت إلى هذا الإبداع الرائع، وإن ما نشهده غداً سيبدو أروع وأبدع ما دامت الليالي حبالى لا يعجزها أن تتمخض عن جديد من الأمم لا تعرف مكانهم من الغيب، وليس بوسعنا أن نقدر كفاءتهم في استغلال ما ورثوا ومدى قدرتهم على نمائه وإلى أي حد سيحققون من الأحلام.

ألكم بعد هذا ما تقولون؟

ما أحيلاكم وأنتم تتهامسون..

ففي هذا بعض الحق ليس لي أن أنكره.

لا أنكره وأنا أعرف أن الحضارة في مسيرتها الطويلة من تاريخ الأرض مرت بمئات من الأمم، أو مروا بها دون أن تصافحهم أو يصافحوها. دون أن تطبعهم أو يطبعوها، دون أن يستفيدوا من روافدها أو يتركوا أثرهم في جوانبها ولكنها أمم كانت في رأي التاريخ لا تزيد عن غثاء.

كانت أمماً يصح أن تقول عنها إنها لم تعش لأنها كانت لا تستحق أن تعيش. وما كان قرارها فوق الأرض قرار ميت عاش ينتظر الدفن.

لا يجب أن نلج في خلافنا ما دمت وإياكم لا نجهل أن الحضارة لا تصافح في التاريخ إلاّ مَن يستحق أن يعيش، وأنها لا تصافح إلاّ أقواها لهم أهليتهم ولهم قابليتهم..

ولديهم من الاستعداد الحيوي ما يهيئهم لميراث الحضارة ويعدهم لتطويرها، وأن أمة اليوم وطأت فدافد في القمر ما لمستها قبلها قدم بشر لدليل على كفاءاتها وهي تنمي ما ورثت من حضارة الحياة.. دليل على استعدادها الحيوي لأكثر من هذا الإبداع.

أظنني بعد هذا استطعت وإياك أن نجتمع على رأي لنترك المعاني بعده تتداعى إلى جوهر البحث.. ولا عبرة بمن يقول إنك أمق وإنني أمق وأنه لا أمل في أن نتفق.

لقد كنت أسألك قبل اليوم عن دورنا كعرب في مسيرة هذه الحضارة التي نشهدها فكدت كمن يوارب ثاني عطفه.

تراك ما خطبك؟ وأنت خير من يعرف..

ألم يأتك نبؤنا يوم صافحنا الحضارة في حقبة طويلة من مسيرتها.. ألم يأتك أنها وجدت من علمائنا وفلاسفتنا ورجال الفكر فينا من القابلية ما هيأنا لميراثها وساعد على استغلال روافدها؟

ألم يأتك أننا كنا خير مَن جاهد في نمائها وتطورها.. وأننا أسلمناها عندما أسلمناها لورثتنا في موضع أفضل منها يوم ورثناها؟

أتراك ضل بك الهوى فنسيت؟

أم تراك أغوتك الفتنة التي أغوت آلاف المفتونين بزينة ما نشهد اليوم؟

أولئك أقوام لا تتسع آفاقهم لمثل هذه الأبعاد.. حسبهم من هذا النظر السطحي الذي لا يمتد إلى أكثر من أنوفهم سيقول البلهاء منهم أين كان هذا ومتى؟

قل: عودة إلى التاريخ إن كان لصدوركم ما يتسع لقراءة التاريخ.

عودة إلى التاريخ لتروا أن جميع هذه الأفانين التي تلمع اليوم في آفاقكم كانت مخدومة قبل أن يتفتق وعي صناعها في جيلكم.

عودة إلى التاريخ إذا كان يلذ لكم أن تعرفوا أن بين لابتي هذا المشرق عاشت في أحد الأيام أمة دوّت لصيتها آفاق الأرض، وعنت لسلطانها جبابرة الحياة.

عودة إلى التاريخ لتدركوا كيف اســـتطاعت هذه الأمة في جيل من حياة الأرض أن تضــع يدها على مقدرات الحضــارة، وأن تبني لمجدها صــرحاً قليل النظير. وأن تحتل بما بذل عباقرتها مركز الأستاذية. وإنها إلى هذا لم تبخل بعلومها وفنونها وسائر بحوثها على ورثتها من شعوب الغرب حتى هيأتهم للعمل الباهر الذي نشهده اليوم.

أسمعك تتهمني بالعظامية.. لا يا صاحبي.. حذارِ أن تأخذ بلحيتي أو برأسي..

فليس في الأمر إلاّ دروس علينا أن ننتزعها من الماضي، عسانا نثبت بها أن أمة كان لها في أحد الأيام مثل هذا الســبق لا يجوز أن ننفي عنها قابليتها إذا كانت تؤكد عزمها على استئناف ما فات.

أفهمتني؟

لِمَ يكبر الأمر إذن في صــدرك وأنا أذكّرك بما فعل أبوك لتغضــب لكرامتك وتأبى على نفسك إلاّ أن تستأنف طريقك إلى ما كان؟

ثم أي غريب فيما حدث؟؟..

لئن زحف التلميذ اليوم إلى مكان الصــدارة ليبزُّ أســتاذه فتلك ســنة الحياة من أول يوم خلقت فيه الحياة.

أنت تشـــهد دون شـــك (صـــناديق العيد) تدور بدورات محورها بين صـــاعد وهابط فدونك وما تستنتج.

دونك لترى أن الواطئ لا يلبث أن يأخذ دوره إلى السموق ليلحق العالي. وأن العالي لا ينشب أن ينحدر تحت تأثير الحركة التلقائية ليعطي مكانه للصاعد.

إنه دأب الأمم الحية في حدود الأرض فلا تأســـف لمن يتباله ولا تأس على القوم الغافلين.

دعني أذكرهم فيك ببعض ما يحضرني وأنت من خير من تنفعهم الذكرى.

دعني أذكرك بأبي بكر الرازي وأنت به أعرف مني.

لا أحسبك تجهل أن أبا بكر الرازي كان مصدراً رئيساً للكيمياء، وأن بحوثه من هذا النوع كانت نواة لمئات البحوث التي جدت في عالمك اليوم. وأنه إلى هذا كان مفخرة من مفاخر الطب العربي استطاع بما يملك من مواهب فذة أن يعالج في فنه آفاقاً كان لها أثر فعّال في كثير من مكتشفات اليوم، وأن ابن النديم أحصى له في كتاب الفهرست مائة وثلاثة عشر مؤلفاً كان أكثرها يبحث في العلوم الطبيعية، كما أحصى له ثماني وعشرين رسالة في الكيمياء ذكر المطلعون عليها أنها كانت عميقة الأسرار، وأن أكثرها نقل إلى أكثر من لغة في أوروبا فكانت منبعاً ثراً لمقومات الفكر في أوروبا.

وأحسبك لا تجهل جابر بن حيان، فقد كان علماً من أعلام الصيدلة.

حسبك أنه كان أول مَن أسس لها مدرسة خاصة بها، وأنه كان أول من ألّف في علم الأدوية، وأنه أول مَن ابتكر إنشاء مخازن عامة للصيدلة، وأنه كان يفرض على الصيادلة أن يجتازوا امتحاناً خاصاً ليبيح لهم تعاطي بيع الأدوية. وأنه فرض مثل هذا على الأطباء، فكان لا يبيح التطبيب إلاّ لمن اجتاز بين يديه امتحاناً شاقاً، واستطاع أن يظفر بالشهادة مذيلة بتوقيع ابن حيان.

ويوحنا؟؟

أتراك لم تقرأ الكثير عما تناقل الثقات من أخبار يوحنا؟

أتراك لا تدري أنه كان أول مَن فكر في علم التشريح من أطباء الأرض.

وأنه أول مَن رأى أن يجري تجاربه على جثة قرد.

وأن تجاربه هذه انتهت إلى نظريات كان العلم لا يحلم بها.. وأنه بما فعل مهد الطريق لكل نطاس التشريح إلى يومنا هذا.

وأنه إلى هذا كان أول مَن عُني بعلاج أمراض العين، وألف في هذا أكثر من كتاب ضاع علينا أكثر ما فيها، واستطاعت خزائن الكتب في أوروبا أن تجمع من شتاتها جملة طيبة يعتد بها.

أتلومني بعد هذا؟

أتلحاني وتعذلني؟

أترى من السـهل أن تصـمني بالعظامية، أو تنظر إليّ نظرتك إلى من يتمرغ في تراب الأحداث؟

دعني أكبرك عن هذا فنحن نعايش ملابســات قمينة بأن تحيى فيها ذكريات تحيي آمالنا في صـلاحيتنا للعمل المنتج، وتبعث الثقة العالية في نفوس شـبابنا فلا يضـلّلهم مضلّل يرى أن أهليتنا لا تحفز لمصافحة الحياة في أعلى مراتبها.

أراك وقد بدأت تستعجلني.

هوّن عليك فمدى النبوغ في عصـر أمتنا الزاهر أوسـع من أن تسـتقصـيه بمثل هذه العجلة.

بودي أن أحدّثك عن ابن اسـحق الكندي. ولكني أخشـى أن تكون معارفك عن مثل هذا النابغة أوسع من معارفي.

دعني أتركك لما أعرف من مكرك لأبيح لنفسي أن تمضي في سياقها.

حسـبي أن أذكرك بعلامة حبس نفسـه على التوفيق بين نظريات أرسـطو وأفلاطون، وأنه ما لبث أن خرج بنظريات لا تمت إلى المدرستين بصلة ذات بال، وأنه استطاع فيما بحث أن يشـير إلى بعض أخطاء شـابت بعض النظريات التي اعتقدتها الأجيال قبله اعتماداً على كفاءة القائلين بها. وأنه إلى جانب هذا عني بدراسة النجوم فكان أبرع من نظر في ذلك، ولا تزال بعض قواعده في علم النجوم حية إلى اليوم يأخذ بها كثير من المشـتغلين في المراصـد الفلكية كما عُني ببعض فروع الكيمياء حتى قيل إن مؤلفاته في الفلسـفة والتنجيم والكيمياء بلغت نحو مئتين وأن بعضـها مترجم إلى أكثر من لغة أوروبية، وأن بعض هذه المترجمات عاشـت ردحاً طويلاً تدرس في أكبر جامعات أوروبا كما قيل إن جمعية في فرنسا كانت قبل قرنين تطلق على نفسها جمعية إخوان الكندي،

وأن أعضـــاءها البارزين كانوا يكبون على دراســـة ما عثروا من مخلفاته، وأن صـــندوق الجمعية كان ينفق من سعة في سبيل البحث عما فقد أو توزع بين أشهر المكتبات في الغرب أو الشرق.

والطريف في أمر هذا النابغة إذا كان يعجبك ما يطرف من أمره أن ذهنه المشـــغول بالكثير المعقد من النظريات العلمية لم يمنعه من النظر في الموســـيقى، فقد توســـع في تحليلها نظرياً وتطبيقياً.. حلل الغناء الموزون كما تقول ترجمته إلى أوليات كانت نواة بعده لدراسات واسعة في الأندلس، حيث انتقلت منها إلى فرنسا ثم إلى كثير من ممالك أوروبا..

ولبحوثه في الموسيقى أربع رسائل تركت له شهرة واسعة في فن الموسيقى كما تقول ترجمته.

ترى هل تبيح العصـامية لنا إذا كنا عصـاميين بحق أن ننسـى فضـل هؤلاء على نماء الحضارة وتغذيتها بالغزير النافع الذي مهّد لحضارة أوروبا سبيلها اليوم إلى التبريز؟

ثم ماذا عن الفارابي؟

هل لمثلك أن يتجاهل أنه كان أول مَن تناول بحوث النفس في فلسفته قبل أن تنفرد هذه البحوث بعلم خاص ليطلق الأوروبيون عليه علم النفس؟

إن أكاديميات أوروبا قبل نحو قرنين كانت تتخذ من دراســـاته النفســـية نبراســـاً يستضيئون به في بحوثهم.

وهل لمثلك أن يتجاهل عنايته بالآراء الصوفية وأنت تعرف من أسماء مؤلفاته في هذا الصدد ما يدلل على مدى كفاءته وقدراته على التعمق وتحليل أصولها في بحوث ذاعت شهرتها؟

وهل لمثلك أن يتجاهل عنايته بدراسة الفرق بين كثير من الفرق الإسلامية؟

أحسبك ستعجب –وأي عجب– لرجل يترك مجال اختصاصه ليتفرغ لدراسة التشريع الإسلامي ويتعمق في بحث النظريات التي فرقت بين بعض الفرق الإسلامية ليعلل أسبابها، ويحقق ما بني عليها تحقيقاً منطقياً فكانت رسائله في هذا عمدة لكثير من روّاد البحث المستشرقين.

ولا أدري أي عجب يستغرقك وأنت تقرأ من ترجمة هذا الرجل أنه عُني بدراسة بعض الظواهر التي سمّاها ما وراء الطبيعة، وأنه تراءى له في أحد الأيام أن نظم الحياة السياسية حرية بأن يفلسفها على نحو خاص فألف رسالة مستفيضة عن ذلك، وساقه البحث إلى نظريات جديدة رآها صائبة في سياسة العالم، فكانت رسالته المشهورة التي أطلق عليها (المدينة الفاضلة).

يقول متتبعو آثاره في هذه الرسالة وفي غيرها عن السياسة المدنية إنه كان يقرر الأسس التي استوحاها من فلسفته مستقاة من آراء مَن سبقه من فلاسفة اليونان وهي أسس تفرض التعاون الطبقي بين أفراد الأمة الواحدة بصورة متتالية.

ويقولون: إن فلاسفة روسيا الشيوعية لو تهيأ لهم بحث نظرياته لأغناهم ذلك عن كثير من نظرياتهم الفوضوية التي فرضوها في صور مؤلمة.

أتسمعني؟

ويل لي منك يا رجل.. فقد أكثرت عليك في مجال لا أنكر أنه بعض معارفك فهل تسامحني؟

إن السماحة بعض مميزاتك فما عليك إذن إن أنت سامحتني؟

وصدقني إن من بعض مزاياك الفاضلة ما يغيظني.

وإلاّ فما معنى أن أسمعك تذكر أفذاذ رجال الفكر في بلد أجنبي لتثير الغيرة فيمن حضرك من الشباب رجاء أن يحذوا حذوهم، وفي استطاعتك وأنت مَن أعلم مدى حصافتك أن تثير نخوتهم بذكر الأفذاذ في تاريخهم ليستيقنوا أنهم أحفاد أمة كان لها

شأنها، وأنهم يدرجون على أرض لا يصح أن يرتابوا في قابليتها لتربية الأساطين في كل فن.

إنها كلمة ما أنشأتها لأناقش بها عريفاً مثلك بقدر ما أنشأتها لأخاطب فيك بعض الغفل الذين لا يقرأون من تاريخهم ما يثير نخوتهم.

وعسى أن تكون لي إليهم عودة أطول.

الأمل كبير في الخطوة الجديدة الموفقة

إنها خطوة جديدة!!

إنها خطوة بدأت تتألّق في طلائعها أضواء كاشفة.. بعيدة المدى فهل صدقنا العزم؟؟

إن من أبرز الشخصيات العاملة في سبيل هذه الخطوة مَن يهيب بك، فاسمع ما يقول أحد كبار المسؤولين:

"إن لحكومة جلالة الملك اتجاهاً خاصاً!! إن الحكومة مصممة على العمل لشيئين:"

–ترى ما هما؟

إنها التنمية الاقتصادية. ورسم سياسة متكاملة لتنفيذ التنمية في مختلف القطاعات.

–حيهلا.. وبعد..

إنه يقول.. وفي قوله هذا أقصى ما يؤمله شعب متطلّع إلى الحياة الحقة من حكومة تمتاز بغيرتها وصدق عزمها.

إنه يقول وبالحرف الواحد:

"عندما تثبت الحكومة أنها جادة في بث الثقة الاقتصادية. وعندما تثبت مقدرتها على حماية الإنتاج المحلي، وتشجيع المشاريع الإنتاجية الأخرى فإن كل صاحب رأسمال سيسارع إلى توظيف رأسماله في البلاد."

وهو يعني بلا شك إلى جانب هذا أن الأيادي العاملة ستجد ما يوفر لها الرفاه والسعادة.

ويتحدث معاليه عن مشاريع الحكومة القادمة ليقول: إننا بهذه الطريقة نترك النقد يسيل في الأسواق ونستطيع أن نساعد الجمهور.

أجل يا صاحب المعالي، فالبلاد لا ينقصها شيء كما ينقصها أن يسيل النقد في الأسواق ليقضي على الكساد الشائع في سائر مرافقنا.

وهو يشـــير إلى التقشـــف الذي تكلّفناه في أعوامنا الأخيرة لندعم احتياطي الدولة فيقول:

"إني أحب أن أؤكد اليوم قوة مركزنا المالي.. وإننا نبحث عن مصـــادر جديدة غير البترول لنزيد في دخل البلاد."

ويقول: "إننا نريد إيجاد العملة في أيدي الناس.. إن بند الأمور المستجدة سيسـاهم في هذا السـبيل.. إني أطمئن الجميع أن هذه السـنة المالية بتوجيه جلالة الملك وتعاون الوزراء ستكون سنة خصب ونماء ومشاريع."

أجل ستكون سنة خصب! ونماء! ومشاريع! لأنه إلى جانب هذا يقول:

"ســـنصـــرف مئات الملايين على البحث والتنقيب والدراســـة على تنفيذ بعض المشاريع.. إن سياسة الحكومة الاقتصادية قائمة على إيجاد مشاريع سريعة.. إن التنمية الاقتصادية ستدرس موضوع شؤون الزراعة، والمعادن، وشؤون البادية، والتعليم، إن من مهام هذا الجهاز أن يخطط لكل النواحي، وأن يدرس بدقة واستيعاب."

أجل يا صاحب المعالي فقد أرهقنا الارتجال من عشرات السنين وضيّع علينا آلاف الفرص، وبدد ثرواتنا في غير طائل، وعطّل أيادينا العاملة، وترك باديتنا تســتعطي لقمة العيش ولا تجد مَن يمنعها أو يشـــير أمامها إلى الطريق الذي يحفظ عليها كرامتها ويهيئ لها من الأعمال ما يغنيها عن ذل الحاجة ويشبع جوعتها.

إن معاليه يطمئن الشـــعب في بيانه البليغ، ويفرش الورد في طريقه: "إن جهاز التخطيط الاقتصادي سيشرف على تخطيط الأعمال والمراقبة –أجل والمراقبة– نحن لا نريد وفراً في نهاية السنة. بل نريد من الوزارات أن تصرف جميع الاعتمادات الواردة في ميزانيتها."

ولماذا يريدون للوزارات أن تصرف كل اعتماداتها الواردة في الميزانية؟؟

إن معاليه يقول: "يجب أن نصرفها في سبيل إنعاش الحالة الاقتصادية."

هل يكفي هذا؟؟

إنّه يمضي إلى أبعد من هذا، فهو لا يكتفي بعرض السياسة الجديدة وإيضاح النوايا الكبيرة التي يعتزمون النهج على منوالها، بل يريد من الصحافة أن تتابع أعمال الحكومة بالنقد الصريح.. "إني أطلب منكم جميعاً أن تقولوا كل شيء بصراحة.. انتقدونا، وجّهونا."

سنفعل هذا يا صاحب المعالي سنشايع الخطوة الجديدة، ونتابع أعمالها، ونصارحكم القول في نزاهة وإخلاص ما دمتم تهدفون ونهدف لإنهاض البلاد وإسعادها.

نحن كسَالى في أفكارنا وأعمالنا

لا أعتقد أنك تجادلني في هذا!!

أنا كسول.. وأنت لا تقل عني كسلاً.!

ويشترك معنا في هذا الكسل أبوك وأخوك وحموك.. وذو مال!!

أترتاب في هذا؟

إذن فخذ على يديك.. وثق أنه من الخير لي ولك أن نتكاشــــف، وأن نشـــير إلى عوراتنا بصراحة واضحة؛ لندلل على أننا أمة تستحق أن تعيش.

أتسمعني.. خذ على يديك:

نحن –وقبل كل شـــيء– كســالى في أفكارنا.. فأنت إنســـان راعتك خزانتك التي اكتظت بالمال، فرأيت أن تفتح منها نافذة إلى النور، فماذا تصنع؟؟

بـدأت تبني محطة لتوزيع البنزين، ورأيتك تفعل هـذا فما لبثت أن قلّدتـك.. وإذا محطتي تواجه محطتك، ورآنا أبوك وأخوك وحموك وذو مال فما لبثوا أن أنشـــأوا مثل محطاتنا، فلا تتكامل السنة والأخرى حتى تكون المحطات قد تزاحمت في أضيق حيز!!

أتريد تفسيراً لهذا؟

لا أعتقد فليس في المسألة ما يستحق أن تتكلّف له التفسير!!

ليس في المسألة إلاّ أننا كسالى في أفكارنا.. إن نشاطها محدود لا يتسع مداه إلى أبعد من أنوفنا، وليس تحت أنوفنا اليوم إلاّ محطة بنزين فلنبنِ مثلها.

لا يتســع نشـاط أفكارنا لصـنع مادة للحبر، أو فرن للقزاز، أو مخرطة للدبابيس، أو أي شيء يقصينا عن المضاربة ويفرد لنا فرصة لا نزاحم نحن فيها ولا يزاحمنا أحد.

لا.. إن أفكارنا لا يتســع نشــاطها إلى مثل هذا المدى، فلا تسـتغرب زحامنا في بناء محطات للبنزين، ومصانع للكولا ومشتقاتها..

لا تستغرب زحامنا في أسواق البقالين والعطارين والقماشين والمطوفين..

لا تستغرب زحامنا على صنف من الحرير نستورده، أو نوع من الكراسي نعرضه، أو نموذج من الدواليب نزاحم به غيرنا..

لا تستغرب هذا فنشاط الأفكار محدود لا يتسع لابتكار الأعمال صناعية كانت أو تجارية، ولا يقوى على اختراع المجالي وتنويعها.

وهل تريد بعد هذا لوناً آخر من الكسل؟؟

إن البقال في بلادنا والعطار والقمّاش لا يرضيه أن يخدم دكانه أو تجارته أو حتى صناعته المحدودة كالسمكرة والحدادة حتى يستخدم (صبياً) أو أكثر.

إنه إنسان يحب أن (يتسلطن) فوق كرسيه في صدر الدكان أو على حاشيته، وعلى صبيه أو صبيانه أن يباشروا أعمال الدكان الهامة.

ثم.. أليس لنفسك عليك حق؟. إذن فما يمنعنا أن نترك الدكان للصبي آناً من النهار أو طرفاً من الليل ما دام يعرف كيف يقابل الزبون ويتقن تصريف البضاعة؟

وتسمع صاحب الدكان يتألم لأن وارداته لا تغطي نفقاته، بالإضافة إلى أجرة الدكان وراتب الصبي أو الصبيان.. فتسأله: وما شأنك بالصبي أو الصبيان؟ فلا تجد لديه إلاّ ما يسكتك ولا يقنعك!

وعلى مثل هذا المنوال يجري الأمر في بيوتنا.. فسيداتنا اليوم يهزأن بذكرى جداتهن اللاتي كن يباشرن بأيديهن كل شؤون البيت.. إنهنّ اليوم يأبين ألاَّ يكلن خدمة البيت إلى مَن يتولاها.. وربما توسعن في هذا، فأفردن المطبخ لخادمة، والغسيل والكي إلى أخرى!! وربما أستعن بغيرهما لكنس الدرج أو تلميع الأواني.. وتفرغن استعداداً للخروج.. أو انتظاراً لزوّار كريمات (وهات يا متولي.. خد يا حسنين!!).

أرجو ألاّ تغضب سيداتنا لما أقول.. وإذا أبين إلاّ أن أعتذر فيما فرط فسأبادر إلى ما يطلبن لأني عشت أخافهن خوفي من أمي يوم كانت تضربني بمكنستها.

ومع هذا فلا بد لي من أن أعض على كفي، وأصارح سيداتنا كما صارحت سادتي.

إن الإنسان المتمدن اليوم قلّ أن يعرف هذا التواكل.. إنهم هناك يخدمون أنفسهم في أكثر مجالي الحياة، وإنهنّ هناك يضعن أيديهن في الغالب الأعم في أكثر شؤون البيت ابتداء من فرن الفطائر إلى مغزل النسيج..

والطريف في أمر أصحاب الدكاكين والمتاجر عندنا أن بضائعهم لا تقبل قيداً أو تسجيلاً، وأن صبيانهم على الدوام موفورو الأمانة، نظيفو الذمة لا تشوبهم أو بعضهم إلاّ شوائب بسيطة تظهر نتائجها يوم تبرز ثرواتهم على أنقاض متاجر (أعمالهم).

ربما تسأل: لماذا كان الصبي موفور الأمانة.. وهنا لا أبعد بك طويلاً فأنت تعلم أن الكسل حتى في تدقيق الحسابات أو مراقبتها يغرينا بافتراض الأمانة ويلزمنا الثقة حتى بمن نخافهم.

ويصطنع أحدنا بعض المهن فلا يستغني عن الخادم يكل إليه (الدقة) بعد الأخرى ثم لا يتركه حتى ينفرد بسائر أعمال المهنة ويبقى العم عن كثب يتفرج فلا يحول الحول أو أخوه حتى يكون قد استعاض بما فرط من أسرار المهنة كثيراً من أرباح النوم.

ويلازمنا الكسل على هذه الصورة في أكثر مناحي حياتنا، لهذا فنحن نتهالك على الوظيفة ولا نجيد من الأعمال الحرة إلاّ أيسرها، فنتزاحم على الاستيراد ولو أردنا أن نستقصي مآسي الكسل في مجتمعاتنا وبين طبقاتنا لطال أمد الاستقصاء.

ليت مدارسنا تحارب الكسل قبل أن تحارب أبشع الرذائل، فالأمم لا تعيش ما عاش الكسل يتخلل صفوفها.

تعالوا نبدأ الطريق.. فمن هنا بدأ الناس.. ومن هنا كان الطريق.!!

إلى متى التواكل؟

لا يزال يعيش بيننا –مع كل أسف– مَن يرى أن الفرنجة هيأهم الله ليكونوا خدماً يبنون لنا السيارات، ويصنعون الإبرة، ويكفوننا كل مستلزمات العيش، فهل يجوز في عرف الحق أن نسكت عن جهاد أمثال هؤلاء، وأن نتركهم لأفكارهم يبثون سمومها في أطفالنا وناشئتنا؟

إن علينا أن نجاهدهم في الله حق جهاده، وأن نزحف في صفوف مرصوصة لنقتلع هذه الجذور من منابتها، ونتيح لشبابنا الجديد أن يملأ رئتيه بالهواء النقي الذي لا تسممه مثل هذه الأفكار.

لمثل هذا تتزاحم الصحف، وتتكتل الأقلام، فهل جاء أصحاب النعيم وأرباب الثراء الطائل نبأ هذا الزحف؟ وهل فرضوا في أموالهم وأرباحهم شيئاً لتموينه وتدعيم حركاته؟

إن أحدهم لينافس في مزايدة أرض يشتريها يفوق رؤوس الأموال التي يملكها سائر الصحف في بلادنا مجتمعة، فهل جاءه أن عليه لبناء الأفكار في بلاده وجهاد الجهل في أمته ما يكفيه جزءاً من مائة جزء صرفه في سبيل التباهي بالبنيان والتسابق في مضمار الزيف؟

هل جاءه أن في أمواله حقاً للمدارس ودور العجزة والأيتام والإسعاف، وأن عليه لسائر الصحف التي تبني الوعي في بلاده وتنشر الأفكار التي تحارب العجز والتواكل حقوقاً لا يغفرها له هذا التغاضي؟

لا نريد للصحافة براً أو تبرعاً يتصدق به، ففي دور المدارس وبيوت العجزة والأيتام متسع له إن كان من المتصدقين.

ولكننا نريد له أن يعرف أن ثمة أقلاماً مجاهدة عليه أن يحييها، وأن يساعد في رواجها ليخدم النهوض الفكري ويساعد على تقويته ونمائه.

نريد له أن يعينها في أسلوب مشروع، فيبحث عنها بين أكداس المكتبات ليتشيعها بين معارفه وأصدقائه وموظفيه، فيساعد على نمائها وبث أفكارها.

نريده أن يسعى إليها قبل أن (ترتمي) في صندوق بريده أو على مكتبه وأن يتعرف عناوينها وأسماءها ليكتب إليها كلمة مشجعة، أو يرصد لها في موازنة إعلاناته بنداً لا يحاول فيه المساومة أو المواكسة بقدر ما يحاول فيه التدعيم في سبيل الجهاد الفكري.

أينكر أخونا أن صحافته اليوم تناقش الوزارات والإدارات، وتضع أنفها في كل المرافق التي تتوقف عليها المصالح العامة، وأنها تتعرض من جرّاء ذلك وفي سبيل بلادها لألوان من الهزات، وأنها إلى جانب ذلك تحارب الأفكار الخاطئة والآراء الضالة، وتوقظ الوعي في صفوف الشعب على اختلاف طبقاته؟

أليست هذه خدمات عامة يجب أن يساهم فيها أغنياء البلاد قبل فقرائها، وجهاؤها قبل المغمورين فيها؟

فإذا رأينا صحافتنا تتصدى لكل هذه الخدمات، وشهدناها تقتحم المسالك الوعرة في سبيل ذلك، وكنا نعلم أن بعض أصحابها وكتّابها لا يملكون من حطام الحياة إلاّ أقلامهم.. وأقلامهم فقط، فهل نبيح لأنفسنا أن ندعهم وما يتصدون ونتناساهم وما يقتحمون، وأن نظل عائشين على هامش الحياة لا يهمنا من بلادنا إلاّ مظان الكسب؟

أم يتعين علينا أن نقاسمهم الجهاد، ونناديهم بهم حسب أقلامكم وستجدونا في إثركم لنساعد في رواج ما تنشرون، ونبذل لإعلاناتنا عندكم ما يدفع عجلتكم، ويقوي إساركم، ويثبت أقدامكم خدمة للصالح العام والوطن المشترك.

لنحَارب الفقر

هل استطعنا أن نحارب الفقر بمثل القوة التي حاربنا بها الجهل والمرض؟

إنها أحاسيس أشعلها الاحتفال الدائب بمقدرات الحياة!!

ليس من شك في أن موازنات الدولة التي شرعنا نعلنها من سنوات في أوقاتها المقررة تستطيع أن تعطي دليلاً على يقظتنا، وإننا بدأنا نشعر مبلغ حاجتنا الماسَّة إلى مسايرة الحياة الصحيحة، والعمل على تنظيم اقتصادياتنا وتبنيدها في فصول مبوبة وأرقام مقررة نتقيد بها كحدود محترمة.

لا نشك في هذا، كما لا نشك في أن موازناتنا تخطو درجات طيبة إلى الانتقال من سنة إلى أخرى، وإننا إذا ظللنا على هذا النحو نخطو من حسن إلى أحسن. في مثل هذه المدارج فإننا سنصافح اليوم الذي نستطيع أن نعتز فيه بأنفسنا كأمة أثبتت وجودها بين شعوب الأرض الحية.

وإذا كنا لا نشك في كل هذا أن فيه ما يحفز مثلي إلى مناقشة بعض ما تراءى لي على هامش الميزانية، فقد درجت الأمم الراقية التي ننوي أن نساير قوافلها على ترك الأقلام تناقش ما تراه في حدود ما تعرف لتنكشف أمام المختصين بعض الأفكار العامة، وربما استطاعت الإفادة من مداولتها.

إننا كأمة تتهيأ للعمل الجاد المثمر، ربما احتجنا قبل كل شيء إلى علاج الفقر والمرض والجهل التي ورثنا تركتها مثقلة من مئات السنين، وفي رأيي إن على ميزانياتنا العامة أن تحتفي بهم في بنودها عناية خاصة وتعطيهم من طاقتها ما تستحق.

وكل متتبع لحركاتنا العامة في نهضتنا الجديدة يعلم أننا في سنواتنا الأخيرة لم ندخر وسعاً في بذل الجهد لمحاربة الجهل، وإننا أعطينا ذلك من عنايتنا ما يستأهل التقدير. وحسبنا من ذلك أننا استطعنا في أقل من ربع قرن أن نستفيد من شبابنا الجديد لكثير من مناصب الوزارات، وغير قليل من مراكز الاختصاص، وإننا بعد أن كنا نستعين بالأكفاء من جيراننا وأشقائنا استطعنا اليوم إلى حد أن نجد من مثقفينا مَن يضطلع بكثير من المهام عدا الشباب المهيأ تحت سقوف المعاهد والكليات في انتظار دوره للخدمة العامة في سائر الحقول التي كنا نعجز عن خدمتها.

نحن لا نقول إن ثقافتنا بلغت الشأن الذي يجب أن نقنع به، ولكننا ندّعي أن خطوتنا لمحاربة الجهل وإعداد الكفاءات كانت من أسبق الخطوات وأقواها في نهضتنا الجديدة.

كما ندّعي أن ما بذلناه إلى اليوم في سبيل محاربة المرض يعتبر بذلاً طيباً إذا قسناه بكثير من عناصر نهضتنا، وإذا أدخلناه في حساب تلك السنوات المعدودة التي مرت بها هذه النهضة.

بقي لنا بعد ذلك أن نسأل: هل استطعنا أن نحارب الفقر بمثل القوة التي وفرناها لحرب الجهل والمرض؟؟

ما أحلى أن نُخلص القول للمسؤولين عن نهضتنا، وأن نصارحهم الرأي ما دمنا قد عقدنا العزم حكاماً ومحكومين على أن نتعاون في سبيل العمل على تقدم بلادنا.

قد يرى بعضهم أن في سخاء بعض أصحاب الشأن والغنى في بلادنا وعطفهم على الفقير ما يستأهل الغبطة، وأننا بهذا نستطيع أن نحارب الفقر في أعلى حصونه، ونجبر عثرات المحتاجين.. ولكني أستطيع أن أؤكد أنها وسائل لا تقدم خطوة إلى الهدف المرجو.

وفي رأيي أن ميزانيتنا العامة هي المسؤولة أولاً وآخراً عن الزحف المقدس لحرب الفقر واستئصال جذوره.

إذا استطعنا أن ننفق في سعة على إحياء الأراضي الصالحة للزراعة في شتى مناطقنا وهي أكثر بكثير مما نتخيل، وأن نبذل في سبيل المياه الجوفية التي لا تخفانا مظانها الملايين والملايين، واستطعنا أن نقيم السدود ونستفيد من السيول الدافقة التي تدمر كل شيء ولا تنفعنا بشيء، فقل إن خطوتنا إلى جهاد الفقر باتت واكدة، وإننا بذلك نستطيع أن نغني البادية عن ذل الحاجة، وأن نوفر بهذا الاكتفاء الذاتي جزءاً كبيراً من أموالنا نحن في أشد الحاجة إليه.

وقل مثل هذا في شأن المواصلات.. فقد أعطت الميزانية لمصلحة الطرق ملايين الريالات، وفي رأيي أنها مصلحة تستأهل أكثر بكثير من هذه العناية، ذلك لأن مزارعنا التي ندعو إلى الحفاوة بها من أجل الاكتفاء الذاتي موزعة شتاتاً بين مهابط الوديان البعيدة ومخارف الجبال العاتية، وهي على قلتها اليوم لا تجد أسواقاً تروجها فيضطر المزارع إلى بيعها بقيمة التكاليف أو أقل منها، وربما اضطر إلى هجرها ليتركنا عالة على ما تنتجه البلاد الأجنبية، ذلك لأن البلاد الأجنبية تجد طريقها معبّداً سهلاً من البحر أو البر إلى مدننا، ويعجز فلاحنا عن نقلها إلينا لصعوبة السفر بين وديانه وجباله، فلو أعطينا مصلحة الطرق بذلاً أوسع لاستطعنا بعد العناية بالزراعة أن ننقل منتوجاتنا إلى أسواق المدن بأسعار لا تهزمها مضاربة البلاد الأجنبية.

وأعطت الميزانية مجلس التخطيط الأعلى ملايين أخرى. والذي أعرفه أن وظيفة مجلس التخطيط أوسع بكثير ممّا يتّسع له هذا البند، فهو مسؤول عن تتبع مكان المعادن من أدنى البلاد إلى أقصاها، وهو مسؤول عما ينتجه البحر من ثروات لا حدود لها ولا حصر ممّا لم

نستفد منه شيئاً إلى اليوم، وهو مسؤول عن تنمية رؤوس الأموال المحبوسة بين جدران الغرف والخزائن بعد إغرائها بالبروز، ودراسة أهم ما يجب أن نتناوله من مشاريع حيوية لتقدمها إلى المتمولين في تخطيط مقروء يرسم الأفكار ويرشد إلى أضمن الوسائل للأخذ بها.

وأعطت الميزانية للمشاريع العامة وتوسيع الحرمين ملايين غيرها، وفي اعتقادي أنه مبلغ لا يُستهان به إذا استطعنا أن نقيده بلوائح رسمية نافذة المفعول.

لقد زحفت الأيدي العاملة من سائر الآفاق إلى بلادنا تجتذبها سمعة هذه الملايين ويغريها بنا جهلنا بالانتفاع بما نملك، وإهمالنا تقنين ما يلزم لحدودنا، فاستطاع هذا الزحف أن يستولي على تسعة أعشار ما يبذله البند، فلو فرضنا له من اللوائح ما يحدد علاقتنا بالعامل الأجنبي، ويلزمه بإباحة ما يحترف لعمالنا، ويلزم عمالنا بتوزيعهم على محال الاحتراف في نظام مقدر لاستطعنا أن نربح لعمالنا ألوف المهن التي تغنيهم عن التسكع، وتحميهم من غائلة الفقر، ولو استطعنا أن نحدد إقامة كل وافد محترف أو متخصص بمدة كافية للاستفادة من خبرته لما عجزنا عن تسليمهم إلى طريق العودة مشكورين، وتوفير مجالاتهم لأصحاب الشفعة المغلوبين في بلادهم.

إنها آراء لا أدّعي أني من أصحاب التخصص الفني فيها؛ لأنها ليست إلاّ نتيجة أحاسيس أشعلها الاحتكاك الدائب بمقدرات الحياة وما أشاهده من تفاعلات الحوادث اليومية.. فإذا رأى المختصون فيها أو بعضها ما يستحق البحث وإلاّ فحسبي أني صدعت بما رأيت والله يتولانا بما يختار. [4]

---

(4) - بدأت الملايين تفيض على هذه البنود في الموازنة فعساها تنتهي بنا إلى الاكتفاء.

لنقارب بين أسفارنا

ما انتفعت الممالك بشـيء انتفاعها بتقريب المسـافات بين أجزائها الواسـعة، وربط آفاقها بشبكة من المواصلات محكمة الحلقات في تنظيم شامل.

ذلك لأن أجزاء الممالك في بقاع الأرض كافة لا تسـتوي من حيث التربة والمناخ وطبيعة الأرض ونوع الإنتاج، فلا بد لها إذا أرادت أن تعيش سعيدة بالاكتفاء الذاتي أو ما يشبه الاكتفاء الذاتي أن تتبادل منتجاتها وتتقايض خصائصها من النواحي كافة.

ونحن نشهد أثر ذلك واضحاً في مدينة "جدة"، فقد سبقت بلاد المملكة في كثير من ألوان نشـاطها، لا لأنها تسـتند فقط على كثبان الشـاطئ، أو تتمتع بما نال ميناؤها من تمهيد، بل لأنها ظفرت إلى جانب هذه الميزات بميزة لها قيمتها الحيوية تلك هي ارتباطها بمكة والمدينة بطريق معبّد يشق الصحراء في سهولة ويسر.

ظفرت جدة بهذه الميزة لوقوعها في مركز اسـتراتيجي من طريق الحجاج وكان لا بد لنا ونحن نعيش بعقلية الحجاج أن نعيرها كثيراً من عنايتنا فنربط أجزاءها إكراماً للحجاج بمدينتين لهما قيمتهما في المجال الحيوي.

ونحن لا نريد أن ننكر على الحجاج حقوقهم علينا في الإكرام، ولكننا نريد أن نعرف لماذا لا نكرم أنفسـنا إلى جوار ما نكرم به ضـيوفنا؟ ولماذا لا نعني بقيمتنا في الحياة إلاّ من الزوايا التي يصادفنا فيها الحجاج؟

إن ضـيفك لا يحترم قيمتك إلاّ إذا رآك حفياً بها سـاهراً على صـيانتها في أسـلوب لا يتنافى مع حقوقه في الضيافة والإكرام.

إننا لا نريد أن نشتط كثيراً في اللوم، ولكننا نتمنى أن نستأنف اليوم خطوات مسددة نحو الهدف المنشود.

فنتمنى إلى مجلس وزرائنا الوقور أن يدرس شؤون مواصلاتنا في دقة واستقراء، وأن يربط أجزاء بلادنا من أدناها إلى أقصاها بشبكة محكمة معبّدة المسالك تعبيداً فنياً يتسلق الجبال الشامخة، ويطأ الأغوار السحيقة ويصل الواحات في أبعد آفاقها بسائر القرى والمدن، وإذا تعذّر علينا اليوم أن نواجه جميع هذه التكاليف دفعة واحدة، فإن في استطاعتنا توزيعها على متعهدين لينفرد كل متعهد بتعبيد طريق خاص، حتى إذا فرغ منه تقاضى نفقاته من كل سائق أو صاحب سيارة مبلغاً مقدراً لا يرهق أصحاب السيارات ولا يبيح للمتعهد أن يستبد بما انفرد.

إننا بذلك نفتح المجال أمام أصحاب رؤوس الأموال، ونهيئ الأعمال الواسعة للمستغلين ونعد الأراضي والمسالك في أنحاء المملكة كافة للإعمار والإصلاح . [1]

إننا إذا فعلنا ذلك ساعدنا القروي على استثمار أرضه ونشّطنا أعماله في كافة الحقول والبساتين، واستطعنا أن نهيئ الفرصة لجميع الخواص المدفونة في آفاقنا الشاسعة، وساعدنا البلاد كافة في البادية والحضر على تبادل المنتجات والسلع من كافة أنواعها، ويسرنا الأمر للتصنيع الشامل الذي لا يعجزه الانتقال من أطراف المملكة إلى أطرافها، وفتحنا باباً للرواج ربما أغنانا عن كثير ممّا نستورده من وراء البحار.

في سبيل الدعاية لبلادنا

لماذا لا يقوم إخواننا الصحفيون برحلات
إلى الأقطار الإسلامية؟

نقرأ في كثير من صحف البلاد العربية الشقيقة أوصافاً لرحلات وتوغل الصحفيين فيها إلى بلاد نامية في الصين واليابان في شتى جزر المحيط الهادي.. في سومطرا وأستراليا وإندونيسيا.. في مدن الهند والباكستان والملايو، حتى أدغال إفريقيا ومجاهلها كانت مسرحاً لرحلاتهم التي ينشرون أوصافها في ريبورتاجات ضافية تنطق بالصور التي تمثل حركاتهم واجتماعاتهم برؤساء الجهات وشيوخهم ورجال الدين الممتازين فيها.

إنها دعايات لها قيمتها في ربط العلاقات بين البلد الواحد ومئات البلاد التي يوغلون فيها باحثين عن العلاقات التي يمكنها أن تربط شعوبهم بشعوب أخرى، باذلين أقصى ما يسعهم من إمكانيات في تصوير المشاهد وتلوينها ونزع ما يمكن انتزاعه لتوكيد العلاقات والاستفادة لبلادهم من سائر الروابط التي تجمعهم بالبلاد التي يوغلون فيها.

إنه نشاط لعلّه ليس في بلاد الشرق مملكة أحوج إليه منا، فرابطتنا بأمم الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها أوثق من أن تصفها الكلمات، وعلاقتنا بالمتمدنين منهم والبدائيين في أقصى المجاهل علاقة لا تدانيها مثلها، ومع هذا فنحن من أغفل الناس حفاوة بهذه الروابط وأقلهم عناية بها.

ما يمنع صحافتنا أن تنفض دثارها وتنشط لانتداب مَن يمثلها ليجوب ممالك الإسلام ويتغلغل في مجاهله لينادي: هنا.. الكعبة، جاءت تذكي حماس العلاقة التي تربطكم إلى بلد تتوجهون إليها خمس مرات في كل يوم، وتتعرف إلى أشجانكم وتناقش حياتكم لتعطي عنها أبرز الصور وتنشر عن حقائقها ما تجهله أمم الإسلام في شتى بقاعها.

لا يمنع صحافتنا ذلك إلاّ أن إمكاناتها محدودة، وحاجتها إلى تشجيع الحكومة لا تدانيها حاجة أسوة بالحكومات التي تنفق للدعاية وتمد للصحافة ما يعينها على تخطي

الحدود، فتهيئ لها وسائل الانتقال وتوليها من البذل والعناية ما يهيئها للسفارة الناجحة إلى أقصى مدى تتسع لها خطوات الصحافة في البلاد البعيدة.

لقد كانت مكة والمدينة تندبان من أهاليهما مَن يجوب أطراف الأرض فيلقون التحايا ويجدون التكريم، ولكنهم كانوا لا يخدمون الأغراض التي يهم الحكومات والشعوب اليوم أن تخدمها دعاية للسياسة العامة التي تنهجها سعياً وراء التكتل وتوثيق العلاقات العامة.

إننا نريد اليوم لوناً جديداً يخدم نهضتنا الجديدة، ويؤكد الروابط التي بتنا في حاجة لتوكيدها في سائر بلاد الإسلام على تقدير أقل، ويحمل صوت حكومتنا وأمتنا عالياً مدوياً إلى أبعد المناطق التي يمكن أن يحملها إليه.

ولا يضطلع بمثل هذه الدعوة إلاّ صحافتنا الناهضة إذا وجدت من المسؤولين في بلادها مَن يشد أزرها ويبذل في سبيل مساعدتها ما يعين على تنقلاتها مع ما يلزمها من إعداد صحفي لا يقل عن أمثاله في كل بلد حي..

أَمَامَ الحواجز

لا تتفتح نفس الموظف كما تتفتح لإنسان طويل ترقص البلاهة على محيَّاه!

ما ألذّ الحياة مبسطة لا يقيدها روتين ولا ترهقها تكاليف، ولكن نظام الكون يأبى أن يستقيم لهذا التبسيط، وأن يترك دواليب الحياة (سبهللا) لا تحدها قواعد أو ترهقها تكاليف.

ذكروا أن أجداداً لنا قبل نصف قرن كانوا لا يتكلّفون في سبيل انتقالهم من قطر إلى آخر أكثر من ورقة ممهورة يتسلمونها يوم سفرهم من موظف مختص يدفعها إليهم كما يدفع إليك الفكهاني أقة التفاح التي دفعت ثمنها، وأنهم كانوا لا يتقيدون بنوع من النقد أو صنف من الشيكات يحملونه في أسفارهم، ولا يطالبون بشيء من سائر الماجريات التي يتكلفها المسافر اليوم في أي بقعة رحل إليها أو قطر نزل به.

سيقال إنهم كانوا يعانون من وسائل المواصلات ومشاق السفر ما أصبح اليوم أضحوكة، ولكننا بعد أن ذلّلنا كل تلك المشاق أبينا أن نخلي أنفسنا من روتين صنعناه وقيود تكلفناها في سائر بقاع الأرض كما لو كان النصب شرطاً لاستمرار البقاء على وجه الأرض.

إنني شخصياً لا أضيق بشيء ضيقي بمجريات الروتين في كل دولة، فأنا لا أترك بيتي حتى تكون قد استنفدتني أيام مرهقة أقضيها أو يقضيها مكلف عني في كد واصب بين أوراق تُحال، وضمانات تسجل وألوان من القيود لا أحذق شيئاً من تفاصيلها.. وإني لأذكر أنني ما بدأت سفراً قط –على كثرة ما أسافر– إلاّ وجدتني أسترشد بأول مَن يقابلني عن الجهة التي يجب أن أتقدم

إليها، وما أحيلت لي ورقة قط إلاّ وجدتني أرهق المختص بأسئلتي عن القلم الذي أذهب إليه، والغرفة التي أدخلها وكثيراً ما أستعين بقلمي لأسجل على أي ورقة أصادفها اسم الإدارة التي سأحال عليها والزقاق التي تسكنه والموظف الذي تتعين مقابلته، وربما ألححت في معرفة أوصافه والعلامة الفارقة في وجهه، والزاوية التي يوضع فيها مكتبه، ومع هذا فإني لا أكاد أصافح الغرفة التي يجلس فيها حتى يرتج عليّ وتختلط أمام عيني جميع الكلمات التي سطرتها في الورقة، وأقف مشدوهاً لا أحير وأجدني في نهاية الموقف أميل بأوراقي إلى أقرب موظف فأبسطها بين يديه، وأخبره أني أعتزم السفر وأرجوه أن يدلني إلى الجهة التي يجب أن أتوجه إليها بأوراقي في سبيل إتمام الروتين.

ولا تتفتح نفس الموظف -والصغار منهم بالأخص- لشيء كما تتفتح لإنسان طويل الهامة، عريض المنكبين، تتراقص البلاهة على محياه وتناديك السذاجة من جبينه العالي في براءة وتودد، فلا تعجب إذا علمت أني كثير الميل إلى تكليف غيري في سائر ما يعرض لي من الأسباب التي تواجهني بالروتين الحكومي، وإني عشت جل حياتي أتمتع بضيق ذهني لا يتسع لأكثر صنوف الروتين الذي تتقيد به الدوائر الحكومية في أي أرض أحل بها.

لا تأس عليَّ يا صاحبي وإذا كنت قد تعشقني فلا تذهب نفسك حسرات على ما حرمني الله من سعة الذهن؛ لأنه أبى -جلت قدرته- إلاّ أن يعوضني موهبة عديمة النظير، فلدي من الملكات ما يسعف المواقف في أحرج ظروفها لأني أستطيع أن أصطنع خفة الظل في أقل من لمحة عين وأن أشيع المرح وأثير الضحكات العالية، وأجمع الأبصار حولي في دوائر يستخفها السرور، ثم أزج

حاجتي أثناء ذلك فإذا المكاتب تنقلني، وإذا الكراســـي تتزاحم لدعوتي، وإذا شـاب في طرف القاعة يناديني متطوعاً لمساعدتي وآخر يحلف على أن أسـلمه أوراقي ليقوم وحده بما يلزمها.

ســيســتنكر ادّعائي هذا قارىء –لا تهضـــمني معدته– ويرى أنني (ألحس نفســي) كأي قط منفوخ، وربما اســتطاع أن ينكر عليَّ قولي عندما قلت: إني أصـطنع خفة الظل لأن خفة الظل في رأيه لا تصـطنع، ولكني لا أريد أن أناهد مثل هذا المسـتنكر، فحديثي هنا لا يخاطب إلاّ صـاحباً سمّيته يتعشـقني (والقرد في عين أمه غزال) فأحببني يا صديقي قبل أن تفسر كلماتي.

وسيستنكر قارىء آخر هذه الإفاضة في موضوع طالت توطئته وليس لي إلاّ أن أتمنى عليه ألاّ يســتعجل، فيكشــفني فأنا اليوم جائع إلى الكتابة بعد طول انقطاع.

ويلذّ لي أن أسـامره بلون من أفانين القول أكثر ممّا يلذ لي أن أدفع إليه قصـة رحلتي، فإذا راق له أن يتابعني راضياً بما أكتب، وإلاّ فإن في ألوف المؤلفات من البحوث الغنية بالفيتامينات ما يغنيه عن أكل (المنفوش).

هَل يُلام المؤلفونَ إذا دَفنوا مؤلفاتِهم في الكوابر ؟

إلى هنا وربك سامع الدعاء

شـاب من كلية المعلمين ما صـادفني إلاّ سـألني في إلحاح عن الطبعة الجديدة لتاريخ مكة.

وزميـل لي من موظفي الإذاعة هو الكـاتـب المعروف عبـد الله الجفري لم يكتفِ بتحقيقاته الشـفوية في كل مقابلة حتى كتب إليَّ أخيراً باسـم (الثقافة الأسـبوعية) يسـأل عمّا تم في شأن الطبعة الجديدة من تاريخ مكة.

ونفر غير هذا وذلك أتلقى اسـتفسـاراتهم كلّما قابلني أحدهم أو كتب إليّ، وجميعها تدور حول الطبعة الجديدة من تاريخ مكة.

كان عليَّ ألاّ أقول مثل هذا بين نفسـي، فهو هراء ربما ضـاق به صـدر القارئ وهو في رأيي من ألوان الدعاية السخيفة التي يستثقل الناس ظلها.

ولكن في الموضوع شيء غير هذا.

شـيء تقدمت بين يديه بمثل هذه الألفاظ العريضـة، لأني وجدتني في أشـد الحاجة إلى أن أعالج ناحية لها أهميتها في عالم التأليف.

إنهم يعيبون على المؤلفين ضـآلة آثارهم، ويمقتون في الأدباء والشـعراء صـدوفهم عن إبراز ما ينتجون.

إلى هنا "وربك سامع الدعاء."!!!

وكنت أتمنى لو أجد مرة مَن يحقق لي: هل يُباع في أسـواقنا من سـائر المؤلفات ما يوازي جزءاً واحداً من ألف جزء يُباع من قراطيس السكر والشاي في دكاكين البقالة؟

كنتُ أتمنى لو أجد مَن يثبت لي أن مؤلفاً أدبياً واحداً في بلادنا اسـتطاع أن يظفر بنصف ما أنفق على طبع مؤلفه لأقيم وإيّاه الحجة على خطأ كل الأدباء وقصورهم عن إبراز ما ينتجون.

إن بلادنا لا تبيع المؤلفات إلاّ في نحو أربع مدن وبضـع قرى كبيرة لا تتجاوز أصـابع اليد، وأن معدل ما يُباع في كل مدينة لا يتجاوز مائة نسـخة لأديب سـارت الركبان باسمه –كما يقول أجدادنا القدامى– وضـجت الصـحف بشـهرته كما يتحدث شـبابنا المحدث.

سيُقال إن أثمانها باهظة تحول دون رواجها، وهي كلمة تبدو وجاهتها لأول وهلة ولا يسـتطيع أن يتغلغل إلى زيفها إلاّ (حكّاك)!! لا يقنعه إلاّ أن يزج أنفه بين البصـلة وقشرتها.

إن للمؤلف في العادة قرابات وزمالات وصداقات لا يُحصى عددهم، وله إلى جانبهم أسـاتذة علّموه وتلامذة أعجبوا به، وبارزون شـجعوه، وعامة قدروه، ومعارف لا تحدهم طبقة ولا يقيدهم نوع.

كل هؤلاء يقرأون إعلانه فيقفون من الأمر على كثب ليزنوا عواطفه نحوهم ويحددوا حقيقة علاقته بهم.

لقد عاشـوا يولون الجميل فهل يقدر لهم ما أولوه، فيتسـلّمون هديته مع أول بريد متوجه بالتقديم الرقيق، أم تراه فدماً لا يبالي بعواطفهم ولا يقدر حقيقة شعورهم؟

طببها إذن.. إن كنت صاحب طب.

أيفي لكل هؤلاء فيتقدم بهداياه إليهم؟

أيعطي بعضهم فيرضيه و (يطنش) عن الآخرين فيسخطهم؟

أيضع (في إحدى أذنيه طينة وفي الأخرى عجينة) ويمسك الدرب!!

إن كان الأول فقد تعين عليه أن يضيف إلى النسخة مثل قيمتها ليعوّض ما فقد.

وإن كان الثاني والثالث فقد زرع في مئات القلوب شر ما يمكن حصاده وخلق لنفسه عداوات كان من أغنى الناس عنها.

أيلام المؤلفون بعد هذا إذا ناطوا مؤلفاتهم بالرفوف العالية أو دفنوها في الكوابر؟؟

لقد صدرت الطبعة الأخيرة من تاريخ مكة وساعدني الإهداء الواسع –والحمد لله– على نفادها.

وصدرت لي بعدها عدة مؤلفات أهديت منها وبعت بعضها وعندما شكا نفر من سعرها أعلنت التخفيض شهراً كاملاً فلم يحقق ذلك ما يصح أن يُسمّى رواجاً.

ومع هذا أستطيع أن أؤكد أن حظّي من رواج الكتب ربما فاق حظ البعض فكيف حال هذا البعض؟

إن مبلغ علمي أن كبار المسؤولين في وزاراتنا خير مَن يعرف حقوق المؤلفين في موازناتها الضخمة، وإن رعاية التأليف جدير بأن يحتل مركزه الممتاز في بنود نفقاتها، وإن عنايتها بالنشر لا يجب أن تظفر بأقل بما تظفر به عنايتها بالمدارس.

كان هذا من سنوات، وكنت أزمعت الرأي على إعادة النظر في الطبعة السابقة من تاريخ مكة توطئة لتقديمه لطبعة جديدة، فقرأت ما شاء الله أن أقرأ وتوسعت في بحوثه ما استطعت أن أبحث، وسافرت في سبيله إلى أكثر من بلد (صددت في بعضها) فلم يفت ذلك في عزمي.

ومضيتُ في مراجعاتي وإصلاحاتي إلى أن أوشك الكتاب أن ينتهي إلى الفصل الأخير، ثم قدمته إلى المطبعة لتتشاغل بطبعه فأنجزت المطبعة أكثر من نصف ملازمه.

ولكني ما حتمت أن تباطأت.. إن فشل التأليف والنشر في بلد محدود لا يشجع مثلي على ارتياد الصعاب لأقف بين فدافدها وحدي لا أعتمد إلاّ على كياني وهو ضعيف، ولا تسندني إلاّ ثروتي وهي لا بلغة فيها.

ألا فليعلم أخونا من كلية المعلمين وزميلنا من دار الإذاعة وبعض إخواني السائلين ممّن يهمهم إنتاجي المتواضع من تاريخ مكة أن الطبعة الجديدة تأخذ طريقها في تخاذل اليائس بين أدراج العمال في دقائق فراغهم، وأن الفصل الأخير من الكتاب لا يزال في ملفه ينتظر إحدى الحالات النفسية التي تعيد إليه الحياة.

وأنت يا أخانا (البواردي) أتمنى أن تجرب لمؤلفاتك الجديدة ما جربت قبلك لتستطيع أن تقنع المختصين ليؤيدوا حقوق التأليف في موازنتهم ولا يضنوا على المؤلفين بما ينشط حركتهم . [5]

---

(5) - كان هذا قبل عشر سنوات أما اليوم فقد أدركت بعض الوزارات ما يتعين عليها في التشجيع وشرعت شركة تهامة وبعض النوادي الأدبية تفرض على نفسها أهم معاني التشجيع .

في ركني..

سارتر: نكسة الحياة وعيش الغاب

مَن المسؤول عن حوادث الدهس..؟

لماذا لا نستغل هذا الأسلوب من التمثيل في صيغة لا تتعارض مع الدِّين؟

قرأتُ كتاباً لأحد الوجوديين يلخص فيه رسالة الوجودية، ويدعو فيه إلى عصيان سائر الديانات والنظم وكل ما يربط الإنسان بمجتمعه في هذه الحياة.

إنها فكرة برّاقة تلمع الحرية في آفاقها بأوسع ما يتسع له الانطلاق ولكن أصحابها أبوا إلاّ أن ينسوا أن حياة الفرد منا مرتبطة بحياة الآخرين، وأن التنظيم السماوي والتقليد العرفي كان لا بد منهما لتحدد علاقتك بالآخرين قبل أن تحتك بهم، وترتطم مصالحك بمصالحهم في سائر العلاقات والمودات.

إن (سارتر) صاحب الدعوة ومخترع فكرتها يرى الإنسان حرياً بأن يحقق وجوده الذاتي، وأن يستبيح كل ما تمليه عليه نزعاته الخاصة ودوافعه النفسية فينطلق فيما يشتهي دون أن يبالي قيداً أو يأبه لنقد أو يستحيي من عرف أقرته الأديان أو تواضعت عليه المجتمعات.

إنه يريد للإنسان أن يصنع نفسه، ويحقق أهواءه كفرد قائم لنفسه، فهل جاءه أن سائر الأفراد يملكون المواهب التي تهيئ لهم تنظيم حياتهم على نحو يكفل لهم الأمان والاستقرار؟ وهل أدخل في حسبانه أن انطلاق الناس في مثل هذه القوقعة يعرض حياتهم للصدام، ويثير الفوضى في مجتمعاتهم ويفرض عليهم حياة الغاب التي قاسوا مرارتها قبل آلاف السنين واقتضاهم التطور التربوي أن يهذبوا طباعهم ويشذبوها، وأن يضحوا على مر الأجيال لرسل الإصلاح لتتلاقى مصالحهم وتنظيم علاقاتهم في سباق يضمن لهم الأمن ويقضي على سائر أنواع الفوضى بين صفوفهم؟

ترى أيقوم سـارتر وأصـحابه بدعوة جديدة إلى نكسـة الحياة، وعيش الغاب أم هي ألوان من جنون الفلسـفة لا يرمون من ورائها إلاّ أن تدوي لهم أصـوات يعرفونها مهما كلفوا الحياة فيها من شطط؟

في سبيل المرور..

تنظيم مرور المشاة فكرة جديدة قللت من حوادث المرور وأنصفت السائقين من رعونة بعض المشاة وحماقاتهم.

إننا في أكثر بلاد الشرق نظلم السائق عندما نفترضه متهوراً في سائر الحالات دون استثناء لأننا ننسى بعض الحماقات التي يبديها الماضي الذي يتطوح في عرض الشارع كأنه في إحدى نزهاته أو الماشي الذي يسلس لسهواته فيشغل ذهنه بآلاف الأفكار إلاّ فكرة بوق السيارة التي يزاحم طريقها، والماشي الجريء الذي لا يبالي أن يحتك بها أو يسبقها إلى قطع عرض الشارع.

إنهم في البلاد المتقدمة بدأوا بحل هذا الإشكال فخططوا للمشاة خطوطاً بيضاء تقطع عرض الشارع، وألزموا المشاة أن يقفوا دونها حتى يخلي رجل المرور الطريق من السيارات في حدودها، فيبيح لهم السير جيئة وذهاباً ثم يمنعهم ليعطي الطريق للسيارات.

ولا يجوز للماشي في عرف هذا النظام أن يقطع عرض الشارع عن غير الطريق المخطوط في أوقاته المحدودة، وبذلك أمن الناس الاحتكاك والدهس وأصبحوا يتجمعون في طرفي الطرق المخطوطة انتظاراً لإشارة رجل المرور فيواصلوا سيرهم مطمئنين.

ليت المسؤولين عن المرور في بلادنا يفرضون مثل هذا النظام ولو في بعض النقط الهامة التي يشتد فيها زحام السيارات.

القصة الضاحكة:

شهدت البارحة عرضاً روائياً لقصة رائعة محتشمة تمثل فترة من تاريخ مصر راجت فيها الخرافة، كما شاع فيها لون من التربية لا يتفق مع أصول التهذيب العلمي الصحيح.

كان التمثيل ينقد الخرافة ويهزأ بها، ويثير فيك الضحك البالغ لتفاهتها ويبسط أمامك ألواناً من التربية التي سادت الشرق في بعض عصوره المظلمة ما يغريك بالسخرية ويضع يدك على مبلغ أخطائها.

كان التمثيل عظة لا تباريه أبلغ العبارات وكانت الفكاهة الساخرة والضحك البالغ يشيعان في وجوه في أسلوب استطاع أن يسرّي عن النفس ما يثقلها من هموم الحياة، وأن يعطيها دروساً يعجز عنها الإرشاد مهما دعمه من وسائل النهي القاسية.

قلت لنفسي ما يمنع بلادنا أن تستفيد من هذه الأساليب الطريفة، وأن تبني لها ما يهذب طباعنا ويرقق شعورنا ويرفه عن المثقلين بهموم الحياة العامة بعض ما نعاني؟

إننا نستطيع أن ننتقي ما يمثل الفضيلة من قصص التاريخ ونوادر الحياة في صيغة لا تتعارض مع الدين، فنربح في تمثيلها مدارس جديدة تعلم الناس فن الضحك البريء.

مصانع الكوكا كولا والبيبسي كولا

لا..

ليس مصنعاً للكوكا كولا

ولا.. للبيبسي كولا.

لا.. ولا لشيء من هذه المرطبات التي تعددت أنواعها وتكاثرت ألوانها.

إنه.. اليوم مصنع للشينكو!!

صح النوم يا سادة.. أين كنتم قبل اليوم، ولماذا تركتم بلادكم عالة على المنتج الأجنبي، ورحتم كل هذه المدة الطويلة تتسابقون على الاستيراد كمن مسته جنة حتى غمرتم بلادكم بسائر الضروريات والكماليات مما تقذفه نفايات المصانع الأجنبية، وقضيتم بنشاطكم الحاد حتى على الحرف البدائية ابتداء من القطان والمداس إلى آخر ما في هذه القائمة من حرف عاشت مئات السنين تغني بلادكم.

أهو الغنى المفاجئ أغراكم بهذا الانحراف، وترككم تنسون حقوق بلادكم فلم تبروها بآلة تصنع الإبرة أو مصنع يصب الزجاج؟

أم هو حب الأرباح العاجلة أنساكم حقوق المواطنين من إخوانكم أصحاب الحرف فرحتم تحاربونهم في استماتة وإصرار حتى قضيتم على آخر يد كانت تصنع إبريق الوضوء ومسبحة الحاج؟

لم تستفد بلادكم من هذا الغنى المفاجئ إلاّ مصانع للمرطبات بُني أكبرها ليكون فرعاً لمؤسسات أجنبية وقلدها آخرون فتفننوا في استيراد المساحيق و (القناني) وقنعوا بأرباح التعبئة ولا أكثر من التعبئة.

لم يفكر أحد أن يؤسس لهذه القناني مصنعاً لصبها وهم يعلمون أن بلادنا غنية برمال القزاز، ولم يفكر أحد أن يدرس مادة المساحيق ليضع في ضوئها مسحوقاً تنتجه ثمار بلادنا.

لم يفكر أحد في هذا لأن الغنى المفاجئ لا يميل لغير الأرباح العاجلة التي يضمنها الاستيراد ولأم العاجز الهبل!!

ستقولون وما بالك لم تفعل ما نسيناه؟ وأصدقكم القول إن هذه مأساتي فأنا لا أملك الإمكانيات التي تهيئني لغير بناء مطبعة أو مسرح، وأنا لا أملك من الأشخاص ما يساعدني على فهم أصناف الشينكو أو أنواع القزاز.

والمطبعة التي بنيتها بالأمس والمسرح الذي أفتح به الطريق اليوم ليس إلاّ وسيلة أردت بهما أن أخدم الأفكار العامة وأنقل بواسطتهما آراء الناضجين عسى أن يستوي الطريق أمام أفراد الشعب في بلادي، وفي مقدمتهم رجال الإمكانات من أصحاب الغنى المفاجئ على غرار ما يفعل الناس في أرقى بلاد العالم.

وبعد فحيّا الله مصنع الشينكو، وحيّا الله رجله العامل وأخلف الله عليّ في أجر هذا الإعلان المجاني.

وإذا كان لي من رجاء فإني أتمنى إلى أصحاب الإمكانات ألاّ تضيق آفاقهم بميادين العمل فيتسابقون خلفه ليقلدوا مصنعه في حدود الشينكو كما تعودنا أن نفعل.

فقد تعلّمنا ألاّ نشهد إنساناً بنى مصنعاً للثلج حتى نسابقه إلى مثل ما فعل، ولا نشهد محطة للبنزين حتى نسرع الخطو إلى بناء عشرات مثلها كأن الحياة لا تتسع إلاّ لتقليد أعمال الناس ومزاحمة مجالاتهم، وكأن أذهاننا أضيق من أن تتفتق لألوف الأعمال والمهن التي تفتقت لها أذهان الأمم في سائر بقاع الأرض رغم حاجة بلادنا إلى أنواعها التي لا يحصيها العد.

ويهمني بعد أن أوفيت القول أو بعضه عن أصحاب الإمكانات أن أسأل بعده أصحاب الأيدي العاملة:

هل يلذ لهم غداً أن يساهموا في أعمال الشينكو كما تفعل الأيدي العاملة في الشعوب، أم هم على استعداد لأن يسوقوا أولادهم متأففين من الغبار والدخان.. ويمضون في طريقهم باحثين عن الأعمال الكتابية الصغيرة مهما قلّ شأنها؛ لينعموا بين مكاتبها بثياب لامعة وأقلام يرصعون بها جيوبهم ويتركون هذه المجالات لكل أفاق شاطر؟

الحق أني أعذرهم فقد غشانا الجهل حتى اختلطت علينا حقائق الحياة وارتبكت علينا معانيها، فنحن اليوم لا نكاد نستصوب من المهن العامة إلاّ التوظف أو التطويف، أو انتظار الموسم لنفرض على الحاج هدايا الحج ونستعطيه شراءها على قبول البركة.

سيقولون وأين الأعمال التي تريدونا أن نعمل بها ونحن نعيش عاطلين إلاّ إذا وظفتنا الحكومة أو طلبنا الحجاج للخدمة.

سيقولون هذا وينسون أن أعمال السباكة والحدادة والنجارة والسمكرة والميكانيكا بأنواعها، وكل ما على غرار ذلك من مهن حرة استقل بها الأفاقيون واستطاعوا أن يملكوا عن طريقها ناصية الربح في بلادنا.

وأقول غير مبالغ أن أحد الأفاقيين من أصحاب هذه المهن لو شاء أن ينصف البلاد فيلحق بأعماله أحداً من أفرادها أو يخلص له ليتعلم في دكانه لما وجد من يقبل الالتحاق أو التعلم إلاّ أفاقياً من بلده، أو من أي جنس خارج عن مملكتنا.

أمّا نحن فحسبنا الوظيفة ولو في أعمال فراش، وحسبنا خدمة الحاج ولو في نصب الخيام.

وكما أعذر أصحاب الأيدي العاملة في بلادي لما غشيهم من الجهل حقيق بي أن أعود إلى أصحاب الإمكانات ممّن استخدموا غناهم المفاجئ في المسابقة على الاستيراد والعمل على القضاء على جميع المهن الصغيرة عندنا.

حقيق بي أن أعذرهم لأن المسؤولين عن التجارة والتصنيع وشؤون الاقتصاد العامة في بلادنا لم يعيروهم إلى اليوم لفتة تنظيم تنظم أعمالهم في سائر مرافقها . [6]

---

(6) - كان هذا قبل اليوم أما اليوم فيبدو أن رأس المال اتسع نشاطه وشرع المسؤولون يعتنون بتنظيم هذا النشاط.

تهانينا لشعب الجزائر المكافح

منديس فرانس –جي موليه –ديجول –ميشال دوبريه –كانوا لا يتوقعون هذا!!

ترى هل كان منديس فرانس رئيس الوزارة الفرنســية يعني ما يقول عندما وقف أمام الجمعية الوطنية في عام 1945 يهذي ليثبت لأعضــائها أن الجزائر فرنســية، وأنها تعد قطعة أو إقليماً من بلاد فرنســا؟ وهل عرف جي موليه رئيس الوزارة الفرنســية في عام 57 أي معنى يعني عندما أدلى بتصــريحه إلى كبير المراســلين في باريس، وفيه اتهم قادة الثورة بأنهم شذاذ متمردون، وأن آمالهم المتطرفة ليست إلاّ أحلاماً لن تتحقق؟

وهل وضح لديغول رئيس الجمهورية الفرنسية مدى الأقوال التي ألقاها على عواهنها يوم وقف في وهران في يونيو عام 58 يعلن للوفود الحاشـدة التي سيقت لاستقباله بأن الجزائر ستبقى فرنسية إلى الأبد رغم كل المحاولات التي تبذلها العصابات الثائرة؟

ولكن أثبت الجزائريون أنهم أكرم على أنفســـهم ممّا ظن الغاشمون وأنهم خير مَن يستطيعون الثأر لما نال أجدادهم من غبن.

أثبت الجزائريون أن في استطاعتهم أن يملوا إرادتهم، وبعد كفاح دام خمس سنوات في مرحلته الأولى علّموا كبار المســـؤولين في فرنســـا كيف يهيئون للتفاوض، ويمهدون بتصريحاتهم الرسمية لقبوله بعد أن كانوا يعتبرونه كفراً صراحاً.

أجل فقد شــهدنا كبار المســؤولين في فرنســا يتغضــون من كبريائهم ويمدون أيديهم استعداداً لمصافحة شعب كانوا لا يرونه أهلاً لأن يصافحهم.

إنها عزمة الحياة.. وأنه منطق القوة.. وأنه لا شـــيء بعد ذلك، تهانينا لهذه الأمة المكافحة التي أثبتت جدارتها للحياة، واستطاعت أن تخلِّد لا لرفعتها المدودة بل لسائر شعوب العرب مجداً لا ينساه التاريخ ما عاشت الأرض.

وإذا كان لنا بعد هذا ما نقوله فإنا نتمنى إلى المناضـلين ألاّ يختتموا نضـالهم بما أشـيع من خلاف في بعض صفوفهم فهم أعظم من أن يسلموا جهادهم إلى مثل ذلك.

إن انشــغالهم طوال ســبع ســنوات بالجهاد المقدس ترك أثره دون شــك في مزارعهم ومصــانعهم ومتاجرهم وســائر مرافقهم الحيوية، وحقيق بهم وقد أملوا إرادتهم في ميادين الجهاد أن يثبتوا اليوم كفاءتهم لبناء بلادهم من جديد، وألاّ ينســـوا إلى جانبي هذا أن الغاشمين الذين كانوا يربطونهم إلى عجلتهم في السياسة والاقتصاد والتصنيع، بل وحتى في ســـائر المقاييس الأخلاقية والأوضـــاع العامة يســـتطيعون اليوم أن يعرقلوا خطوتهم الجديدة، وأن يفرشوا طريقهم بالشوك إلاّ إذا جمع القواد في الجزائر كلمتهم على العمل الجاد، وأصـــروا على احترام مليون من الشـــهداء بذلوا دماءهم غالية في ســـبيل أن يسلموهم قياد البلاد:

تهانينا في كلمة أخيرة لشعبنا المكافح في الجزائر . [7]

[7] - نشرت يوم تم النصر للجزائر .

يا ربِّ

"قصة قصيرة"

دلج يهبط (الدّحادير) من جبل الفلق حتى انتهى إلى بيت الشـــيخ (البناني) فلمح الشيخ يتكفأ في لحيته الوقور مستنداً على عصاه الغليظة وسمعه يترنم: "إلهي أصبحت أشهدك وأشهد ملائكتك بأنك أنت الله."

وضـــمت به الجادة هيّنةً إلى قرارة المدحي (برحة القرارة)، فلاحت له خيوط الفجر تلمع فيما يحاذي (أبا قبيس) وترسل شعاعها على سطوحِ المنازل المتزاحمة على أكتاف الروابي البعيدة، وصافح أذنه صوت المؤذن يرسل ترتيله في صوت شجيّ، فندت عن صدره أنّة مكتومة: (يا رب).

إن نداءً حاراً أودعه كلَّ آلامه، وترك نفسه تسيل في جرسه صاعدة إلى مولاه في تبتل ورجاء: (يا رب).

كان شاباً ضاقت به الحياة، واصطلحت عليه أسباب الفقر، وكان المخاض يومها قد فاجأ زوجه المسكينة فلم يجد في بيته ما يوقد ذبالة، فترك زوجه لأمه العجوز وانتقل هارباً يشكو إلى الله في آهات صادرة عن قلب كسير.

وأســـلمه الطريق إلى (باب الدّريْبة) من المســـجد الحرام فرأى خطواته تســـبقه إلى مزدحم الحجاج في عرضة بئر زمزم، وما كاد يخطو بين المزدحمين حتى لمست رجله شيئاً ما كاد يتناوله حتى تبين فيه هميانا محشواً بأوراق النقد فامتدت به يده إلى جيبه في حركة لا شعورية.

ولم تمض ثوانٍ حتى راعه صوت حاج يصرخ في توجع باحثاً عن (هميانه)، ورآه يلطم خده بكلتا يديه فأخذت الشفقة طريقها إلى قلبه ورأى نفسه يتقدم إلى الحاج ليسلمه (الهميان).

تسلم الحاج ضالته في لهفة الملتاع، وما زاد على أن شكره بكلمة مقتضبة، ثم أداره إلى الطريق صفاقة كمن يدله على سبيله فيها دون أن يجزيه درهماً واحداً.

فانطلق إلى مصلاَّه في المسجد بانكسار وهو يناجي مولاه في أعمق أعماق سره: (يا رب).

وعاد إلى بيته يحمل نصف أحزان الأرض، فما انتهى إليه حتى أشرف عليه من نافذتها قريب له معروف بالسعة والجود.. عرف أنه هبط عليهم الساعة من سفر له طويل، وأنه أدرك حاجة من في البيت، فأمدّهم بكل ما يحتاجون، فندت عن صدره آهة مكتومة: (يا رب).

وأخذت شهور العام بعضها برقاب بعض، حتى ندبه قريبه في مهمة له تجارية إلى بعض بلاد الشرق الأوسط، فمضى فيما ندب له حتى حط رحله في إحدى الليالي في بلدة لا يعرف فيها أحداً. وإنه لفي طريقه إلى أحد الفنادق، إذ صادفه مسجد فتذكر أنه لم يؤد مكتوبة العشاء الأخيرة، فتأبط حقيبته ومضى إلى المسجد، وكان قد غادره المصلّون إلاّ شخصين كانا يتناجيان في همس إلى إحدى سواريه فخطا نحو القبلة وشرع يصلّي.

ويبدو أن خشوعه في صلاته المطمئنة لفت أنظار المتهامسين إليه، لأنه ما كاد يسلم من صلاته حتى تقدم أحدهما إليه ليبادره في أسلوب رقيق الحاشية.

–حضرتكم غريب في هذا البلد كما أعتقد.

–نعم.

–لقد تفتحت نفسي لك أول ما رأيتك. ولا عجب فقد تجلّى لي في صلاتك روح التقوى والورع اللتين نفتقدهما في كثير من المصلين لهذا رأيتني أتمنى لو أفاتحك في أمر ذي بال ليس من السهل أن أفاتح فيه إلاّ من كان له مثل هذه السجايا الممتازة.

–أقدر لك حسن ظنك. ويسرني أن أسمع ما عندك.

–ما عندي هو المصلحة الكاملة التي أودّ أن أبرّك بها كهدية يستاهلها مثلك. فما قولك في عروس نجليها لك الليلة لتدخل عليها بكتاب شرعي حتى إذا أخذتم منها ما يأخذ الرجل من زوجه طلقتموها عند الصباح، وغادرتم البلاد بعد أن ننقدكم فوق هذا جعلاً يرضيكم؟

أدهشته المفاجأة، وبدا على محيّاه عجزه عن فهم الغرض من الموضوع، فأوضح الرجل له في صراحة ما خفي عنه وهو يقول:

–إن صديقي هذا الذي تراه مع وقع عليه يمين بات من زوجته، وإننا نرجو حل الإشكال عندك في عقد شرعي يبيح لك من المرأة ما يحللها لزوجها الأول.

استبان له الأمر واضحاً.. علم أنه سيندب للأمر كتيس مستعار، فكبر عليه الأمر، ولكنه ما كاد يرفع رأسه ليعلن الرفض حتى حانت منه التفاتة رأى فيها صاحبه الحاج بطل (الهميان) في عرضة بئر زمزم يوم ربت على كتفه وأداره إلى الطريق في صفاقة كأنما يدله على سبيله فيها دون أن يجزيه درهماً واحداً إذن هو اليوم صاحب الزوجة التي يريد تحليلها. فما يمنعه أن يعطيه وكل المحللين من أمثاله درساً لا ينسى.

شجعه على ما نوى شعوره بأنه أمام غريم (الهميان) بالأمس، لم يتبين شخصه ولم يذكر ما كان من شأنهما في المسجد، فلم يتمالك أن يمد يده إعلاناً بالقبول.

وقبل أن تبزغ تباشير الصباح كان عملاؤه بالأمس يستصرخونه لينجز الطلاق الذي وعد البارحة فخطا نحو صاحبه في هدوء. وأخذ يربت على كتفه ويديره إلى الطريق كمن يدله على سبيله فيها وهو يقول: إنها زوجي يا صاحبي وليس من العقل أن تطلباني طلاق زوجي.

من طرائف طيراننا في الخمسينيات

كانت الرحلة إلى أبها في الخمسينيات وكانت الطائرة من النوع الخاص بنقل البريد.

وكانت والحمد لله ككل طائرة في النقل الداخلي لا تبخل عليك بالماء القراح وصندوق السندويش الذي اخترعته أقدم طيارة ركبت الهواء قبل ربع قرن، ولم ينله أي تجديد من الألوان التي نالت سائر الطائرات في سائر بلاد العالم.

وإذا كان لا يجمل بالمنصف أن يغمط الناس حقوقهم فعليّ ألاّ أنسى القطن الذي كان يوزع على الركاب بسخاء لا قصور فيه.

أمّا كوب الشاي، وأمّا فنجان القهوة، وأمّا كأس المرطبات فتلك معانٍ لا يحسن أن تمر بذهنك وأنت تركب طائراتنا لأنها كما تعلم مغريات تتكلفها شركات الطيران في شتى بقاع الأرض استرضاء للزبون، أمّا طياراتنا فلا حاجة بها للزبون لترضيه وتضحك عليه بأمثال هذه المغريات.

قد تقول لي إن مواطنينا بدأوا يستغنون عن الطائرات السعودية في جميع الخطوط التي تزاحمهم فيها شركات أجنبية، وإن هذا ربما فوت عليهم أرباحاً كبيرة تركت أثرها في حساب الخسارة والأرباح.

قل هذا أو أكثر منه لأقول ذلك: ولو!!..

وما دمت سأتحرّى الإنصاف ما استطعت فلا يجب أن أنسى ميزة مضيفنا في الطائرة فقد كان نشاطه يتجلى بصورة عالية في صرامته من أجل ربط الحزام، وكان تهاون الركاب (المناكفين) لا يجدي فتيلاً في حماسه المتوقد لأمر الحزام.

أما جوانبه الأخرى فلا نريد أن نستعرضها لأن أخلاق الخدم بمعانيها الدقيقة لم تتوفر إلى اليوم في أكثر من سمّيناهم مضيفين في طياراتنا وأتمنى ألاّ تتوفر.

وهبطنا مطار أبها.

ولا يعجبني أن أجاري الوضـــع وأسمّيه (مطار أبها) لأن في تســـميته تجاوزاً لا يقره منطق.

فأنا لا أفهم إلى الآن معنى هذه الرحلة الطويلة الشـــاقة التي يتكبدها الراكب من المطار الذي يريدونني أن أسميه (مطار أبها) فلا أصـــل منه إلى أبها إلاّ بعد نحو ســـاعتين من ركوب مرهق متواصل.

قلت لزميلي وهو يســـوق ســـيارته لي: إن لدي ما يؤكد أنك تركت (أبها) قبل ربع الطريق، وشاقك أن تضرب بي في آفاق الأرض على غير هدى.. فراح المسكين يقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يخطئ وأنه لا يزال على الجادة في طريقه إلى.. أبها.

قلت: فأنت إذن لك (أبها) أخرى غير أبها المعروفة التي جئت لزيارتها لأني لا أســـتطيع أن أعقل أن تكون (أبها) المعروفة نائية البعد بهذا القدر الفاحش الذي أراه فعاد المســـكين يكرر لي تأكيداته بأنه لم يخطئ أبها وأنه لا يضـــرب في الأرض إلاّ على جادة بينة.

وما أشرفت التلال بنا على مزارع أبها في نهاية الأفق الواسع حتى هبطت بنا السيارة إلى سهل منبسط فسيح الأرجاء فبدأ العجب يستبدّ بي.

أيبعد هذا المنبسط كثيراً عن أبها؟؟

وجاءني الجواب سريعاً حاسماً يقول: إنه منبسـط على بعد كيلومترات قليلة من أبها!! إذن فما يمنعهم أن يتخذوه مطاراً وهو فيما يبدو لي لا يقل اتســـاعاً عن أي مطار واسع، كما أنه في حاله الذي أرى لا يكلفهم أكثر من إصلاحات عادية تقتضيها سائر المطارات.

لقد حمدت الله في ســـري ألف مرة الذي لم ينشـــئني طياراً وإلاّ لوجدتني في مثل هذا الحال أنســـى ما سموه مطار أبها وأتقدم بطيارتي إلى هذا الســـهل المنبســـط لأوقع بها في

أكنافه الواسعة رحمة بعباد الله المسافرين. وأنا ضمين أنه لن يصيب الطائرة شيء رغم الجراويل والأحراش الصغيرة المنتشرة هنا وهناك.

تنهد زميلي في ألم وقال: إن مأساتنا في أحد البارزين في خميس مشيط فقد استطاع أن يقيد هندسة المطار بتلك الأرض لتعمر خميس مشيط.

قلت: إننا لا ننكر عليه شطارته أو وساطته في سبيل عمران بلده، ولكننا لا نريد ذلك على أنقاض بلد آخر. فما يمنعكم أن تطالبوا بحقوقكم لهذا المنبسط الواسع رحمة بأبها وعمران أبها.

فقال: إننا طالبنا ولكن أهرق المداد وجف القلم.

لا.. إننا لا نعترف بمداد يهرق.. أو أقلام تجف فأبواب الاستئناف أكثر من أن تحصى.

وكلمني الآن أن أبها بلد الهواء والجمال لا تستأهل مثل هذا الإعراض، وكل ما أرجوه أن يعيد المختصون في مصلحة الطيران نظرهم في أمر المطار فإنهم يتهامسون في أبها بأن هندسة الطيران تتكلف الإعراض حتى لا تكذب تقاريرها التي رشحت المطار النائي واتفقت عليه، ولكن لا أذهب مذهبهم هذا فإني أرى أن يندبوا مَن يستأنف التحقيق ويدقق أمر هذا المنبسط المتصل بأبها، فأنا رغم جهلي بهندسة المطارات أستطيع أن أؤكد أنه لا ينقصه ليكون مطاراً له قيمته إلاّ أن تمسه يد الإصلاح مساً عادياً.

كما أستطيع أن أؤكد أن موقع هذا المنبسط بين أبها وخميس مشيط في استطاعته أن يغني البلدين بمطار واحد.

وكان هذا قبل اليوم وقبل أن يتغير كل شيء.

على أكتاف جبَل السودة

قيل لي إن الأمير تركي بن ماضـــي (أمير أبها) يدعوك إلى نزهة في قرية الســـودة في جبل (تهلل).

وعلمتُ أن الســيارة تســتطيع أن تشــق طريقها في الجبل إلى (الســودة) فلذ لي أن أســتمتع بيوم جميل على أكتاف الجبل، وما علمت أنه جبل يســلمك إلى ســلسـلة تتصاعد قممها من عالٍ إلى شاهق حتى تكاد أن تنسى سببك بالأرض وصلتك بها.

مضت بنا السيارة تزحف بين الصخور في أنين المرهق، فكانت لا تستوي إلاّ لتهبط في منحدر شاق ولا تنحدر إلاّ ليجمع (فتيسها) كل ما يملك من طاقة نحو مرقى جديد عالي الصدر مرفوع الهامة.

وبدأت تطالعنا قرى الجبل في بيوت تجتمع مرة وتتفرق أخرى، تتقارب كلما انفرجت الصخور عن طريق واسع وتتباعد كلما توزعت السطوح المتساوية بين شغاف المسالك ومخارفها.

وكنا لا نصـــافح قرية حتى تلمع مزارعها على مد بصـــرنا في مدرجات تنحدر تحت أقدامنا من مدرج إلى آخر في أشــكال مثلثة أو مربعة يموج فيها نبات الحنطة في صـفرة يانعة أخاذة.

وأخذت عيني حمالة حطب ســبقتها الســيارة على منحدر يلتوي نحو قريتها فوقفت تصــك نصــف وجهها في خفر وتصــافحنا بعيون ما شــهدت في حياتي أدق تعبيراً منها فأهبت بالسائق أن يقف لنتعرف ببيتها من القبيلة فصاح بي شيخنا العلامة عبد الرحمن الحاقان: أقصر أيّها العجوز وإلاّ طيرت أمرك إلى أسامة وزهير.

لحا الله أســامة وأخاه زهيراً وأمهما وكل من لف لفهم من أقارب وأصــهار أن منعوني أتتبعهما إلى نتائج يقرها الدِّين ويبيحها.

ولكن شيخنا العلامة كان فيلسوفاً أكثر منه فقيهاً عندما توسع لي في بحث العواقب التي يخشاها على عجوز مثلي من سطوة العيون، واستطاع أن يقنعني لألزم حدودي من أسامة وزهير.

ليت شبابنا وهو يستقصي لزواجه الجمال يعلم أن (أبها) مرتع مخصب للجمال الفاتن.

لا أقصد (أبها) المدينة، فربما حجزها الدِّين والعرف في غرف الحريم.. ولكن هناك أبها: الجبل والقرية والمزرعة ومورد الماء، حيث تنطلق الفتيات في سذاجة وعفة طاهرة ينقلن الماء أو يحملن الحطب أو يسرحن في خدمة المزارع لا تخجل عيونهن النجل أن تصافحك في جمال بريء وتتحداك إن زغت في صرامة جادة.

وبعد فقد نسك عمر بن ربيعة عندما بلغ مستوى سني، فما يمنعني أن أنسك؟.. وآلى عمر أن يعتق رقبة عن كل بيت من شعره الغزلي فما يمنعني أن أعتق؟

–أبداً.. إلاّ هذه فإني لا أملك من الرقاب إلاّ أم زهير وهي لا تصلح –فيما أعرف– للعتق ولا ترضاه.

ومضت بنا السيارة ترقى مرتفعات حادة أو تستريح إلى مهابط لينة فمررنا بقرى المقضي، والعزيزة ثم انتهينا إلى السقا حيث يعيش آل عائض حكام أبها في عهود مضت فاستقبلنا كبيرهم في حفاوة العرب الأصائل.

وقيل لنا إن في القرية مسجداً يستحق المشاهدة، فلما مضينا إليه راعنا أن سقفه يقوم على أعواد من شجر العرعر يبلغ طول الواحد منها نحو خمسة عشر متراً في عرض ثلاثين سنتيمتراً وهي رغم هذا مستقيمة لا يتخللها عوج أو انحناء.

وعجبت لمثل هذه الأعواد كيف تهيأ لها مثل هذا الطول الفارع في مثل هذه الاستقامة! فقيل لي إن في مهابط التلال المجاورة غابة واسعة لا تخلو دائماً من مثل هذه الأعواد الفارعة ولكننا نعجز عن نقلها.

قلت: ولكن كيف تم لكم نقل ما نقلتم من القياع الحادرة إلى هذا العلو الشاهق؟ فقالوا: إن مئات الرجال من القبيلة تعاونوا على نقلها واستنفد ذلك منهم أسابيع وأسابيع.

ومضى الطريق بنا إلى قرية آل فلاح ثم استوى إلى قرن السودة فامتدت أمامنا غابات بامتداد الأفق الواسع.. غابات يتشابك فيها دوح هائل من أشجار العرعر والزيتون وما لا أعرف من عشرات الأصناف وارتفعت أمامنا أكتاف تتصاعد إلى قمم شاهقة الارتفاع وتنحدر إلى مهابط سحيقة الأغوار، انتشرت فيها المزارع والأشجار، وسبح النبات بينها يتماوج في رواء مخضل فلا تكاد تقع عينك على غير اليانع الأخضر.

وانتهى المطاف إلى ظل دوحة فينانة على خطوات من ينبوع تسلسل منه جدول رقراق صغير فكان مقيلاً رائعاً مدت فيه موائد الأمير مثقلة بالحنيذ والمشوي في كرم فائض.

وأغراني شباب أبها من ضيوف الأمير بالمشي فانسقت خفيفاً أتبعهم في ظل الأشجار الباسقة فصعد الطريق بنا إلى قمة جديدة ما انتهينا إليها حتى أشرفنا على وهدة عميقة الغور ترقد في قاعها البعيد "تهامة" تتراءى مسالكها وقراها على حفافي الوديان خلف الضباب الكثيف، ولا تكاد تبين لفرط البعد الهائل الذي يفصلنا، وقد قيل لي إنها منازل رجال ألمع وهم فخوذ متفرقة يزيد تعدادهم عن مائة ألف وقد هاجر كثير من فتياهم إلى المدن القريبة ينشدون العمل ويطلبون المعرفة ورأيت من شبابهم في أبها موظفين يحتلون مراكز محترمة منهم سليمان حفظي الألمعي مراسل مجلة قريش ويحيى الألمعي مراسل جريدة الندوة وقد كانا مدة إقامتي في أبها خير معوان لي فيها.

وانحدر الشباب يلتمسون طريقهم خلال الصخور الهابطة بين مخاوف الوهدة فانحدرت بانحدارهم إلى ينبوع يترقرق فيه ماء عذب، وراقهم أن يوغلوا في الانحدار

ويغروني به فانسقت لإغرائهم مشوقاً إلى الينابيع التي كانت تتجدد كلما التوى بنا الطريق أو هبطت أمامهم الصخور.

وطال بنا المدى فاتسعت المسافة بيننا وبين من تركنا من إخوتنا على حافة الوهدة العليا فاستعصيت على الإغراء وصحت بهم فعادوا وعدت أتسلق الصخور خلفهم في عناء شاق إلى الحافة العليا.

كانت الغابات أوسع من أن يحدها نظري، وقد قيل لي إن مساحتها توازي أكثر من ثلاثين كيلومتراً مربعاً وأن بعض المناطق فيها لو سلكها الرجل عارياً لما تكشف في جسده موضع نظر.

وكان الجبل على سعته وبعد مساحاته تتخلله ينابيع كثيرة متفرقة في جهات عديدة من أنحائه، وكنت ترى بعض الجداول تنساب هنا أو هناك لتروي الأعشاب والشجيرات الطفيلية التي تتخلل الصخور والأشجار كما أن مخلفات الأمطار تملأ البقاع في أكثر المنحدرات.

وتنتشر القرى من قبيلة علكم وبني مغيد وغيرهما بين مصاعد الجبال حول آبار غزيرة المياه وقد مررنا في طريقنا بصفا وبشار والصعيد وباحة ربيعة وهي غير القرى التي ذكرناها في أول بحثنا وغير القرى العديدة التي لم نستطع إحصاءها.

ويمتاز رجال القبائل في جبل تهلل بنشاط وافر فهم يمتهنون الزراعة في دأب متواصل يشتركون في هذا رجالاً ونساءً وأطفالاً وقد مررت بألوف الحقول في ثنايا الجبل وكانت معدة لاستقبال المطر ولكنه تباطأ عليهم فباتوا ينتظرون الفرج لأن الينابيع البعيدة والجداول المتفرقة لا تكفي لري أراضيهم.

فلو عنينا بحفر الآبار ومظان الينابيع وبنينا سدوداً للسيول والأمطار لكان لجبل تهلل شأن غير هذا الشأن.

وما جبل تهلل إلاّ جزء من جبال الحجاز (السراة) وهي في مجموعها جبال خصبة تربتها صالحة للزراعة في أكثر مناطقها إذا وجدت العناية الكافية.

إن الغابات التي شهدتها في جبل تهلل والتي تغطي مساحات واسعة من مناطقه غنية بأشجار الزيتون البري ودوح العرعر، فلو وجد الزيتون تلقيحاً فنياً لأغنينا به البلاد عن استيراد الزيتون، واستطعنا بعد ذلك تصديره، ولو وجد دوح العرعر العناية التي تجدها الغابات في البلاد التي تصدر الأخشاب لكان لنا منه ثروة لا تقدر بثمن.

إن وزارة الزراعة تبذل اليوم بعض الجهد. فقد أنشأت مشتلين في أبها لتنمية الورود والأشجار وزودت فرعها هناك ببعض الفنيين وأرسلت إليهم ثلاثة تركترات وشيئاً من الأدوات والبذور، ولكن الأمر أوسع من أن يكتفي بما فعلت، فالمزارعون في الجبل وفي جميع الوديان حول أبها يحتاجون إلى جهود واسعة لاستنباط المياه وجهود أكثر للتوجيه الفني.

أيام في تركيا

هذه القباب السامقة؟

هذه المآذن التي تضرب في أجواز الفضاء؟؟

أهذه هي عاصمة الخليفة يوم كان يحكم ملايين المسلمين في نصف مساحة الأرض؟

أهذه هي قاعدة الباب العالي التي كانت أوروبا تهتز لأوامره ونواهيه؟

أهذه هي (استانبول)؟

ودارت (البوينج) دوراتها على مطار استانبول.

وصافحتنا وجوه بيضاء لتقودنا إلى رجال الأمن المكلفين بتسجيل الجوازات.

كنت أتوقع أني سأعاني رهقاً وأنا أقحم نفسي منفرداً في بلد أجهلها وأجهل لغتها. ولا أكذب إذا قلت إنني كدت أتراجع عن رحلتي إلى استانبول قبيل سفري لولا أني استصغرت نفسي عندما تذكرت الروّاد الذين يقتحمون المجاهل الحقيقية.

وزاد في عزمي –إذا صح أن في رحلتي ما يجوز أن يسمى عزماً– أن طائفاً أهاب بي في نومي وهو ينادي بي: (إلى شركة السهالة!!) ففسرت ذلك بالسهولة واليسر.. فروحي كما أعتقد شفافة متصلة بعوالم أسمى بكثير ممّا أفهم ولا تستغرب هذا ففيض الله أوسع من أن يحد. وقد عودتني رؤى أحلامي استكناه أكثر مقدراتي، بل ودربتني لطول ما أحلم على تفسيرها وفك ألغازها، بل رأيتني في أكثر من مناسبة أقلد المرحوم ابن سيرين في تفسير أحلام غيري.

وكانت السهولة أغرب مما أتوقع، فقد دارت المضيفة بنا لتوزع أوراق الأمن التركية لنملأها فالتفت إلى جاري أسأله هل يعرف العربية فجاءني جوابه: "يوك."

وقبل أن يسقط الأمر في يدي كانت المضيفة قد بدأت ترجو جاري الـ (يوك) أن يتفضل فينتقل إلى مكان عينته له ليحتل محله شخص آخر، فالتفت إلى جاري الجديد فإذا هو أرمني –تركي ناشئ في بلاد العرب.

لقد كان اتفاقاً غريباً لم تتعمده المضيفة لأنها لا تدري شيئاً عن موضوعي ولكنه تفسير السهولة!! في حلمي.

ومضت السهولة تعبد الطريق أمامي في يسر غريب. فقد كتب لي صاحبي الأرمني ورقة الأمن واصطحبني في المطار إلى سائر الإجراءات الرسمية، ولم يكتفِ بهذا حتى ركب معي سيارة (التاكسي) ومضى إلى الأوتيل الذي اختاره لي في إحدى الضواحي، وأبى بعد هذا أن يتقاضى ما دفعه عنّي للحمالين وصاحب (التاكسي)، ولما رفضت بشمم أن يجعلني عالة صرخ في وجهي بلهجة المعتز بنفسه وجنسه "أنا أرمني.. يا أخي."

أجل.. إنه أرمني فليت المغرورين بأجناسهم يعرفون أن لكل جنس على وجه الأرض مثاراً للاعتزاز..!!

ومضت السهولة تعبد الطريق أمامي! فقد رأيت صعوبة مقامي في فندق يقصيني عن قلب المدينة فركبت وحدي أول (تاكسي) صادفني إلى (سركجي) ميدان قلب المدينة.

وبدأت دورتي على الفنادق بحثاً عن غرفة صالحة ودليل يقبل مرافقتي.

كنت أملك كلمتين هما كل معداتي لمواجهة أصحاب الفنادق.. إنهما أوتيل ودليل، والكلمتان كما ترى تركية عربية وقد أفادتاني أيما إفادة بالإضافة إلى بضع حركات من يدي ورأسي وبعض أجزاء جسمي عندما يقتضي الحال.

لا أنكر أنني أرهقت لزحمة الفنادق بالسيّاح وندرة وجود غرفة بسرير واحد في فنادقهم.. وإن كلمة (يوك) التي كانت تشمخ بها أنوفهم لجرس حروفها أقلقتني بعض الشيء، ولكن (السهولة) التي أهاب بها طائف نومي ما لبثت أن ساقتني إلى فندق سمعت فيه أول كلمة عربية.

كان فندقاً ينزله بعض مجاوري أهالي الأناضول ممّن لذّ لهم أن يلتحقوا بالمدرسة العربية الوحيدة في تركيا (مدرسة الأئمة والخطباء).

هنا انقطعت صلتي بـ (يوك) وبدأت أسمع لغة يعرب في أفصح لهجة.

وأحاط الشـــباب بي: "أأنت من مكة؟. أأنت من مهبط القرآن؟.. أأنت من بلد الرسول؟."

وكان عليّ أن أقســـم لهم بأغلظ الأيمان أني عربي مكي.. بل وقرشـــي!! أيضـــاً إن صـحت رواية السـباعيين في عشـرين قطراً من بلاد الإسـلام، ولكنهم ما لبثوا أن قنعوا وفي (سهولة) أيضاً بعد أن أكد لهم صاحب الفندق أنه قرأ محل الولادة في الجواز.

بدأ أنفي يقلد الأتراك وشعرت أن أرنبته أخذت تنحاز شامخة إلى أعلى من مستواها.

مسجد (أيا صوفيا) من أبرز آثار استانبول.

هو ليس أثراً إسلامياً ولكنه رمز ناطق بفعالية الإسلام في أيامه المجيدة.

لقد بُني كنيسـة في عهد جوسـتنيان البيزنطي من نحو 1430 سـنة فكان مثالاً خلد الفن البيزنطي عبر القرون.. وجاء الفتح العثماني فاستولى السلطان محمد الثاني في عام 1453 على العاصمة التركية، واستطاع أن يحيل الكنيسة إلى مسجد، وأن يستر رسوم الكنيســة بلوحات نقشـــت عليها آيات من القرآن أو نبذ من جوامع الكلام أو حكم من أقوال العرب.

ثم جاءت ثورة أتاتورك فجردته ليكون متحفاً يسـتقبل السـياح والأجانب.. بعد أن منع منه أداء الصلاة.

وأنت اليوم تصافح بابه فتطالعك صورة عيسى يتوسد حضن أمه وقد وقفت بجوارها قرويتان في رســم ناطق تكاد أن تومئ إلى أصــحابه بالتحية لفرط ما يخالط خيالك من دقة فنه.

وتمر في أروقته بقباب ضرب بعضها في الهواء إلى 57 متراً، وأعمدة اتسع محيطها إلى نحو عشرين متراً، وجدار لمعت فيها ألوان تحسبها نقشت من يومها رغم القرون الطويلة التي تقادمت عليها.

قال دليلي: إن مساحة المسجد تبلغ 3600 متر مربع، ثم مضى يتقدمني إلى بعض الزوايا الخلفية فإذا أحجار أثرية نقش بعضـــها بالبيزنطية وأخرى بالعربية، وإذا تماثيل وعاديات من كل نوعٍ وجدت في مخابئ المســـجد فنســـقت في نظام خاص لتكون أمام السيّاح تاريخاً ناطقاً يقص عليهم أخبار ألوف السنين.

وانتهى بي الدليل إلى واجهة أخرى للمســـجد فإذا حديقة رائعة بأزهارها وورودها، وإذا فسـقية تتصـدر الحديقة في جمال جذاب، وإذا به يشـير إلى محيطها الأدنى ليدلني على مواضع (البزابيز) منها يوم استفاد المسلمون منها للوضوء قبل عهد أتاتورك.

ويأتي مسجد السلطان أحمد في الدرجة الثانية بعد مسجد أيا صوفيا من حيث سمعته وقيمته التاريخية، أمّا فنّه فقد بزّ أيا صوفيا وامتاز بجماله عليه.

قصور السلاطين

وثمّة قصـور تاريخية أبرزها (طويقا بوسر) وهو قصـر تاريخي شاده سلاطين آل عثمان من نحو 400 سـنة لسـكنى مَن يتولّى الأمر منهم وهو يمتاز بكثرة أروقته وردهاته ويطل أحد مجالسه المكشـوفة على البوسفور حيث كان الخليفة يقضـي أمسياته في حشـد من رجال دولته ونداماه.

وفي القصـــر جناح خاص كانت تحدد إقامة ولي عهد الخلافة داخل أســـواره فلا يتجاوزها ولا يســـتقبل فيها غير الجواري والخدم يعيش بينهم بعيداً عن تفاعلات الحياة وأحداثها ولا يفرجون عنه إلاّ يوم توافيه البشـــائر بفناء ســـلفه.. عندئذٍ يتقلد الخلافة ويتربع على عرشها ليدير دفة الدولة بعقلية البيئة التي نشأ فيها بين نداماه وجواريه.

وثمّة قصـر (طولما بهجة) وقد بناه السـلطان عبد المجيد من نحو 80 سـنة، ونقل إليه الحكم وتوارثه السلاطين بعده إلى عهد عبد الحميد.

وقصـــر (يلدز) وقد بناه عبد الحميد من نحو ســـتين ســـنة وظل يســـكنه ويدير دفة الدولة من بابه العالي إلى أن حاصـــره المتآمرون وأرســـلوه منفياً إلى ســـلانيك، وهم

يتخذون أقدم هذه القصـور (طويقا بوسـر) متحفاً عاماً يجمعون إليه كل آثار السـلاطين ومخلفاتهم مصنفة حسب أنواعها في غرف القصر وصالاته منسقة في نظام بديع.

معروضات أثرية

هناك كراســي الســلاطين وبعض عروشــهم وتجد أكثرها مرصــعاً بنفيس الياقوت والجواهر والدر ممّا يخيل إليك أن خزائن الدولة كانت وقفاً على شــراء الغالي والنفيس لكراسيهم.

ولفت نظري بين معروضــاتهم إناء زجاجي كبير تلمع فيه نحو 300 قطعة من الزمرد الثمين بينها زمردة هائلة يخطف البصــر بريقها، وقال دليلي: إنها أكبر درة عرفها العالم إلى اليوم.

كما لفت نظري خاتم لا أعرف كيف يقدرون قيمته، وقد قال دليلي إن نابليون كان يتختم به وقد أهداه إلى الخليفة العثماني.

إلى هنا كنت أتمنى أن تطول إقامتي لتطول دراســتي ولكنّ خبراً هاماً من مكة جاء يستعجلني فبادرت بالارتحال.

هذا عهدٌ يلزم المرأة أن تدفع ابنها إلى حظائر الصَّواريخ

رحم الله جدتي!!

لقد كانت تحفظ الكثير من تخصص أصحاب الخطوات الذين يؤدون فريضة الصبح في حرم مكة، فإذا وافاهم الظهر صلّوه في المدينة فلا يمسي يومهم حتى يكونوا قد أدوا فريضة العصر أو المغرب في بيت المقدس على خلاف في الروايتين في ما انتهى إليه سند جدتي.

ليت جدتي تعلم اليوم أني أمسيت أبعد شأواً من أصحاب الخطوات لأنني استطعت أن أصلي فريضة الصبح في مسجد مكة، وأن أصافح بيت المقدس قبل حلول موعد العصر إذن لالتمست بركاتي، وربما وهبتني نفيس ثروتها التي تقاسمها أحفادها من آل العنقاوي والبناني والمالكي وتركوني (أمص الحميض!!).

لعلّ القارىء لا يهمه من أمر جدتي أو ثروتها وما نالني منها أو لم ينلني، ولكن يهمه أن يعرف مبلغ ما كان يتمتع به جيل جدتي من سذاجة ليستطيع أن يلمس مبلغ الخطأ الذي يتمسك به خصوم تعلم المرأة بعد أن مضى العهد الذي كان يبيح للجدات أن يربين أولادهن على مثل هذه القصص، وحل محله عهد آخر يلزم المرأة بأن تدفع ابنها إلى حظائر الصواريخ ليختلط بأحدث ما أنتجه العقل البشري الجبار.

ربما حسب بعضنا أننا نسينا قصة الرحلة، وساقنا الاستطراد إلى أفكار ليس لها كبير علاقة بما نحن في صدده، ولكني لا أشارك هذا البعض مثل هذا المذهب، لأنه لا يهمني أن أكتب رحلتي في يوميات تصف تحركاتي وما لقيت فيها ومن عرفت بقدر ما يهمني أن أناقش جميع المعاني التي تتداعى بمناسبة ما أكتب.

نحن الآن نحلّق فوق جبال القدس، وكان يتعين عليّ أن أحتفي حفاوة الأستاذ المزروع بتسجيل كل دقيقة في مفكرة الجيب التي يحملها.. إذن لاستطعت أن أعيّن لكم بالأرقام مبلغ الارتفاع الهائل الذي تحلق فيه الطائرة في ضوء ما أعلنه مذياعها، ولست

من غواة حمل المفكرات، وإني لأعجب شديد العجب لأستاذنا المزروع كيف يتسع صدره لهذا الإلزام الذي يأخذ به نفسه كما أعجب للمفكرة نفسها لم لا تضل أو تضيع؟ إني أشاهدها ومئات قبلها لا تفارق جيبه قط، ولو كنت مكانه لسئمت صحبتها وتمنيت أن أنطلق بعيداً عن لزومياتها وما تقيدني به.

لقد حاولت أكثر من مرة أن أتقيد بمفكرة تساعدني على تسجيل كل دقيقة تصادفني ولكني فشلت.. كان يغيظني منها في كل مرة أنها لا تذكرني بنفسها، وأنها على الدوام تتعرض للنسيان والضياع، وإنني إذا استطعت أن أحتفظ بها إلى أن أملأ صفحاتها فلا ألبث أن أعجز عن صيانتها.

ليت الأستاذ المزروع يعلمنا كيف تصان المفكرات من الضياع، وما هو النظام المقرر لجمعها إلى المفكرات التي سبقتها، وما هو أخصر طريق للاستفادة من محتويات كل هذه الملفات إذا بلغت صفحاتها الألوف؟

إنه وصب لا قبل لي بمعاناته فإني إنسان لا يلذ لي شيء ما يلذ لي الانطلاق الذي لا يقيدني فيه إلزام.

إذن فليس للقارىء أن يطالبني بنسبة الارتفاع فوق جبال القدس، وحسبه مني أن يعرف أن ارتفاعنا كان شاهقاً، وأننا كنا نجتاز في الفضاء طبقات تزيد مئات الأقدام عن الطيران العادي، وأن ضغط الجو أطبق على أنفاسنا في صورة لا يعرف قسوتها إلاّ من عانى مشاق الطيران فوق الجبال السامقة.

وإذا كان المفروض أننا نحلق فوق قمم عالية إلاّ أن الطريف أنها قمم ليست من النوع الذي ألفناه في بلادنا، لأن على أكتافها تنبسط سهول مستوية تترامى إلى مسافات شاسعة.. كل سهل منها صالح لأن يتسع لبناء مدينة كاملة بأرباضها وميادينها وساحات اللعب والمطارات فيها.

وهي سـهول تلمع فيها أعشـاب ريانة، وتكتنفها مهابط تلتوي بالتواء السـيول في مخارفها.

والقدس نفسـها تسـتوي على أكثر من كتف تتصـل أطرافها بين مصـاعد الجبال ومهابطها، وتتناثر قراها على هضاب شتى تتسامى في طمأنينة أو تنحدر في هون.

هل الحج سبَاق إلى حيازة لقب حَاج؟

هبطت بنا الطائرة في مدرج فسيح على كتف أحد جبال القدس، وقادتنا المضيفة إلى المختصين بإجراءات السفر في المطار.

ولفت نظري بين حراس المطار منظر سيدة كانت في سن أمي وقد شدت إلى جسمها بزة عسكرية كاملة، وغطت رأسها بعقال و (شماخ) وراحت تتخلل المسافرين في نشاط كنت أتمناه لنفسي.

واقتربت مني وعصاتها الرفيعة تلعب بين أناملها ورجت إليَّ في لطف أن تطّلع على أسماء الجرائد التي أحملها؟ فقلت: إنها مجلات لتسلية السفر وقد فرغت منها، ولا مانع لدي أن أتركها لك.

فبدأت تقرأ العناوين ثم ما لبثت أن أعادتها إليَّ وهي تنحني في أدب جم انحناءة بسيطة دلّت على رقة شعورها.

وانتهت إجراءات المطار والجمرك في دقائق لم أحس بها، وتمنيت لو كانت جميع إجراءاتنا في الدول العربية تمضي في مثل هذا النسق إذن لشعر المسافر أنه عزيز على إخوانه موفور الكرامة.

وكنت أعلم أن في القدس شاباً من خيرة شبابنا المثقف، وأعلم إلى ذلك أنه مطبوع على الود والجود، وأنه يشغل وظيفة وكيل قنصل في القدس ولكني رأيت ألاّ أحرجه – والعاقل يفهم– حتى استقر في منزلي من أحد الفنادق.

والفنادق في القدس أكثرها من نوع باهظ القيمة، وهي من أجل ذلك ممتازة بنظافتها وحسن استعدادها. إنها في الغالب الأعم تستقبل الحجاج من سائر بلاد أوروبا، وكلهم إلاّ النادر الشاذ من أصناف راقية قدموا القدس لينفقوا فيها عن سعة، ويعيشوا في فنادقها عيشة الكريم الذي يستخدم نقوده في ما يصون وجاهته ويحفظ قيمته.

كان السـرير في غرفة الفندق تساوي ليلته نحو ثلاثين ريالاً سعودياً بما في ذلك الأكل فكانت الأسعار في نظرهم عادية، وكنت أجتمع بهم في ردهة الفندق أو صالة الطعام أو حديقة الشاي فيلذ لي الهدوء الذي يخيم على مجالسهم والنظام الذي ينسق سائر حركاتهم والنظافة الشائعة في جميع مظاهرهم.

رأيت كل هذا فتذكرت حجاجنا في مكة، وليس بينهم من الصنف الذي يسخو بمثل هذه النفقة إلاّ ما يوازي واحداً في المائة، تذكرت الألوف التي تمشي سبهللاً بحثاً عن حائط يظلها، أو جواد يطعمها. وتذكرت الألوف التي لا تجد في جيوبها ما يقوم بحاجتها أو يحفظ عليها كرامتها، وتذكرت الألوف التي تتكتل في الغرف، وحسبها أنها أمّنت (عفشها) ومضت تقضي أوقاتها بين أروقة المسجد أو ردهة المطوِّف، وتذكرت الألوف التي تستصحب عيشها من بلادها خبزاً جافاً وجبناً مملحاً لتتبلغ به مدة إقامتها توفيراً للنفقة، وألوفاً أخرى لا تكسوها إلاّ ثياب قذرة أو أردان ممزقة، كما تذكرت الألوف التي تتزاحم بسبب قضاء حاجتها على المتوضآت العامة وإذا اضطرها الزحام التمست زقاقاً أو عطفة، وراحت تقضي حاجتها لأنها لا تجد ما تملكه لنفقات السكن حتى في أرخص البيوت.

وتذكرت الألوف التي تعاكس من أجل قرش وتشاكس ويضيق صدرها بتأثير الفقر المدقع الذي تعاني قسوته.

لقائل أن يقول إن مكة لم تستعد إلى اليوم بالفنادق الواسعة والمرافق النظيفة والمطاعم الممتازة، وأن أكثر باعتها والمتصلين بالحجاج فيها يستغلون الحاج ويتمنون لو امتصوا دماءه.

ولا أريد أن أجادل في هذا طويلاً لأنه نتيجة حتمية لحالة الحج التي ورثنا وعثاءها من مئات السنين.

لقد عاشت بلادنا حياتها فقيرة، فلو ظفرت من مئات السنين بحجاج ألفوا البذل بمعناه المشروع المنظم على غرار ما رأيت في القدس من حجاج أوروبا لاستطعنا أن نغتني وأن نهيئ مرافقنا العامة تحت وطأة الحاجة الملحّة كأرقى ما تتهيّأ المرافق في البلاد المتمدنة.

إن أهم ما يعاتب عليه المسلمون أن فكرة الحج شرعت في عصور التأخر تأخذ غير المعنى الذي فرضت من أجله.

إن هذه الألوف المؤلفة التي تفد إلينا في كل هذه القرون المعروفة بقرون التأخر لا يسوق أكثرها الغرض السامي بقدر ما يسوقه التقليد.

لقد شاع في أكثر بلاد الإسلام أن الحاج سبَّاق إلى حيازة لقب حاج ليتباهى بما حاز ويربح في نظره وساماً له قيمته في الوسط الذي يعيش فيه.

وتطور شيوع هذه الفكرة أكثر ما تطور في الطبقات والأوساط الفقيرة في بلاد الإسلام، فازداد تهافتهم على الحج في صور لا يقرها الشرع من أكثر مناحيها.

فنحن اليوم ومن مئات السنين نشاهد مواقف الحج تزدحم أكثر ما تزدحم بالمقلين والمعوزين والذين لا يجدون في جيوبهم ما يصون كرامتهم من ذل الفاقة، أضف إلى ذلك جيوش الشحاذين من كل صنف ولون.

كل هذه الألوف نسيت أن الحج لمن استطاع ونسيت أن المشرع الأعظم لا يسمي الحاج مستطيعاً وهو يعرّض كرامته لذل الحاجة أو هوان السؤال أو قسوة التقتير الذي يزري بشرفه.

فلو فهم المسلمون هذا من مئات السنين لوفروا على أنفسهم مشقة الهوان وصانوا بلد الله الحرام من جيوش الفقر التي تزحف إليه في كل عام لتثقل على كاهله وتزيد في أعبائه.

لو فهم المسلمون هذا واقتصرت وفودهم على القادر والمستطيع لانتفعت البلاد بما يدره القادر المستطيع، واستطاعت من زمن بعيد أن تهيئ مرافقها في نطاق يتسع باتساع عدد القادمين من الحجاج، أمّا هذا الهجوم الذي لا يحده شرع ولا يقره عقل، فإنه سيظل ما بقيت الأيام يحمل موانع التقدم بسائر أصنافها ويعمل على بقاء البلاد عاجزة عن مواجهة المواسم بما يشرفها كعاصمة للدِّين. وما يُقال عن هذا في مكة يقال مثله في ما يتعلق بالمدينة المنورة وجدة وسائر المدن التي تتصل بالحجاج.

قنصليتنا تتكئ على رَبوة خضراء

لا تشعر وأنت في مدينة القدس أنك تسكن قمة شامخة، ذلك لأن مجموعة الجبال التي تنام القدس فوق أكتافها تتقارب وتستوي منها مسطحات شاسعة تنتظم المدينة بساحاتها وأسواقها وشوارعها الجديدة وعماراتها الفخمة، وتتراوح درجة الحرارة فيها بين 22 و 30 إذا اشتد الصيف، وربما هبطت في شهور الشتاء إلى 3 تحت الصفر.

على أن للمدينة أقساماً تعلو وتنخفض لتساير مرتفعات الجبال ومنحدراتها، وفيها أرباض تبدو أنوارها لامعة في الأفق على رؤوس سامقة تتقارب وتتباعد لتذكرك بالجبال التي تتطامن تحت قدميك أو تتسامى على مرمى عينيك.

وينعشك في جوها نسمات يرفرف فيها ندى فواح، ويلذ لك في حدائقها منظر الحمضيات تتدلّى في أعذاقها في شكل جميل جذاب.

ما أحلى أياماً قضيتها بين أحضان القدس، وما أجملها أمسيات كانت زاخرة بألوان من الشجون لا أريد أن أسبق السياق إليها.

كانت دار قنصليتنا تتكئ إلى ربوة خضراء تطل على مدينة القدس. وكانت حديقتها الواسعة تتدرج في مربعات بعضها أعلى من بعض، وكان لصديقي وكيل القنصل محمد عبد القادر العلاقي شلة منتقاة فيها مفتي المدينة وقاضيها وبعض كبار التجار فيها، ولم يكن بينهم سعادة القنصل لتغيبه في إجازة فكنت أقضي أغلب أمسياتي بينهم نناقش كثيراً من مناحي الحياة وأحداثها.

لقد كان الأستاذ العلاقي موهوباً يجيد فنّ الحديث، ويعرف كيف يفرض حبه على كل مَن يعرفه ويوزع ابتسامته على كل مَن يجالسه، أمّا عنايته بكل سعودي دبت رجله في فلسطين فيستطيع أن يرويها عني كل مَن زار فلسطين من مواطنينا.

قيل لي تسلمت مفتاح غرفتي في الفندق الذي نزلت به في القدس أأنت سعودي؟ قلت: نعم. قال: المتحدث سيسأل عنك وكيل القنصل فنرجو إعطاءنا عنوانك في أي جهة تخرج إليها.

قلت: ولكنه لا يعرف أني هنا وسوف أزوره إذا استقر مقامي. فقالوا إنه دائم السؤال في الفنادق عن السعوديين وأسمائهم، دائم الزيارة لكل سعودي ينزل بنا.

وما تم الحديث حتى رنّ جرس التليفون، وبذلك علم سعادته بوجودي فألزمني بالبقاء ولم تمضِ إلاّ دقائق حتى كان يعانقني في حدة اللهفان.

ومضت أيام لم أندم فيها على شيء ندمي على قصور باعي في الشعر وعجزي عن الإشادة بسجاياه العالية في قصائد يسير بها الركبان ويتناقلها الندمان!! كما كانوا يقولون.

وعرفت في القدس شاباً اسمه زكريا، كان مثال الشباب الفلسطيني اعتزازاً وحماساً وحيوية ما إن عرف أني صحفي من مكة حتى انتدب نفسه متطوعاً ليضع يدي على مبلغ الغبن الذي لقيته بلاده من اتفاقية الهدنة التي فرضت على فلسطين، فحدث من نشاط شبابها وضمنت لليهود من وسائل الترضية ما لا يقره نظام في الأرض مهما بلغ جوره واشتط ظلمه.

كان يقتطع الكلمات من فؤاده وهو يحدثني عن أيام الجهاد المقدس الذي كان يتأبط فيها بندقيته، ويزحف في صفوف الألوف من شباب فلسطين ليلهبوها عليهم ناراً حامية، ويجلوهم عن مواقعهم قرية بعد أخرى ثم يضرب كفه بالأخرى، ويهيب بي في آهة لها مثل زفرات الجمر: "كنا نتمنى لو تركت الهدنة شباب فلسطين يصفي حسابه بيديه، ويجلّي الآثمين عن كل شبر اغتصبوه كنا في غنى عن مندوبي هيئة الأمم ومبعوثيهم.. أمّا العرب فحسبنا منهم أن يزودونا بالسلاح والمؤونة ويقفوا على كثب منا ليسجلوا خطواتنا نحو النصر."

وتستمر جذوة الحماس ونحن جلوس على أحد مرتفعات فلسطين فتتدافع الكلمات في حرارة تحس لها مثل فيح الأتون: "انظر.. أترى العدوة المنبسطة أمام ناظرك خلف هذا الشارع. إنها بيوتنا أترى هذا البيت الأصفر؟ أترى نافذته المفتوحة؟ إنها كانت مجلس عمّي يطل منها على حديقته الصغيرة.. أنظر.. أترى هذا الشيخ الذي يطل منها؟ إنه وريثنا المغتصب من أولاد صهيون.. ثق يا سيدي أن الأمر لا يكلّف الشباب مثلي أكثر من حملة واحدة تستعمل فيها بنادقنا الرشاشة فنجلّيهم عن سائر بيوتنا ولكنها اتفاقية الهدنة ونظامها الدولي الذي رغم أنوفنا."

"انظر.. أترى هذه الثياب المنشورة في (البلكونة) المقابلة التي تسامت عمود التليفون؟ -إنها بلكونتنا.. في هذا البيت عاش جدي ووالداي. وفي ظل هذه البوابة العالية التي تشاهدها كنت أرتع صغيراً مع أترابي في لعبة الشرطي والحرامية، وما كان يدور في خلدي أن التمثيل الصبياني سيصبح في أحد الأيام أحداثاً واقعية، وأن جماعة الحرامية سيظفرون في أحد الأيام باغتصاب ما ورثته من أبي وجدي."

"هذه القدس مدينتي ولكني اليوم لا أملك منها إلاّ الشطر الضعيف الذي ترى!! أمّا هذه المناطق التي تشاهدها تنبسط إلى أعالي التلال وتخوض إلى نهاية الوادي المعشوشب وتتسع باتساع السهول في أحضان الجبال.. كل هذه المناطق باتت لقمة سائغة في فم اليهود" وتتركنا نلتحف العراء.

"أتنشط يا صديقي: سأريك غداً بوابة مندلبوم التي تفصل مدينتي عن مدينتي."

"سأريك جامعة صهيون التي فرض بقاؤها بين بيوتنا وأبيح لقوات اليهود أن تمر بشوارعنا لتنقل إليها التموين تحت حراستنا."

"سأريك القرية التي شطرتها اتفاقية الهدنة وأهدت نصفها للمغتصبين."

"أريك الدسكرة التي فصلت مدرستها عنها لتدخل في قسم المحتلين."

"أريك الحي الذي بتر منه مسجده لأن المسجد كان من نصيب الظالمين."

"أريك المنطقة التي يمر فيها الخط الحديدي وسط المزارع في قسم العرب.. فلا يملك مزارعو العرب إلاّ أن يقفوا عن أعمالهم انتظاراً لمروره."

"سأريك الأبناء الذين يسكنون في حلة اليهود بعد أن تركوا آباءهم في منازل العرب."

"وأريك (العمدة) الذي يعينه العرب حاكماً في قريته.. ويطالبه اليهود بتنفيذ الإجراءات في ما يليهم من جيرانه."

"وأريك البيوت التي تقابل واجهاتها ما يملك العرب وتطل مؤخراتها على ما اغتصب المحتل."

"سأريك سطوح المنازل التي يتصل جيرانها دون أن يتكلموا لأنهم بين منطقتين مختلفتين."

"وأريك الشوارع التي يختلط فيها الرائح بالغادي دون أن يسلموا لأنهم بين حدين متعاديين."

"سأريك لتبكي إذا كنت ممّن يسح الدمع."

"وأريك لتعتبر إذا كنت ممّن تفيدك العبر."

"وأريك لتعرف العدل في القاموس الدولي إذا شاقك أن تعرف حقائقه ومعانيه."

شاهدت اليهودُ على كثبٍ منّي

هل آن الأوان لنملي عليهم بقوة سواعدنا معاني ما يقرون؟

ومضينا لنشاهد لوناً عجيباً من مآسي الحياة.

لقد قرأت كثيراً عن مآسي التاريخ، وربما تيسر لك أن تطلع أنت على أكثر مما اطلعت، ومع هذا فإني أستطيع أن أؤكد أنني وإياك لا نكاد نجد ما يشبه لون مأساة (بوابة مندلبوم) أو بمثل غرابتها المبكية إلاّ في الشاذ النادر.

إنها ليست بوابة بالمعنى المتعارف.. إنها قطعة من جدار لا يزيد ارتفاعها عن أربعة أمتار أقيمت لتفصل شارعاً في قلب القدس فتحجز العرب في جزء منه وتعطي بقيته الباقية منحة لليهود وإرضاء للعيون الزرق!!

إنها قطعة من جدار تقطع عرض الشارع من أحد الرصيفين ثم تنتهي قبل الرصيف المقابل بعده أمتار كافية لمرور السيارات من القطاع المحتل إلى داخل القدس حيث يعيش أحرار العرب.

وأنكى ما في هذه المأساة أن تفرض الهدنة على أباة الضيم من أصحاب البلاد أن ينصّبوا أنفسهم حراساً على هذا الفاصل الذي يسمونه (بوابة مندلبوم) فلا يبيحون لمثلي ومثلك أن يتخطاه إلى امتداد الشارع الذي كان يملكه العرب.

وحتى عندما أذن لي كصحفي لم أستطع أن أمضي بعد الفاصل إلى أكثر من عشر خطوات، ولكن ذلك كان كافياً مع كل أسف لأن أشرف على امتداد الشارع وكثير من الأزقة المتفرعة عنه وأشاهد اليهود المحتلين على كثب مني يمضون في أعمالهم مطمئنين في ظل قانون الهدنة الغاشم.

وشهدت حراس اليهود يحتلون النوافذ في أقرب البيوت إلى (بوابة مندلبوم) ويحتمون فيها وراء أكياس الرمل وقد شهروا السلاح –أول ما رأونا– وصوبوا بنادقهم متحفزين للعمل لأول خطوة يساورنا فيها الرأي بأن نتخطى ما أذن لنا.

ومضى صاحبي يشير لي دون أن يحرك يده: "هذه بيوت لا يجد أصحابها الذين أجلوا عنها ســقفاً يســتظلون به.. وتلك مزارع أمســى اليهود يأكلون ثمارها وبات ملاّكها يتحسرون على النظر إليها ولو خلسة."

وقلت: وماذا عن اليوم الذي أباحته الهدنة ليتزاور فيها ســكان القطاعين. قال: إنه يوم في كل عام يباح فيه للمســيحيين من العرب في قطاع اليهود أن يتصــلوا ببوابة مندلبوم لينتظروا إخوانهم من قطاع العرب، فيجتمع الأقارب من القطاعين ســاعات محدودة ثم يعلن رجال الهدنة نذيرهم فيفترق كل إلى قطاعه عائداً من حيث أتى.. وهي ميزة يتمتع بها العرب المسيحيون وحدهم، أمّا المسلمون فلا يملكون هذا الحق.

وزفر صاحبي زفرة حسبت فؤاده انخلع لها، ثم مضى يعود بي إلى السيارة وهو يهيب بي: "لا تفوِّت على نفسك رؤية القافلة اليهودية إنها ستجتاز شوارعنا بعد عشر دقائق في سياراتها المصفحة لتحمل التموين إلى الجامعة العبرية الباقية في إحدى قرانا."

قافلة يهودية تجتاز شوارع العرب.

جامعة عبرية باقية في بعض قرى العرب.

إنها ألغاز في حاجة إلى مَن يعلن عنها في ركن (شــختك بختك) فربما وجد غيري من أصحاب الذكاء مَن يستطيع أن يظفر بجوائزها.

ولكن صــاحبي لا يطمح لجائزة ولا يطمع في أن يثبت لك أنه أحد الممتازين بالذكاء لأن الأمر في نظره لا يزيد عن قصة بات الغرض مكشوفاً فيها.

وتتلخص القصــة في أن البواســل من رجال القدس عندما أجلوا اليهود قبل الهدنة عن قرية عربية في ضــواحي القدس ترك اليهود خلفهم في القرية جامعتهم (الجامعة العبرية) كما تركوا بجانب ذلك مستشفى لهم.

فهل يبيح رجال الهدنة للعرب أن يربحوا ما كسبوا في قراهم.

أبداً.. لأن في هذا إجحافاً باليهود!!

والإجحاف باليهود لا يرضي رجال الهدنة.. إنهم يهود مدللون وليسوا عرباً.

لتفرض إذن اتفاقية الهدنة في مادتها الثامنة أن (تظل جامعة اليهود تؤدي أعمالها وسط المنطقة العربية ويظل المستشفى إلى جانب الجامعة يؤدي مهمته للجامعة، وليس لدى رجال الهدنة من مانع أن يبيحوا لليهود بقاء حراس من جيشهم في قرية عربية باسم حراسة المستشفى والجامعة، وأن ينظم اليهود لأنفسهم قافلة نصف شهرية تحمل الميرة من القطاع اليهودي في القدس إلى قرية عربية ليمونوا جامعتهم فيها ومستشفاهم وحراسهم بين الجامعة والمستشفى).

إنه فرض لا حيف فيه في منطق رجال العدل!! من جهابذة القرن العشرين!! ولكن الحيف كل الحيف أن يسمحوا للعرب بمثل هذا الحق في مثل هذا المنوال.

إن للعرب ما يقابل هذا، بل وأقرب من هذا لأن لهم كلية تقع فوق جبل المكبر بالقرب من مقر هيئة الأمم المتحدة.. وجبل المكبر أصبح بنص هذه الاتفاقية –اتفاقية الهدنة– منطقة دولية مجردة من السلاح، فهل تبيح الهدنة للعرب أن يواصلوا دراستهم في الكلية على غرار ما أباحت لليهود؟

أبداً إنه حيف.. فالعرب ليسوا يهوداً.. والعرب سكان أصليون وليسوا بغاة غاصبين فهل فهمت؟

إذا كنت محدود الذكاء مثلي فما عليك إلاّ أن تستفتي نظم العدل كما يفهمها رجال المنطق!! من جهابذة القرن العشرين.

وأقول لصاحبي: ولكن مشكلة الكلية العربية أيسر خطباً من مشكلة جامعة اليهود؛ لأن الأولى تقع في منطقة محايدة لا أثر فيها للخطر، بينما تقع الثانية في قلب قرية عربية حيث ينتظر الاستفزاز ولا يستبعد الخطر، فيزفرها صاحبي آهة طويلة وهو يصيح بي: "إنه منطق العدل في القرن العشرين لا تفحم حجته إلاّ لغة الرصاص وهدير

المدفع.. أعطونا الرصـــاص والمدفع.. أنظرونا لنريك كيف يفهمون البنود ويفســـرون المواد والعهود."

وبدت طلائع القافلة تتخطى (بوابة مندلبوم) وتتهادى في صف طويل بين العرب في شوارع آخذة طريقها في قلب المدينة إلى الضاحية التي تتصل بجامعة اليهود ومستشفاها ووقف حراس فلســـطين العربية يفســـحون أمامها الطريق ويمنعونها أن يدنو منها أي مواطن عربي.

إنها سلسلة سيارات مصفحة احتشد بعضها بأصناف التموين وامتلأت أخرى بالجند المدجج بالســـلاح، وقد أقفل على من فيها إلاّ ثقوب صـــغيرة ترســـم الطريق أمام سواقيها.

وهكذا تمشي قوى عدوك المسلّحة فترود أرضـك وتدوس حماك في ظل الاتفاقيات والبنود فهل آن الأوان لنفرض أنفسـنا على ما يتعاقدون.. ونملي عليهم بقوة سواعدنا معاني ما يفسرون؟

الهدنة جعلت الأب وبعض الأولاد في جانب العرب والبقية في جانب اليهود.

لعلّك تتهمني بالخيال وأنا أصف لك مثل هذه المشاهد الدامية التي لا يكاد يصدقها عاقل قبل أن يزور فلسطين ويصافح مشاهدها الغريبة.

سـوف لا ألومك فقد اتهمت نفسـي قبلك.. كنت أمشـي بين هذه المشـاهد وأنا لا أصـدق أن رجلي هي التي تحملني إليها.. كنت أسـائل نفسـي أيقظان أنا أتمتع بكامل وعيي أم نائم أغذ في أحلام مهزوزة لا تنتظم لواقع؟

هذا حي الثوري. وهم ينسبونه إلى سفيان الثوري أحد جهابذة الإسـلام المعروفين.. إن زكريا يقودني فيه من مرتفع إلى أعلى، ويقسـم عليَّ إلاّ أن أجاريه كشـاب لأبلغ نهاية مرتفعاته وهي لا تقل صعوبة عن مرتفعات جبل "قعيقعان" في مكة.

هذه دور عربية تنتهي بنهاية الزقاق الصاعد في مخارف الجبل يجب أن تقف عند هذا الحد فقد منح خط الهدنة الدولي ظهور هذه الدور وما يلاصقها من مساكن لعصابة المعتدين فلا يجوز أن تخطو نحوها خطوة.

أترى سطوح الدور على مدى نظرك.. إنها تتصل مباشرة بسطوح الدور التي سلِّمت للعصابة وسلِّم معها سكانها ليعيشوا تحت نير اليهود ولا يفصل بين الفريقين بين الحدود والحدود إلاّ طنف من جدار أو إفريز من (بلكون).

إنهم ليسوا جيراناً فقط بل جلّهم أصهار وأقارب، وأن من الدور ما استطاعت خرائط الهدنة أن تفصلها قسمين ليصبح الأب وبعض أولاده في مملكة العرب، وتمسي الزوجة مع بقية الأولاد في ما احتل اليهود.

لا نستغرب هذا فنظائره لا تقل غرابة.

إن بيت صفافة قرية عربية سكانها مسلمون، شطرتها اتفاقية الهدنة إلى شطرين.. كنا نمشي في شارع القرية الرئيسي ونحن نضع أيدينا على الأسلاك الشائكة التي تشطر الشارع.. كنا نمشي في الشارع يقودنا العمدة وبعض كبار القرية وعلى شمالنا من ربع متر منا كان يمشي رجال آخرون ينطق الأسى على جباههم.. إنهم رجال من القرية واتاهم سوء الحظ فباتوا من نصيب الأرض المحتلة، وبات الفاصل الدولي من السلك يفصل بينهم وبين أقاربهم في الجزء الآخر من الشارع نفسه الذي نمشي فيه.

وحسبتني أستطيع أن أبادرهم التحية أو السلام، ولكن رجال القرية كانوا أدق ذكاء مني فقد أعلنوني قبل أن نقابلهم بخطوات أنه لا يجوز في نظر الحراس أن نحييهم أو نسلم عليهم إلاّ إذا أردنا أن نسيء إليهم ونصمهم بما يسوقهم إلى مواقف الاتهام الظالم.

وأشار زكريا إلى رفيق لنا كان يمشي خلفنا فقال: إنه أخ للكهل الذي أطلت النظر إليه خلف السلك، ومع هذا فهو يكتفي بأن يملأ عينه من مشاهدة أخيه عابراً ولا

يجرؤ على الإيماءة أو الإشارة خوفاً عليه أن يسوقوه متهماً بالخيانة!! ويذيقوه من نكال عذابهم، وأشار إلى مسجد القرية الوحيد وهو على بُعد أمتار منا فقال: إنه أصبح من نصيب منطقة اليهود فحرم العرب من الصلاة فيه.

أيكفي هذا لتسح عينك دمعاً أم تراك في حاجة إلى أغرب منه وأنكى؟

إنها قرية برطعة من منطقة نابلس في اللواء الشـــمالي.. عدا عليها خط الهدنة في اتفاقية رودس المشؤومة فقطع أوصالها.

بات المسـجد في المنطقة العربية، أمّا عين الماء الذي ترتوي منه القرية وأمّا المدرسـة التي يتعلم الأطفال فيها فقد ألحقتا بالمنطقة المخصوبة.

وأرادت الاتفاقية أن تتلطف مع الســكان فأباحت للجزء العربي أن يصـــلي في المسـجد المحتل في نظام مقدر، وأباحت للجزء العربي كذلك أن يسـقي ماءه من العين المحتلة في أوقات معينة وترتيب خاص، كما أباحت لأطفاله أن يغشوا المدرسة وينتظموا في صفوفها فهم اليوم يدرسون فيها على المنهج اليهودي.

وقد تحريت عن عمدة القرية (المختار) فعلمت أنه معتمد من قبل الحكومة العربية والغاصبين في آن واحد، وأنه يحمل مع كل أسف هويتين.

أيكفي هذا؟ أم أتلو عليك من نبأ قرية بتير ما يثير أساك؟

إنها قرية تقع على خط الهدنة جنوب القدس.. وقد شـاء لها سـوء الطالع أن تنام في طريق الخط الحديدي الذي يصـــل يافا بالقدس المحتلة، رغم أنها داخلة بحكم اتفاقية الهدنة في مناطق العرب فماذا تظنهم فاعلين، وأي الحلول تتفق في رأيك مع منطقهم العدل؟

إنك لا تشـك في أن هذا الخط الحديدي لو كان عربياً، ولو كان يصـل بين مدينتين عربيتين لقالت الهدنة قولتها بإلغائه تحاشياً من المشاكل وبعداً عن الارتباك.

ولكن.. أقول: ولكن وأرجو ألاّ تأسى كثيراً وأنا أقول: ولكن هذا الخط كان يهودياً فما يمنعهم أن يسيروه؟

أتخشى أن تدوس دواليبه كرامة العرب، وأن تدق عجلاته الثقيلة على موطن الإحساس من قلوبهم.

إنها معانٍ شعرية لا قيمة لها في نظر حكام الهدنة ما دام هدير المدافع لا يؤيد العرب، وأزيز الطائرات النفاثة لا يملي حجتهم.

لقد رأيت القطار يطوي قضبانه بين مزارع العرب، ورأيت أحد المزارعين وقد وقف يحمل رفشه وهو ينتظر مرور القطار على حافة مزرعته فتمنيت لو مادت الأرض بالقرية ومزارعها قبل أن يظفر القطار اليهودي بطريقه فيها.

وابتدرني زكريا في حماس يتوقد لظاه: أتدري؟ إنه في سبيل مصلحة اليهود.. ومن أجل هذا القطار المدلل فقد أصحاب القرية ثلث مساكنهم الواقعة على جوانب الخط.. إنها مدرسة عربية رضيت الهدنة أن تبقيها لتعليم أطفال القرية بشرط أن يغادرها الأطفال عند نهاية الدراسة اليومية إلى مداخل القرية، ولا يتلكأ أحد بجوارها حرصاً على أمن اليهود.

وبعد أن قبل العرب هذه المنحة حاولوا أن يرفعوا على بابها لوحة تمثل اسمها فأبى رجال الهدنة لأن منطقتها دخلت في ما أهدي لليهود!!

قلت: وما شأن المزارعين حول شريط سكة الحديد؟ قال: شأن المتقاضين في عهد (قراقوش) المرحوم، فقد أبيح لهم أن يزرعوا أراضيهم فتجد العرب اليوم يتخطون المنطقة العربية إلى الشطر الخاص بمنطقة اليهود فيزرعون أراضيهم ويجمعون حاصلاتهم تحت حراسة اليهود، ولا يتعرضون في طريقهم لسكة الحديد لأن اتفاقية رودس حكمت بذلك.

قلت: وهل بنى اليهود سكة الحديد؟ فقال: بناها الإنكليز أعمامهم ثم أهدوها لليهود عند انسحابهم.

لا يجدون ما يقيم أودهم إلاّ لقيمات تتصدق بها وكالة الغوث

أتراني أسهبت طويلاً في حديثي عن فلسطين وما نالها من حيف الغاصبين، وأخذت لها من حيز المجلة أكثر ممّا ينبغي كتابته عن رحلة عامة أم تراني قصّرت فاقتضيت ما كان يجب أن تتسع له المجلدات من قصص بلدنا المنكوب؟

لا أستطيع أن أجزم بشيء في هذا أو ذاك، ولكني أستطيع أن أقول إن فلسطين المسكينة شبعت من تنميق الكتّاب، وتنضيد الشعراء، وبراعة الخطباء، وبلاغة المحامين، وباتت في أشد الحاجة إلى غير هذا اللون من المدد.

إن مئات الألوف من أرباب الثروات ورجال الأملاك فيها وأصحاب المزارع والمصانع باتوا مجردين من كل ما يملكون مشردين في كل صقع لا يجدون ما يؤويهم إلاّ سقائف لا تمنع الشمس، ولا تقي من البرد ولا يجدون ما يقيم أودهم إلاّ لقيمات تتصدق بها عليهم وكالة الغوث في صور يندى لها الجبين ويتفطر من مآسيها الفؤاد.

وهي اليوم بعد أن قاست من شظف العيش ما لا يقوى عليه جلد أصبحت معرضة لأهول ما تتعرض له أمة منكوبة.

كان صاحبي يحدثني وهو يشير إلى العيادة الطبية التي أقاموها في مخيمات اللاجئين في العروب، وتركوا ألوف المرضى يتجمهرون حولها في صور تنطق بآلامهم فقال: "إن هذا المستشفى تبشيري اسمه مستشفى البركة.. إنه يقدم خدماته للمرضى من اللاجئين، ويبث تعاليمه فيهم فيفرض عليهم الصلاة في كنيسة المستشفى."!!

"أتسمعني جيداً؟."!

"إنه يفرض عليهم الصلاة في كنيسة المستشفى.. ويعلمهم العبادة حسب الطقوس النصرانية."

لقد أنشأ هذا المستشفى مبشر إنكليزي قضى 15 سنة في السودان يعمل للتبشير.. وتنفق عليه اليوم جمعيات خيرية.

أتدري؟

"إنها جمعيات مسيحية تنتشر فروعها في أمريكا وبريطانيا."

أيكفيك هذا؟.

إن كان لا يكفيك فاعلم –أفادك الله– أن وكالة الغوث للأمم المتحدة تساعد هذا التبشير وتعين عليه فتتبرع بتموين المستشفى مجاناً.

ألا ترى أن في هذا الخطر المحدق ما يكفي للقضاء على عقائد إخوان لنا نعتز بإسلامهم، وأن في ما يقاسون من أنواع الحرمان والجوع والأمراض ما يعرضهم للإبادة والانقراض. أم ترى أن أقلامنا وما تدبجه من فصيح القول، وقصائدنا وما تنطق به من متين الشعر، ومنصاتنا وما تضج به من بليغ الكلام كافية لرد العاديات والصمود أمام المغيرات؟

طيب اللّه ثراك يا أبا تمّام، فقد كنت أصدق من يعبر عن أحوالنا اليوم وأنت تقول:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حدّه الحد بين الجد واللعب

بدرت بوادر هذا الجبل

قدمني الصديق الأستاذ محمد العلاقي وكيل القنصل في القدس إلى أحد أصدقائه من كبار الموظفين في حكومة الأردن باسم شيخ الصحافة في إحدى جلساتنا في حديقة القنصلية.

وقدمني هذا الكبير إلى زميل له في جلسة أخرى باسم عميد الصحافة فعرفت لوناً من أساليب التحريف التي تغشى حياتنا.

وانتقلت الكلمة بقدرة قادر إلى إدارة كبيرة في القدس فلم أكن فيها شـيخاً ولا عميداً بل نقيباً.

وجاء أحدهم يسـألني عن الطريقة التي يتم بها انتخاب نقيب الصـحافة في بلادنا فقلت ألا تسمح فتصحح الفكرة قبل أن نبحث تفاصيلها.

-قال: وما تعني؟

-قلت أعني أن هذا الماثل أمامك ليس نقيباً للصـحافة حتى تسـأله كيف تم انتخابه.. ثم هو قبل هذا وبعده إن شئت ليس عميداً.. لا.. ولا شـيخاً إلاّ إذا أردت أن تسـمّيني إكراماً لسـني شـيخاً أو كهلاً من كهول الصـحافة أو شـيوخها لا شـيخها بالمعنى المتعارف.

إن الصـحافة في بلادنا تنتظم شـيوخاً تقدمت سـنهم عني، وربما كان لبعضـهم على شخصي فضل الأستاذ على المتعلم، كما تنتظم أكفاء ربما خالجني أن أحسد براعتهم لو جاز الحسـد، فإذا ظل كل هؤلاء أحياء يرزقون فلا أمل لي في نقابة الصـحافة ولا مشيختها.

فانفرط الرجل ضاحكاً ملء بطنه الكبير ثم قال: وإذا عشت لتنفرد بالكفاءة بعدهم فهل تتمنى النقابة أو المشيخة عند ذلك؟

قلت: إنني سأكون يومها في سن التخريف والهذر، ثم لا آمن أن يحل محلهم جيل لا يعجبه ما نكتب اليوم وقد بدرت بوادر هذا الجيل قوية زاحفة بأسرع ما يكون الزحف.

ومضت أيام تلقيت بعدها دعوة لحضور حفل الاستقبال بمناسبة زيارة جلالة الملك حسـين للقدس، فلقيت صـاحبي في إحدى صـالات الاستقبال فما ملك مذ رآني أن غلبه الضـحك ثم استدار حتى شـد على يدي يصـافحني وهو يقول: مرحباً بصـغير الصحافة!! وسمعته شلة من كبار الحضور فاستغربوا ما يقول! فقص عليهم حديثي عن

مشيخة الصحافة في بلادي فانكفأوا يضحكون في إغراق طويل لم يقطعه إلاّ هتاف الجماهير يعلن وصول الملك.

كانت الصالة في فندق (الأمباسادور) وقد غصت بأعيان الفلسطينيين يتقدمهم المفتي وكبار العلماء، وكانت سائر الغرف في الجناح تزدحم بعدد كبير من المستقبلين والمسلِّمين، وكانت أصوات الجماهير تشق الفضاء هاتفة بحياة الملك.

ودخل الملك الصالة في بذلة عسكرية من الخاكي، وقد شمّر عن ساعديه ومشى في خفة شباب العشرين حتى انتهى إلى الصدر حيث بدأ الناس يتواردون لمصافحته.

وساقتني الصدف خلال الزحام إلى زاوية لا تبعد إلاّ نحو مترين عن مجلس جلالة الملك فصافحتني من ملامحه وحركاته صورة كاملة ينطق فيها العزم، وتمنيت أن يحالفه وإخوانه ملوك العرب ورؤساءهم توفيق يساعدهم على انتزاع حقوق العرب بقوة سواعدهم لا استعطاء من مجالس الأمم أو هيئاتها ومندوبيها أو أصحاب القوانين الشوهاء والحكم الأخرق في مجامعها.

وتقدم إلى منصة الخطابة سماحة المفتي، ثم عقبه عدة خطباء في كلمات كانت جميعها تدور حول حقوقهم المغتصبة على خطوات منهم.. كانوا يشيرون إلى المناطق المحتلة وهي على مرمى البصر من نوافذ الصالة في فندق (الأمباسادور)، ويطالبون في حماس مشتعل أن يقودهم إلى خوض المعركة ليستردوا بقوة سواعدهم ما اقتطعته بنود الهدنة عدواناً وظلماً.

وانتهى الحفل بانتهاء الخطباء فتقدم جلالته إلى الشرفة الواسعة المطلة على جماهير الشعب وكانت هتافاتهم تدوي مطالبة باستئناف القتال ومبادرة الزحف لاسترجاع ما فقدوا، فطيّبهم جلالته بكلمة ارتجلها وكان ممّا ذكره فيها أن الأعمال مرهونة بأوقاتها، وأنه لا يزال عند مبدئه صامداً حتى يعود الحق إلى نصابه.

وأعجبني في القدس أسلوبهم في نصب أقواس النصر، فقد كانت الأقواس رغم قلة تكاليفها شيئاً طريفاً معبراً.. كانوا ينصبون الأقواس في هياكل خشبية عارية لا تزيد في بساطتها عن ساريتين بينهما عارضة.. وكان النجار لا ينتهي من تثبيت ما نصب حتى يكون مختار المحلة أو شيخها قد أطلق الصبيان إلى مناطق الشجر من نواحي القدس ليأتوه بأغصان من فروعها حسبما اتفق، فكنت ترى زرافات الصبية يملأون الأزقة والشوارع يسحبون وراءهم الأغصان حتى إذا انتهوا إلى مكان القوس، شرع الكبار يجللونه بالفروع ويشذبون زوائدها حتى يستوي القوس في شكله الأخير جذاباً تتفتح النفس على اخضراره اليانع ولمعته المخضلة.